

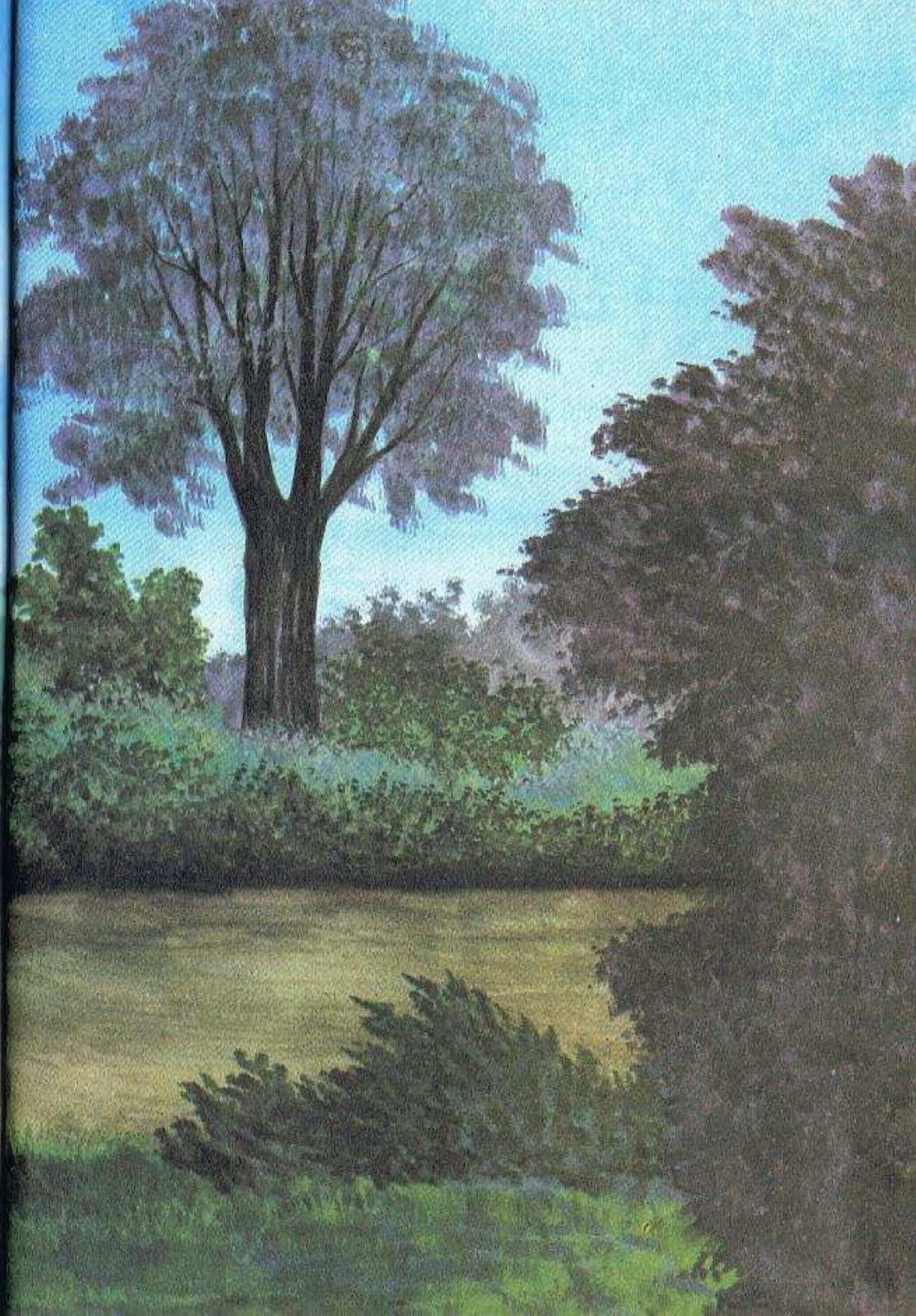
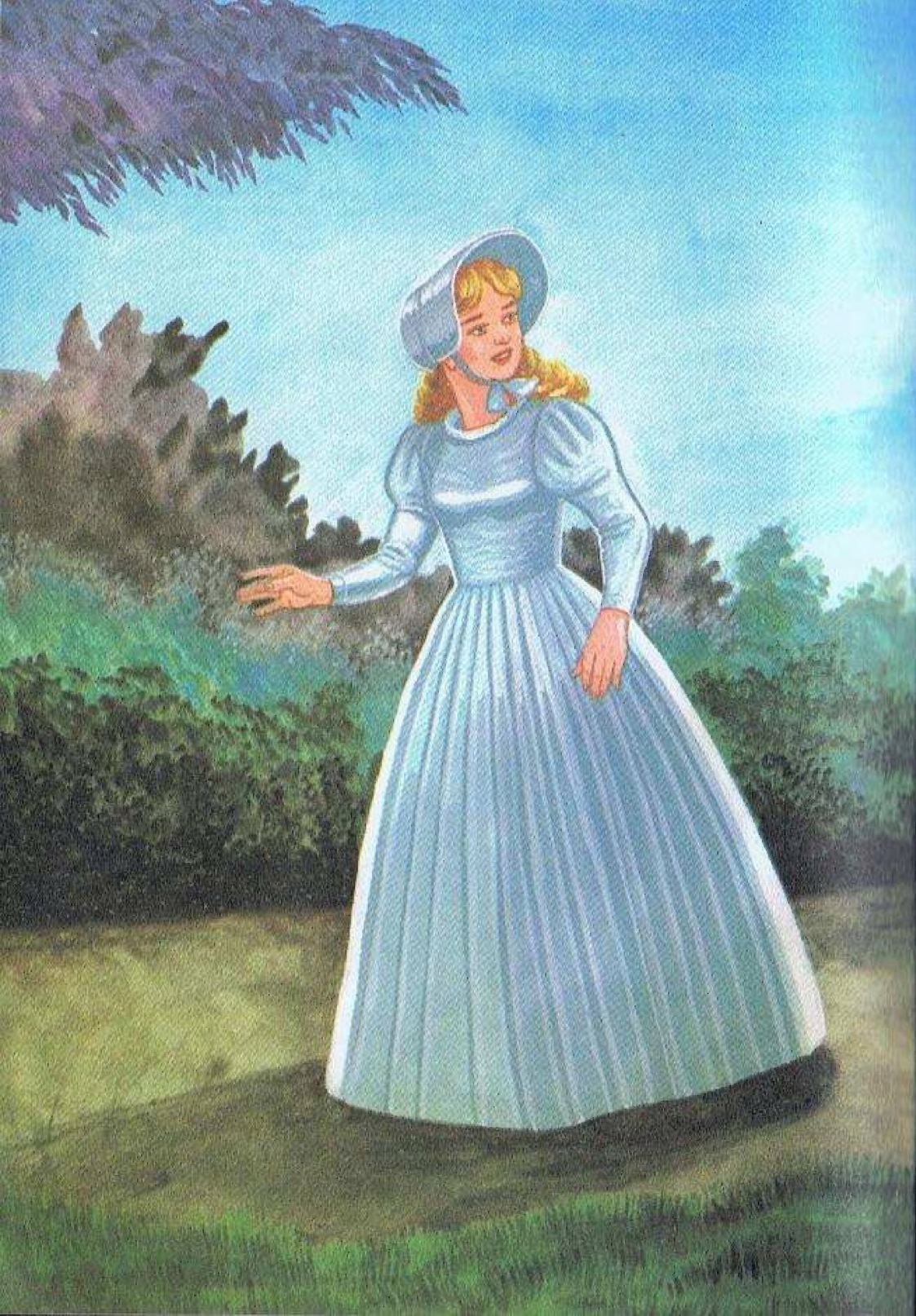
# ذات الداء الأبيض



الروايات المشهورة









# ذات الراس الأبيض



الروايات المشهورة



تأليف : ولكي كولنز

أعدها بالعربية : حسن بعد المقصود حسن

رسوم : ممدوح الفرماوي

مكتبة لبنان

رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ١٩٩٢

١٠ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه

أو تسجيله بأي وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٥٥٩٨ / ١٩٩٢

الترقيم الدولي : ٦ - ٠٠٩٦ - ١٦ - ٩٧٧ - ISBN

طبع في دار نوبار للطباعة



وَلَمْ يَكُنْ بِمَقْدُورِي أَنْ أَدْخِرَ مَا اعْتَدْتُ ادِّخَارَهُ ، فَبَدَأَ لِي أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ أَنْ أَمُكِّثَ فِي لَنْدَنَ وَأَنْ أَمْضِيَ وَقْتِي بَيْنَ بَيْتِ أُمِّي الصَّغِيرِ فِي « هَامْبُستيد » وَشَقَّتِي فِي الْعَاصِمَةِ .

كَانَ الْمَسَاءُ سَاكِناً ، تُظِلُّهُ الْغُيُومُ ، وَكَانَ جَوْ لَنْدَنَ كَثِيباً ، فَالْقَيْتُ بَكِتَابِي وَأَنْطَلَقْتُ إِلَى بَيْتِ أُمِّي ، كَمَا اعْتَدْتُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ فِي الْأُسْبُوعِ ، وَكَانَ أَبِي قَدْ تُوُفِّيَ مِنْذُ سَنَوَاتٍ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدْ تَرَكَ مِنْ الْمَالِ مَا يَكْفِي وَالِدَتِي وَأَخْتِي لِيَعِيشَا فِي بُحْبُوحَةٍ مِنَ الْعَيْشِ .

وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى الْبَيْتِ وَضَغَطْتُ عَلَى الْجَرَسِ ، وَسَطَ الظَّلَامِ الْمُتَجَمِّعِ ، فُتِحَ الْبَابُ . لَمْ تَفْتَحْهُ الْخَادِمَةُ ، بَلْ فَتَحَهُ صَدِيقِي الْإِيطَالِيُّ الْعَزِيزُ الْأُسْتَاذُ بِيَسْكَا ، الَّذِي أُنْدَفَعَ إِلَى الْخَارِجِ فِي سَعَادَةٍ غَامِرَةٍ لاسْتِقْبَالِي . وَمَا دَامَتِ الصُّدُقَةُ قَدْ جَعَلَتْ مِنْهُ نُقْطَةَ الْإِنْطِلَاقِ لِمَا سِيرِدُ مِنْ مُغَامِرَاتٍ ، فَإِنَّهُ خَلِيقٌ بِمُقَدِّمَةٍ تَلِيقُ بِهِ .

كُنْتُ قَدْ قَابَلْتُهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، حَيْثُ كَانَ يَدْرُسُ لُغَتَهُ ، وَكُنْتُ أَنَا أَدْرُسُ مَادَّةَ الرَّسْمِ . وَكَانَ يَشْغَلُ - قَبْلَ ذَلِكَ - وَظِيفَةً فِي جَامِعَةِ بَادُوا ، وَلَكِنَّهُ رَحَلَ مِنْ إِيطَالِيَا لِأَسْبَابٍ سِيَاسِيَّةٍ مَا كَانَ لِيُطْلَعَ أَحَدًا عَلَى طَبِيعَتِهَا . وَهَا هُوَ ذَا الْآنَ ، وَمِنْذُ سَنَوَاتٍ ، يَقُومُ بِتَدْرِيسِ اللُّغَاتِ بِلَنْدَنَ . كَانَ فِي غَايَةِ الْإِمْتِنَانِ لِلْبَلَدِ الَّذِي وَفَّرَ لَهُ عَمَلًا وَحِمَايَةً ،

## الْقِصَّةُ يَدُوُّهَا وَلْتَرِ هَارْتْرَايتَ ، مُدْرِسُ الرَّسْمِ الفصل الأول

هَذِهِ قِصَّةُ تَرْوِي مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُطِيقَهُ صَبْرُ الْمَرْأَةِ ، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَفْعَلَهُ عَزْمُ الرَّجُلِ . وَسَيَقُومُ بِسَرْدِ الْأَجْزَاءِ الرَّئِيسِيَّةِ مِنْهَا كُلِّ مَنْ يُجِيدُ مَعْرِفَتَهَا ؛ حَتَّى تَبْزُرَ الْحَقِيقَةُ دَائِمًا عَلَى نَحْوِ مُبَاشِرٍ مَا أُمَكِّنَ ذَلِكَ . لَقَدْ كَانَتْ الْأَحْدَاثُ الَّتِي تُمَثِّلُ بِدَايَتِهَا وَثِيقَةَ الصَّلَةِ بِي ، أَنَا « وَلْتَرِ هَارْتْرَايتَ » مُدْرِسُ الرَّسْمِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِيَّةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا . شَرَعْتُ قَلَمِي لِأَصِفَ الْمُغَامِرَاتِ الَّتِي قَامَتْ بِهَا الْفَتَاةُ ذَاتُ الرِّدَاءِ الْأَبْيَضِ .

كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ هُوَ آخِرُ أَيَّامِ شَهْرِ يُولِيهِ . وَكُنَّا نَحْنُ - أَهْلُ لَنْدَنَ الْمُرْهَقِينَ - قَدْ بَدَأْنَا نُفَكِّرُ فِي ظِلَالِ السُّحْبِ فَوْقَ حُقُولِ الْقَمْحِ ، وَالنَّسَمَاتِ الْقَلِيلَةِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ؛ فَقَدْ وَلَّى الصَّيْفُ الطَّوِيلُ الْحَارُّ ، حَيْثُ تَرَكَنِي عَلِيلاً وَمُكْتَثِبًا ، وَلِلْحَقِّ كُنْتُ مُفْلِسًا .



وَكَانَ رَجُلًا ضَعِيلَ الْجِسْمِ ، فَرِيدًا فِي طِبَاعِهِ . كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ مِنْ  
وَاجِبِهِ أَنْ يَعِيشَ كَمَا يَعِيشُ الْإِنْجِلِيزُ ؛ لِذَا كَانَ يُجَارِيهِمْ فِي  
عَادَاتِهِمْ فِي كُلِّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ ؛ فَكَانَ يَحْمِلُ دَائِمًا مِظْلَةً ،  
وَيَلْبَسُ قُبْعَةً بَيْضَاءَ . وَلَآئِهٖ وَجَدَ أَنَّنَا أُمَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ بِفَضْلِ حُبِّهَا لِلرِّيَاضَةِ ؛  
فَقَدْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِكُلِّ أَنْوَاعِهَا ، سَوَاءً أَوْ كَانَ لَائِقًا لَهَا أَمْ لَمْ يَكُنْ .  
لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي الْمَخَاطَرَةِ بِذِرَاعِيهِ وَسَاقِيهِ فِي مُمَارَسَةِ هَوَايَةِ الصَّيْدِ  
بِالْخَيْلِ ، أَوْ بِحَيَاتِهِ فِي الْبَحْرِ ؛ فَقَدْ كَانَ يَرَى الْإِنْجِلِيزَ يَرْكَبُونَ  
الْخَيْلَ ، وَيَسْبَحُونَ .

وَذَاتَ يَوْمٍ ، تَقَابَلْنَا أَنَا وَهُوَ صُدْفَةً ، فِي بَرَايَتُونَ . كَانَ قَدْ قَذَفَ  
بِنَفْسِهِ ، فِي سَعَادَةٍ غَامِرَةٍ فِي الْمَاءِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا بِالْمَرَّةِ عَنْ  
السَّباحَةِ . وَتَلَفْتُ حَوْلِي أَبْحَثُ عَنْ صَدِيقِي ، وَصَدِمْتُ صَدْمَةً  
عَنيفَةً ؛ إِذْ لَمْ أَرِ شَيْئًا بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّاطِئِ سِوَى ذِرَاعَيْنِ  
بَيَضاوَيْنِ مُلَوَّحَتَيْنِ سَرْعَانَ مَا اخْتَفَتَا تَحْتَ سَطْحِ الْبَحْرِ . وَغُصْتُ  
أَبْحَثُ عَنْهُ ، فَوَجَدْتُهُ مُمَدِّدًا عَلَى ظَهْرِهِ وَقَدْ بَدَأَ أَصْغَرَ حَجْمًا مِمَّا  
كَانَ . وَلِحُسْنِ الْحِظِّ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْتَشِلَهُ إِلَى الشَّاطِئِ ، حَيْثُ أَفَاقَ  
شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ نَكْبَتِهِ . وَمَا إِنْ شَعَرَ بِتَحَسُّنِ حَالَتِهِ ثَانِيَةً ، حَتَّى رَاحَ  
يُمَاطِرُنِي بِعِبَارَاتِ شُكْرِهِ الْمُفْعَمَةِ بِالْأَنْفِعَالِ ، مُعَلِّنًا أَنَّنِي قَدْ أَنْقَذْتُ  
حَيَاتَهُ الَّتِي سَتَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فِي خِدْمَتِي تَمَامًا . وَأَضَافَ أَنَّهُ لَنْ  
يَكُونَ سَعِيدًا إِلَّا بَعْدَ مُكَافَأَتِي عَلَى نَحْوِ أَتَذْكُرُهُ حَتَّى نَهَايَةِ عُمْرِي .

وَبَذَلْتُ قُصَارَى جَهْدِي لِإِقَافِ ذَلِكَ الْفَيْضِ مِنَ الصِّيَاحِ  
وَالدُّمُوعِ بِتَنَاوُلِ الْمَوْضُوعِ كُلِّهِ كَنَكْتَةٍ مُضْحِكَةٍ . لَمْ أَفَكِّرْ كَثِيرًا  
وَقَتْنِي ، أَنَّ فُرْصَةَ خِدْمَتِهِ لِي كَانَتْ فِي طَرِيقِهَا إِلَيَّ بِأَسْرَعِ مِمَّا  
كُنْتُ أَتَصَوَّرُ ، وَأَنَّهُ سَيَغَيِّرُ - آنَذَاكَ - كُلَّ مَجْرِيَاتِ حَيَاتِي .

وَعِنْدَمَا التَّقَانِي بِيَسْكَا عِنْدَ بَابِ بَيْتِ والدَتِي ، فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ ،  
كَانَ وَجْهُهُ يَنْطِقُ بِأَنَّ شَيْئًا غَيْرَ عَادِيٍّ قَدْ حَدَثَ . وَمَا إِنْ وَصَلْنَا إِلَى  
غُرْفَةِ الْمَعِيشَةِ حَتَّى قَالَتْ والدَتِي إِنَّهُ قَدْ جَاءَ بِخَبَرٍ رَائِعٍ ، وَلَكِنَّهُ رَفَضَ  
أَنْ يَذْكُرَهُ قَبْلَ وُصُولِي . وَبَيْنَمَا كَانَ يَسْكَا يَتَكَلَّمُ ، جَذَبَ مَقْعَدًا  
وَتَوَلَّى إِلَى نَهَايَةِ الْغُرْفَةِ ، وَقَفَزَ إِلَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَاسْتَمَرَّ يَتَحَدَّثُ إِلَيْنَا .

بَدَأَ بِصَوْتٍ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْأَنْفِعَالُ : « وَالْآنَ ، يَا أَعَزَّائِي ، أَنْصِتُوا  
إِلَيَّ . أَخِيرًا حَانَ الْوَقْتُ لِأَتَكَلَّمَ . »

قَالَتْ أُخْتِي : « سَيَحْطُمُ ظَهَرَ الْمَقْعَدِ . »

وَمَضَى يَقُولُ : « كَثِيرًا مَا قُلْتُ إِنَّ حَيَاتِي مِلْكٌ لِصَدِيقِي الْعَزِيزِ  
وَلْتَرِ ، وَإِنِّي لَنْ أَكُونَ سَعِيدًا حَتَّى أَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ أَجْلِهِ . » ثُمَّ صَاحَ  
بِأَعْلَى صَوْتِهِ : « يَا لِسَعَادَتِي ! لَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا الشَّيْءُ أَخِيرًا . »

وَأَعْلَنَّا لَهُ أَنَّنَا مُتَلَهِّفُونَ إِلَى سَمَاعِ مَا سَيَقُولُهُ ؛ فَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ كَانَ  
يُدْرُسُ الْإِيطَالِيَّةَ فِي أَحَدِ قُصُورِ لُنْدُنَ ، وَإِذَا بِوَالِدِ تَلْمِيذٍ لَهُ يَطْلُبُ



مِنْهُ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى مُدْرَسِ رَسْمٍ يَذْهَبُ إِلَى أَسْرَةٍ فِي الرِّيفِ ، فَقَالَ إِنَّهُ  
يَعْرِفُ الرَّجُلَ الْمُنْشُودَ ، فَأَعْطَانِي خِطَابًا يَتَضَمَّنُ مَهَامَ عَمَلِ مُدْرَسِ  
الرَّسْمِ الْمُرتَقِبِ . ثُمَّ نَاوَلَنِي الْخِطَابَ وَهُوَ يَلُوحُ بِيَدِهِ .

قَالَ الرَّجُلُ الضَّئِيلُ الْجِسْمِ بِلَهْجَةٍ آمِرَةٍ ، وَكَأَنَّهُ مَلِكٌ :  
« اِقْرَأْ » . وَقَرَأْتُ الْخِطَابَ ، وَكَانَ وَاضِحًا وَمَوْجَزًا .

قَالَ : « إِنَّ السَّيِّدَ فَرْدَرِيكَ فِيرْلِي مَالِكٌ لِيْمِيرِيدَجْ هَاوَسْ ،  
بِكَامْبِرْلَانْدْ ، كَانَ يُرِيدُ خِدْمَاتِ مُدْرَسِ رَسْمٍ لِمُدَّةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ؛  
لِتَعْلِيمِ الرَّسْمِ لِفَتَاتَيْنِ ، وَإِعَادَةِ تَرْتِيبِ مَجْمُوعَةٍ قِيَمَةٍ مِنَ اللُّوْحَاتِ  
بِالْبَيْتِ ، وَسَوْفَ يَكُونُ رَاتِبُهُ أَرْبَعَةَ جُنَيْهَاتِ أُسْبُوعِيًّا ، وَيَعِيشُ سَوَاءً  
بِسَوَاءٍ مَعَ أَسْرَةٍ بِلِيْمِيرِيدَجْ هَاوَسْ . وَلَكِنْ يُسَمَّحُ بِهِذِهِ الْوُظُفَةِ إِلَّا  
لِمَنْ كَانَتْ شَخْصِيَّتُهُ وَقُدْرَاتُهُ جَدِيرَةً بِهَا . »

كَانَ هَذَا الْعَرَضُ - بِكُلِّ تَأْكِيدٍ - مُغْرِيًّا ، وَقَدْ جَاءَ فِي وَقْتٍ  
لَمْ يَكُنْ لِي فِيهِ مَشَاغِلٌ فِي لَنْدَنْ . كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّي سَأَكُونُ  
مَحْظُوظًا لِلْغَايَةِ إِذْ أَحْصُلُ عَلَى هَذِهِ الْوُظُفَةِ . وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ  
أَشْعُرُ أَنَّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا لِسَبَبٍ غَامِضٍ ، وَلَكِنْ تَشْجِيعِ  
بِيْسْكَا وَالدَّيْتِي وَأَخْتِي لِي تَغْلِبَ أَحْيَرًا عَلَى شُكُوكِي ، وَجَعَلَنِي  
أَوَافِقُ عَلَى إِرْسَالِ طَلْبِي ، وَإِنْ ظَلَّتِ الشُّكُوكُ تُسَاوِرُنِي .

وَوَفَاءً بِوَعْدِي ، أُرْسَلْتُ طَلْبِي فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ التَّالِي . وَمَضَتْ  
ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ تَلَقَّيْتُ خِطَابًا يُخْطِرُنِي أَنَّ السَّيِّدَ فِيرْلِي  
قَدْ وَافَقَ عَلَى طَلْبِي ، وَيَطْلُبُ إِلَيَّ أَنْ أَسَافِرَ فُورًا إِلَى كَامْبِرْلَانْدْ .  
وَفِي مَسَاءِ الْيَوْمِ نَفْسِهِ جَاءَ بِيْسْكَا لِرُؤُوتِي ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْصَرَفَ ذَهَبْتُ  
إِلَى بَيْتِ أُمِّي لِوَدَاعِهَا .

وَأَفَاضَتْ أُمِّي وَأَخْتِي فِي حَدِيثِهِمَا وَكَلِمَاتِ الْوَدَاعِ لِي حَتَّى  
مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، حَيْثُ تَرَكَتُهُمَا . وَكَانَ الْقَمَرُ بَدْرًا ، فَقَرَّرْتُ أَنْ  
أُسْلِكَ أَوْعَرَ الطَّرِيقِ وَأَقْفَرَهَا أَثْنَاءَ عَوْدَتِي إِلَى بَيْتِي ؛ حَتَّى أَقْضِيَ أَطْوَلَ  
وَقْتٍ مُمَكِّنٍ فِي الْهَوَاءِ الطَّلَقِ . وَكُنْتُ أُسِيرُ ، وَأَنَا أَفَكِّرُ فِي  
الْمُسْتَقْبَلِ ، وَأَتَخَيَّلُ - قَدَرُ إِمْكَانِي - حَيَاتِي الْقَادِمَةَ فِي لِيْمِيرِيدَجْ  
هَاوَسْ ، عِنْدَمَا أَجْفَلْتُ فَجَاءَةً إِثْرَ لَمْسَةٍ مِنْ يَدٍ وَضِعَتْ عَلَى كَتِفِي  
مِنْ الْخَلْفِ . وَاسْتَدْرْتُ فِي الْحَالِ ، وَقَدْ أَطْبَقْتُ أَصَابِعِي عَلَى  
مِقْبَضِ عَصَايَ .

وَهُنَاكَ ، فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ ، كَانَتْ تَقِفُ فَتَاةٌ تَرْتَدِي ، مِنْ قِمَّةِ  
الرَّأْسِ إِلَى أَخْمَصِ الْقَدَمَيْنِ ، مَلَابِسَ بَيْضَاءَ . كُنْتُ فِي غَايَةِ  
الدَّهْشَةِ إِذْ أَرَاهَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْمَوْحِشِ ، حَتَّى إِنَّنِي فِي بَادِيِ  
الْأَمْرِ لَمْ أَقُلْ شَيْئًا . وَكَانَتْ الْفَتَاةُ الْغَرِيبَةُ هِيَ الَّتِي بَادَرْتَنِي  
بِالْحَدِيثِ .



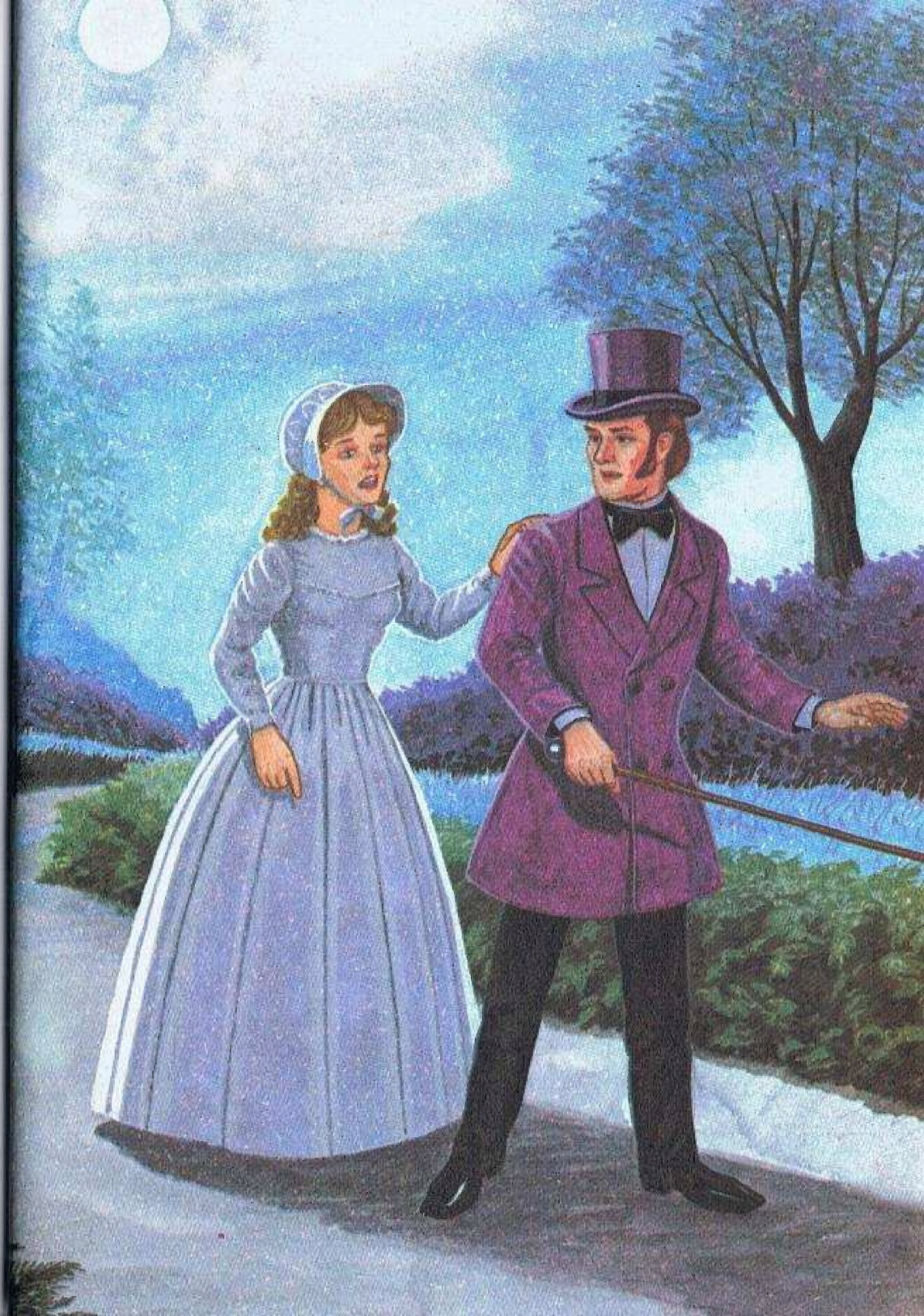
سَأَلَتْ : « أَ هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى لُنْدَنْ ؟ »

وَنَظَرَتْ إِلَيْهَا بِإِمْعَانٍ ، وَكَانَتْ السَّاعَةُ الْوَاحِدَةَ تَقْرِيْبًا . وَكَانَ كُلُّ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَاهُ ، وَجْهَ فَتَاةٍ شَابَةِ ذَاتِ وَجْنَتَيْنِ تَنْبِثَانِ عَنْ سَقَمٍ وَهْزَالٍ ، وَعَيْنَيْنِ تَنْطِقَانِ بِحُزْنٍ دَفِينٍ ، وَشَفَتَيْنِ تَنْمَانِ عَنْ عَصَبِيَّةٍ وَأَنْفِعَالٍ ، وَشَعْرًا ذَهَبِيًّا أَنْطَفَأَ بَرِيقُهُ . وَلَمْ تَكُنْ مَلَابِسُهَا بِالْفَاخِرَةِ أَوْ الرَّخِيصَةِ . وَعَجَزْتُ تَمَامًا عَنْ التَّكَهُنِ بِمَرْتَبَتِهَا بَيْنَ النِّسَاءِ ، وَكَيْفَ أَنَّهَا كَانَتْ بِالْخَارِجِ وَاحِدَةً فِي هَذَا الطَّرِيقِ الْعَامِّ ، وَفِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ .

قَالَتْ فِي هُدُوٍّ وَسُرْعَةٍ : « أَسَمِعْتَنِي ؟ سَأَلْتُكَ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى لُنْدَنْ . »

أَجَبْتُهَا : « نَعَمْ ، إِنَّهُ هُوَ . أَرْجُو الْمَعْذِرَةَ لِتَأْخُرِي فِي الْإِجَابَةِ ؛ لَقَدْ تَمَلَّكْتَنِي الدَّهْشَةُ لِظُهُورِكَ فِي الطَّرِيقِ . كَيْفَ اسْتَطِيعُ أَنْ أَسَاعِدَكَ ؟ »

قَالَتْ : « لَمْ أَذْهَبْ إِلَى لُنْدَنْ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا أَعْرِفُ سِوَى الْقَلِيلِ عَنْهَا . أَيْمُكُنِّي الْحُصُولُ عَلَى مَرْكَبَةٍ ؟ إِنْ كُنْتُ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدُلَّنِي عَلَى مَكَانِ الْحُصُولِ عَلَيْهَا . لِي صَدِيقَةٌ فِي لُنْدَنْ يَسُرُّهَا أَنْ تَسْتَقْبِلَنِي ... هَذَا كُلُّ مَا أُرِيدُهُ . هَلَا سَاعَدْتَنِي ؟ »





كَانَتْ كَلِمَاتُهَا تَتَلَا حَقَّ بِسْرَعَةٍ ، وَكَانَ صَوْتُهَا غَرِيْبًا .

وَأَفْقَتُ عَلَى أَنْ أَبْذُلَ قُصَارَى جَهْدِي . وَتَوَجَّهْتُ شَطْرَ لَنْدُنْ ،  
وَنَحْنُ نَمْشِي مَعًا فِي السَّاعَاتِ الْأُولَى الْهَادِئَةِ مِنَ الْيَوْمِ الْجَدِيدِ ،  
أَنَا وَهَذِهِ الْفَتَاةُ الَّتِي كُنْتُ أَجْهَلُ هُوِيَّتِهَا وَقِصَّتِهَا . كَانَ ذَلِكَ أَشْبَهَ  
بِحُلْمٍ .

وَفَجَاةً تَكَلَّمْتُ .

قَالَتْ : « أَرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ ... أَتَعْرِفُ أَنَا سَاءَ كَثِيرِينَ فِي لَنْدُنْ ؟ »

« أَجَلْ ، أَعْرِفُ كَثِيرِينَ جِدًّا . »

« رَجَالًا مِنْ ذَوِي الْأَلْقَابِ ؟ »

قُلْتُ بَعْدَ فِتْرَةٍ صَمْتُ : « بَعْضَهُمْ . »

« رَجَالًا كَثِيرِينَ مِنَ الْبَارُونَاتِ ؟ »

قُلْتُ مُسْتَغْرِبًا : « لِمَ تَسْأَلِينَ ؟ »

« لِأَنِّي آمُلُ ، مِنْ أَجْلِكَ أَنْتَ ، أَنْ يَكُونَ ثَمَّ وَاحِدٌ مِنَ الْبَارُونَاتِ

لَا تَعْرِفُهُ . »

« هَلَا أَخْبَرْتَنِي بِاسْمِهِ ؟ »

قَالَتْ بِصَوْتٍ عَالٍ وَبَوَحْشِيَّةٍ : « لَا أَسْتَطِيعُ . لَا أَجْرؤُ عَلَى

ذَلِكَ . وَلَكِنْ قُلْ لِي أَيُّهُمْ تَعْرِفُ ؟ »

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَرْفُضَ مِثْلَ هَذَا الرَّجَاءِ الْبَسِيطِ فَذَكَرْتُ لَهَا ثَلَاثَةَ  
أَسْمَاءٍ .

قَالَتْ وَهِيَ تَتَنَهَّدُ مُمْتَنَّةً : « آه أَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ . هَلْ أَنْتَ الْآخِرُ مِنْ  
ذَوِي الْأَلْقَابِ ؟ »

« لَا ، أَنَا لَسْتُ إِلَّا مُدْرَسَ رَسْمٍ . »

كَرَّرْتُ قَوْلَهَا : « لَسْتُ مِنْ ذَوِي الْأَلْقَابِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ ! إِذَا  
أَسْتَطِيعُ أَنْ أَثِقَ بِكَ . »

وَوَاصَلْنَا الْمَسِيرَ وَأَنَا أَقْلَبُ كَلِمَاتِهَا فِي ذَهْنِي . لَا بُدَّ أَنْ أَحَدَ  
الْبَارُونَاتِ قَدْ أَلْحَقَ بِهَا ظُلْمًا فَادِحًا ، وَلَكِنَّهَا مَا كَانَتْ لِتُشْرَحَ  
الْمَزِيدَ . وَكُنَّا قَدْ وَصَلْنَا إِلَى أَوَّلِ الْمَنَازِلِ قَبْلَ أَنْ تَتَحَدَّثَ ثَانِيَةً .

سَأَلْتُ : « أَتُقِيمُ فِي لَنْدُنْ ؟ »

« نَعَمْ . وَلَكِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الرَّيفِ عَدَاً ؛ إِلَى كَمْبِرْلَانْدِ . »

رَدَدْتُ الْكَلِمَةَ فِي رِقَّةٍ وَحَنَوٍ : « كَمْبِرْلَانْدِ ! آه ! يُوَدِّي لَوْ أَنَّي  
كُنْتُ ذَاهِبَةً إِلَى هُنَاكَ أَيْضًا . كُنْتُ - ذَاتَ مَرَّةٍ - سَعِيدَةً فِي  
كَمْبِرْلَانْدِ . »



سألتها : « رُبَّما وُلِدْتُ فِي مَنْطِقَةِ الْبَحِيرَاتِ الْجَمِيلَةِ ؟ »

أَجَابَتْ : « لَا ، لَقَدْ وُلِدْتُ فِي هَامْبُشِير ، وَلَكِنِّي ذَهَبْتُ لِمُدَّةٍ قَصِيرَةٍ لِمَدْرَسَةٍ فِي كمبرلاند ، فِي قَرْيَةٍ لِيَمِيرِيدَج . »

وَاعْتَرَّتْنِي الدَّهْشَةُ ، وَتَوَقَّفْتُ فَجْأَةً ، حَتَّى إِنَّهَا سَأَلَتْ بِقَلْقٍ إِنْ كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ أَحَدًا يُنَادِينَا .

« لَا ، لَا ، لَقَدْ دَهَشْتُ فَقَطُ لِسَمَاعِي اسْمَ لِيَمِيرِيدَج . سَمِعْتُهُ مِنْ بَعْضِ أَهَالِي كمبرلاند مُنْذُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ . »

« آهِ ! لَيْسَ مِمَّنْ أَعْرِفُهُمْ . لَقَدْ مَاتَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْلِي ، وَكَانَتْ عَطُوفًا عَلَيَّ ، فِي أَيَّامٍ مَضَتْ . »

وَبَعْدَ أَنْ مَضَيْنَا فِي سَيْرِنَا قَلِيلًا ، رَأَيْتُ عَرَبَةً تَقِفُ عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنَّا فَنَادَيْتُ السَّائِقَ . وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَرْكِبُهَا ، عَرَضْتُ عَلَيْهَا أَنْ أَذْهَبَ مَعَهَا ؛ كَيْ أَطْمَئِنُّ عَلَى سَلَامَتِهَا حَتَّى نِهَايَةِ رَحَلَتِهَا ، وَلَكِنَّهَا رَفَضَتْ قَائِلَةً إِنَّهَا ، الْآنَ ، آمِنَةٌ وَسَعِيدَةٌ وَأَضَافَتْ : « دَعَهُ يَنْطَلِقُ حَتَّى أَصِلَ . شُكْرًا لَكَ . آهِ ! شُكْرًا ! شُكْرًا ! »

وَكَانَتْ يَدِي عَلَى الْبَابِ ، وَأَنْطَلَقَتِ الْعَرَبَةُ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ ، وَسَرَّعَانَ مَا تَلَاشَى صَوْتُ الْعَجَلَاتِ بِابْتِعَادِهَا .

وَمَرْتُ عَشْرَ دَقَائِقَ أَوْ مَا يَزِيدُ وَأَنَا لَا أَرَالُ عَلَى نَفْسِ الْجَانِبِ مِنْ

الطَّرِيقِ . كُنْتُ أَوَاصِلُ السَّيْرِ ، أحيانًا عَلَى نَحْوِ آلِي ، وَأَتَوَقَّفُ أحيانًا أُخْرَى ، وَأَنَا أَفَكِّرُ فِي مُغَامِرَتِي ، مُتَحِيرًا مُضْطَرِبَ الْفِكْرِ ؛ فَقَدْ اسْتَحَوَذَ عَلَيَّ شُعُورٌ بِأَنِّي قَدْ أَخْطَأْتُ وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ مَعْرِفَةَ مَاذَا كَانَ يَنْبَغِي عَلَيَّ عَمَلُهُ . وَعَلَى حِينِ غَرَّةٍ ، عَادَتْ أَفْكَارِي الشَّارِدَةُ إِلَى عَالَمِ الْحَقِيقَةِ عَلَى صَوْتِ عَجَلَاتٍ خَلْفِي . وَمَرْتُ بِي مَرْكَبَةٌ مَكْشُوفَةٌ بِهَا رَجُلَانِ . وَعِنْدَمَا تَلَفْتُ حَوْلِي رَأَيْتُ شُرْطِيًّا يَتَهَادَى فِي مِشْيَتِهِ عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الطَّرِيقِ .

صَاحَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ : « تَوَقَّفْ ! هُنَاكَ شُرْطِي ! فَلَئْسَالَهُ . »

وَتَوَقَّفْتُ الْمَرْكَبَةُ وَصَاحَ الرَّجُلُ : « أَيُّهَا الشُّرْطِيُّ ! أَرَأَيْتَ فِتْنَةً تَمُرُّ بِهَذَا الطَّرِيقِ ؟ »

« مَا أَوْصَافُهَا ، يَا سَيِّدِي ؟ »

« فِتْنَةٌ تَلْبَسُ رِداءً أَيْبَضَ . »

« لَمْ أَرَهَا ، يَا سَيِّدِي . »

« إِنْ قَابَلْتَهَا ؛ أَوْ رَأَاهَا أَحَدٌ مِنْ رِجَالِكَ ، فَاسْتَوْقِفْهَا وَأَرْسِلْهَا فِي حِرَاسَةٍ مُشَدَّدَةٍ عَلَى هَذَا الْعُنْوَانِ . وَسَادِّعْ لَكَ بِسَخَاءٍ . »

وَنَظَرَ الشُّرْطِيُّ إِلَى الْبِطَاقَةِ الَّتِي أُعْطِيَتْ لَهُ ثُمَّ سَأَلَ : « وَلِمَ



نَسْتَوْقِفُهَا ، يَا سَيِّدِي ؟ ماذا فَعَلْتُ ؟

« فَعَلْتُ ؟ لَقَدْ هَرَبْتُ مِنْ مُسْتَشْفَايَ - مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ . لَا تَنْسَ ، فَتَاةُ تَلْبَسَ رِدَاءَ أَيْبُضَ . » ثُمَّ قَالَ مُخَاطِبًا السَّائِقَ :  
« هَيَّا . »

## الفصل الثاني

« لَقَدْ هَرَبْتُ مِنْ مُسْتَشْفَايَ - مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ . »  
لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ إِنَّنِي دَهَشْتُ كُلَّ الدَّهْشَةِ ؛ فَقَدْ كَانَتْ  
بَعْضُ أَسْئَلَتِهَا غَرِيبَةً حَقًّا ، إِلَّا أَنْ فِكْرَةَ جُنُونِهَا لَمْ تَخْطِرْ لِي بِبَالٍ .  
سَأَلْتُ نَفْسِي : « مَاذَا فَعَلْتُ ؟ أَسَاعَدْتُ مَخْلُوقَةً تَعِيسَةً عَلَى الْفِرَارِ  
مِنْ أَسْوَأِ أَيَّامِ سَجْنٍ مُلْفَقٍ ؟ أَمْ تُرَى أَنَّي قَدْ أَطْلَقْتُ - وَفِي لَنْدَنَ -  
سَرَاخَ فَتَاةٍ مَجْنُونَةٍ مَسْكِينَةٍ كَانَتْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَمْنَعَهَا  
مِنَ الْهَرَبِ ؟ » وَتَمَلَّكَنِي شُعُورٌ بِالْحُزَنِ وَالْقَلَقِ . وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى  
مَسْكَنِي كَانَتْ مِنَ الْوَاضِحِ أَنْ لَا فَائِدَةَ مِنْ مُحَاوَلَةِ النَّوْمِ . جَلَسْتُ  
وَحَاوَلْتُ أَنْ أَرْسُمَ ، وَلَكِنْ أَفْكَارِي عَنْ تِلْكَ الْفَتَاةِ ذَاتِ الرِّدَاءِ  
الْأَيْبُضِ صَرَفَتْ عَقْلِي تَمَامًا عَنِ الْعَمَلِ . تُرَى أَأَصَابَهَا مَكْرُوهٌ ؟  
أَيْنَ أَوْقَفْتَ الْمُرَكَبَةَ ؟ ماذا حَدَّثَ لَهَا الْآنَ ؟ هَلْ أَمْسَكَ بِهَا الرِّجَالُ  
فِي الْمُرَكَبَةِ الثَّانِيَةِ ، أَمْ أَنَّهَا مَا زَالَتْ حُرَّةً طَلِيقَةً ؟



وَتَنَفَّسْتُ الصُّعْدَاءَ عِنْدَمَا حَانَتْ سَاعَةُ إِغْلَاقِ بَابِ شَقَّتِي وَالرَّحِيلِ  
مِنْ لُنْدَنْ إِلَى الشَّمَالِ .

وَتَعَطَّلَ الْقِطَارُ بِسَبَبِ حَادِثٍ بَسِيطٍ ، فَلَمْ أَصِلْ إِلَى لِيْمِيرِيدِجْ  
هَآوِسٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَوْتِ الْأُسْرَةُ إِلَى الْفِرَاشِ . وَقَادَنِي خَادِمٌ إِلَى عُرْفَةٍ  
رَحِيبَةٍ حَيْثُ كَانَ عَشَائِي بِإِنْتِظَارِي ، ثُمَّ قَادَنِي بَعْدَ رُبْعِ سَاعَةٍ إِلَى  
عُرْفَةٍ نَوْمِي .

قَالَ وَهُوَ يَنْصَرِفُ بَعْدَ أَنْ أَلْقَى حَوْلَهُ نَظْرَةً أَخِيرَةً لِيَتَأَكَّدَ أَنْ كُلَّ  
شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ : « الْإِفْطَارُ فِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ . »

إِنْتَابَنِي شُعُورٌ غَرِيبٌ وَأَنَا أَنَامُ فِي هَذَا الْبَيْتِ كَصَدِيقٍ لِلْأُسْرَةِ ، وَإِنْ  
كُنْتُ لَا أَعْرِفُ بَعْدَ أَحَدًا مِنْهُمْ .

وَعِنْدَمَا اسْتَيْقَظْتُ فِي الصَّبَاحِ رُحْتُ أَتَطَّلَعُ مِنْ خِلَالِ النَّافِذَةِ :  
كَانَ الْبَحْرُ مُنْبَسِطًا تَحْتَ شَمْسٍ أَعْطَسَ السَّاطِعَةِ ، وَكَانَ الْمَنْظَرُ  
فَرِيدًا فِي جَمَالِهِ وَرَوْعَتِهِ بِالمُقَارَنَةِ بِمَسَاكِينِ لُنْدَنْ الْمُتَلَاصِقَةِ ، حَتَّى  
بَدَأَ لِي كُلُّمَا وَقَعْتُ عَيْنَايَ عَلَيْهِ أَنَّنِي أَتَفَجَّرُ بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ .

وَقَبِيلَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ هَبَطْتُ إِلَى الطَّابَقِ الْأَرْضِيِّ . وَأَرْشَدَنِي  
خَادِمُ اللَّيْلَةِ الْبَارِحَةِ إِلَى عُرْفَةِ الطَّعَامِ .

وَفَتَحَ الْبَابَ ، فَرَأَيْتُ مَائِدَةً كَبِيرَةً فِي وَسْطِ عُرْفَةٍ مُسْتَطِيلَةٍ ذَاتِ

نَوَافِذَ عَدِيدَةٍ . وَهُنَاكَ عِنْدَ آخِرِ نَافِذَةٍ كَانَتْ تَقِفُ سَيِّدَةٌ وَقَدْ أَوَّلَتْ  
ظَهْرَهَا نَحْوِي ، وَاسْتَوَقَفَنِي جَمَالُ وَفَقَّتِهَا . كَانَتْ مَمْشُوقَةً الْقَدَّ وَإِنْ  
لَمْ تَكُنْ فَارَعَةً الْقَوَامِ . لَمْ تَكُنْ قَدْ قَطِنَتْ إِلَى دُخُولِي ، فَجَذَبْتُ  
إِنْتِبَاهَهَا بِتَحْرِيكِ أَحَدِ الْمَقَاعِدِ مِنْ مَوْضِعِهِ ، فَاسْتَدَارَتْ وَاتَّجَهَتْ  
صَوْنِي ؛ فَلَا حَظَّ أَنَّهَا فَتَاةٌ سَمْرَاءُ . وَتَقَدَّمَتْ نَحْوِي بِضَعِّ  
خُطَوَاتٍ ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي : « إِنَّهَا شَابَةٌ فِي رِبْعَانِ الشَّبَابِ . » وَلَكِنَّهَا  
حِينَ دَنْتُ مِنِّي أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، أَلْفَيْتُهَا فَتَاةً دَمِيمَةً .

سَأَلْتُ وَقَدْ أَشْرَقَ وَجْهُهَا بِابْتِسَامَةٍ : « السَّيِّدُ هَارْتِرَايتْ ؟ لَقَدْ  
فَقَدْنَا الْأَمَلَ فِي وُصُولِكَ بِالْأَمْسِ فَأَوَيْنَا إِلَى مَضَاجِعِنَا . هَلَا قَبِلْتَ  
اعْتِذَارِي ؟ اِسْمَحْ لِي أَنْ أَقْدِمَ نَفْسِي إِلَيْكَ كَأَحَدِي تَلْمِيزَاتِكَ .  
دَعْنَا نَتَصَافَحُ . »

فَاهَتُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ بِصَوْتٍ طَرُوبٍ وَاضِحٍ النَّبْرَاتِ . وَجَلَسْنَا  
إِلَى مَائِدَةِ الْإِفْطَارِ وَكَانْنَا صَدِيقَانِ حَمِيمَانِ التَّقْيَا لِيَتَحَدَّثَا عَنْ الْأَيَّامِ  
الْخَوَالِي .

قَالَتْ : « أَخْنِي فِي عُرْفَتِهَا تُعَانِي صُدَاعًا خَفِيفًا ، وَالسَّيِّدَةُ  
فِيْزِي ، الْمَرْبِيَّةُ الْعَجُوزُ تَقُومُ عَلَى رِعَايَتِهَا . وَعَمِّي السَّيِّدُ فِيرْلِي لَا  
يُشَارِكُنَا فِي أَيِّ مِنْ وَجِبَاتِنَا ؛ إِنَّهُ رَجُلٌ مَرِيضٌ . لِذَا سَأَكُونُ الْيَوْمَ ،  
رَفِيقَتُكَ الْوَحِيدَةُ عَلَى الْإِفْطَارِ . »



وَقَدِّمْتُ لِي الشَّيْءَ ، وَأَنْطَلَقْتُ تَتَحَدَّثُ وَتَضْحَكُ فِي بَهْجَةٍ  
وَمَرَحٍ . قَالَتْ : « يَحْسُنُ أَنْ أَقُولَ لَكَ شَيْئًا عَنْ أَسْرَتِنَا : اسْمِي مَارِيَان  
هَالِكُوم . وَالِدَتِي تَزَوَّجَتْ مَرَّتَيْنِ : فِي الْأُولَى بِأَبِي - السَّيِّدِ هَالِكُوم ،  
فَلَمَّا تُوُفِّيَ تَزَوَّجَتْ السَّيِّدَ فِيرْلِي وَالِدَ أَخْتِي غَيْرِ الشَّقِيقَةِ ، وَتُوُفِّيَ  
أَبُوهَا هِيَ الْأُخْرَى .

« أَنَا وَهِيَ مُخْتَلِفَتَانِ تَمَامًا . كَانَ أَبِي فَقِيرًا ، أَمَّا أَبُوهَا فَكَانَ  
غَنِيًّا ، وَأَنَا سَمْرَاءُ وَدَمِيمَةٌ ، أَمَّا هِيَ فَشَقْرَاءُ وَجَمِيلَةٌ . مَاذَا أَقُولُ لَكَ  
عَنْ عَمِّهَا السَّيِّدِ فِيرْلِي ؟ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ سَيَبْعُثُ فِي طَلَبِكَ بَعْدَ  
الْإِفْطَارِ ، وَحِينَئِذٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْرُسَهُ بِنَفْسِكَ ، وَلَكِنِّي قَدْ أَنْبَيْتُكَ الْآنَ .  
أَوَّلًا : إِنَّهُ الْأَخُ الْأَصْغَرُ لِأَبِيهَا ، ثَانِيًا : إِنَّهُ رَجُلٌ عَازِبٌ ، وَثَالِثًا : إِنَّهُ  
الْوَصِيُّ عَلَى الْأَنْسَةِ فِيرْلِي . أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعِيشَ بِدُونِهَا ، وَهِيَ  
لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعِيشَ بِدُونِي . هَذَا هُوَ سَبَبُ وُجُودِي هُنَا . أَنَا وَأَخْتِي  
شَغِيفَتَانِ إِحْدَانَا بِالْأُخْرَى ، وَعَلَيْكَ أَلَّا تَنْحَازَ لِأَيِّ مَنَا . سَنَكُونُ فِي  
صُحْبَتِكَ ؛ لِأَنَّ السَّيِّدَةَ فِيزِي عَلَى الرَّغْمِ مِنْ امْتِيَازِ فَضَائِلِهَا ، فَلَا  
وُجُودَ لَهَا . وَالسَّيِّدُ فِيرْلِي فِي حَالَةٍ مَرْضِيَّةٍ يَتَعَدَّرُ مَعَهَا أَنْ يَكُونَ  
رَفِيقًا لِأَيِّ إِنْسَانٍ . وَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَا دَهَاهُ . الْكُلُّ يَقُولُ إِنَّهَا  
الْأَعْصَابُ وَإِنْ كُنَّا لَا نَدْرِي مَا نَعْنِيهِ بِذَلِكَ . وَلَكِنْ إِنْ أَظْهَرْتَ  
إِعْجَابَكَ بِلَوْحَاتِهِ وَرُسُومِهِ فَإِنَّكَ سَتَحْظِي بِرِضَاهُ . »

وَيَيْنَمَا كُنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْ لِيْمِيرِيدَجِ هَاوُسَ تَحَوَّلَتْ أَفْكَارِي إِلَى  
لِقَائِي بِالْفَتَاةِ ذَاتِ الرِّدَاءِ الْأَبْيَضِ . فَلَمَّا سَنَحَتِ الْفُرْصَةَ حَدَّثْتُهَا  
عَنْ مُغَامَرَتِي فِي الطَّرِيقِ بِالْقُرْبِ مِنْ لَنْدَنَ ، وَتَلَاَقَتْ عَيْنَاهَا الْبَرَاقَتَانِ  
بِعَيْنِي مِنْ بَدَايَةِ الْحِكَايَةِ إِلَى نِهَائِهَا ، وَنَمَّ وَجْهُهَا عَنْ اهْتِمَامٍ  
وَدَهْشَةٍ .

قُلْتُ : « مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ تِلْكَ الْفَتَاةَ كَانَتْ بِمَدْرَسَةِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ،  
وَكَانَتْ تُعَامَلُ بِعَطْفٍ وَحَنَانٍ مِنْ قِبَلِ السَّيِّدَةِ فِيرْلِي .  
« هَلْ عَجَزْتَ تَمَامًا عَنْ اكْتِشَافِ اسْمِهَا ؟ »  
« تَمَامًا . »

« عَلَيْنَا أَنْ نَحُلَّ هَذَا اللَّغْزَ بِطَرِيقَةٍ مَا . مِنَ الْأَفْضَلِ أَلَّا نَتَكَلَّمَ  
عَنْهُ الْآنَ لِلْسَّيِّدِ فِيرْلِي أَوْ لِأَخْتِي ؛ لِأَنَّهُمَا عَصِييَا الْمِزَاجِ ، شَدِيدَا  
الْحَسَاسِيَةِ . لَكِنِّي أَنْوِي أَنْ أَحُلَّ هَذَا اللَّغْزَ فَحِينَ قَدِمْتُ أُمِّي إِلَى  
هَذَا الْمَكَانِ ، أُنْشِأتُ مَدْرَسَةَ الْقَرْيَةِ ، وَلَكِنْ كُلُّ قُدَامَى الْمُدْرَسِينَ إِذَا  
تَوَفَّوْا وَإِنَّمَا رَحَلُوا . »

وَهُنَا دَخَلَ خَادِمٌ وَمَعَهُ رِسَالَةٌ لِيُخْبِرُنَا أَنَّ السَّيِّدَ فِيرْلِي يُسْعِدُهُ أَنْ  
يَرَانِي عَقِبَ تَنَاوُلِ إِفْطَارِي .

قَالَتْ لَهُ الْأَنْسَةُ هَالِكُوم : « أَنْتَظِرْ فِي الْقَاعَةِ . سَيَجِيءُ السَّيِّدُ



هارترايت حالاً . « ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَيَّ وَ وَاصَلَتِ الْحَدِيثَ : « أَرِيدُ أَنْ  
أَقُولَ لَكَ إِنَّ لَدَيَّ مَجْمُوعَةً كَبِيرَةً مِنْ رَسَائِلِ أُمِّي الْقَدِيمَةِ ، سَأَقُومُ  
بِتَصْفُوحِهَا . كَانَتْ تَكْتُبُ إِلَى زَوْجِهَا أَثْنَاءَ أَسْفَارِهِ لِتُنَبِّئَهُ عَنْ أَخْبَارِ  
الْقَرْيَةِ .

### الفصل الثالث

« الْغَدَاءُ السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ ، يَا سَيِّدَ هَارْترايت ، وَحَتَّى يَحِينَ ذَلِكَ  
الْوَقْتُ ، سَيُسْعِدُنِي أَنْ أَقْدِمَ أُخْتِي إِلَيْكَ . إِلَى اللَّقَاءِ . »

وَأَوَّمَاتُ لِي فِي رَقَّةٍ وَعُدُوبَةٍ ، وَاسْتَدَرْتُ فِي إِثْرِ الْخَادِمِ  
كَئِنْ أَذْهَبَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى لِلِلِقَاءِ السَّيِّدِ فِيرْلِي .

اجْتَرْنَا بَعْضَ الْمَمَرَاتِ ، ثُمَّ دَلَفْنَا مِنْ بَابَيْنِ ، وَخَلَفَ الْبَابِ الثَّانِي  
كَانَتْ تَسْدِلُ سِتَارَتَانِ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَخْضَرِ الْفَاتِحِ . وَأَزَاحَ الْخَادِمُ  
إِحْدَاهَا فِي هُدُوءٍ ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ : « السَّيِّدُ هَارْترايت . »  
وَوَثَرَ كَنِي .

وَجَدْتُ نَفْسِي فِي عُرْفَةٍ رَحِيبةً ، تَكْسُوها سَجَادَةٌ كَثِيفَةٌ لِلْغَايَةِ ،  
وَقَدْ امْتَدَّتْ عَلَى طُولِ أَحَدِ جُذُرَانِهَا خِزَانَةٌ كُتِبَ تَعْلُوهَا الزُّخَارِفُ ،  
وَانْبَثَتْ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الْعُرْفَةِ مَنَاضِدُ تَحْمِلُ حِلِيَّاتٍ وَتَمَائِيلَ  
صَغِيرَةً . كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مُضَاءً بِنُورِ خَافِتٍ يُطْلُ مِنْ النُّوَافِدِ الْمَكْسُورَةِ  
بِالسَّائِرِ . وَكَانَ رَبُّ الْبَيْتِ يَجْلِسُ فِي مَقْعَدٍ وَثِيرٍ كَبِيرٍ . كَانَ رَجُلًا  
بَيْنَ الْخَمْسِينَ وَالسِّتِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، شَاحِبَ الْوَجْهِ ، وَاسِعَ الْعَيْنَيْنِ ،  
أَشْيَبَ الشَّعْرِ . وَكَانَ يَزِينُ يَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ خَاتِمَانِ نَفِيسَانِ . كَانَ  
مَظْهَرُهُ يُوحِي بِنُعُومَةٍ لَا تَلِيقُ بِرَجُلٍ ، فَشَعَرْتُ لِتَوَيِّ بِكَرَاهِيَةِ نَحْوِهِ .



قال بصوت عالٍ متكاسلٍ : « أنا سعيدٌ جدًا بِقُدومِكَ إلى  
ليميريدج ، يا سيّد هارترايث . تفضّل بِالجلوسِ ولكن لا تُحرّكِ  
المقعدَ ؛ فأني حركّةٌ تُؤلّمني كثيرًا نظرًا لِحالَةِ أعصابي . أ يطيبُ  
لَكَ المَقامُ في جناحِكَ ؟ »  
« جدًا . »

ولكنّه قاطعني قائلاً : « معذرةٌ . هلَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْفِضَ مِنْ  
صَوْتِكَ ؟ الصَوْتُ العالِي ضارٌّ جدًا لِأعصابي . »  
قُلْتُ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ : « أنا مُرتاحٌ لِلغَايَةِ . »  
« عَظِيمٌ ، عَظِيمٌ ! وَالآنَ ، هلَ يَكْفِيكَ مَرْتَبُكَ ؟ »  
« كُلُّ الكِفَايَةِ ، يا سيّد فيرلي . »

« عَظِيمٌ . و ... ماذا بَعْدُ ؟ أَمَرٌ غَرِيبٌ . أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ كانَ  
لَدَيَّ الكَثِيرُ لِأَقولُهُ ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّي نَسِيتُ تَمَامًا . هلَ تَسْمَحُ  
بِلَمْسِ الجَرَسِ ؟ فِي الرُّكْنِ . نَعَمْ ، شُكْرًا . »

وَضَغَطْتُ بِرَفْقٍ عَلَى زُرِّ الجَرَسِ وَهُوَ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ بِطَرِيقَةِ الْمُتَعَبِ  
المَكْدُودِ . وَجَاءَ خَادِمٌ آخَرٌ ، فَطَلَبَ مِنْهُ السَيِّدُ فيرلي أَنْ يُناولَهُ  
مُفَكَّرَةً أَخَذَ يَقْلِبُ صَفْحَاتِهَا ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُنْزِلَ بَعْضَ اللُّوْحَاتِ  
الَّتِي عَلَى الرَّفِّ ، وَأَرْدَفَ يَقُولُ :

« إِيَّاكَ أَنْ تَوَقَّعَهَا ! فَأَنْتَ لَنْ تَتَصَوَّرَ مَدَى الأَلَمِ الَّذِي سَأَعَانِيهِ إِنْ  
أَوْقَعْتَهَا . أَ هِيَ فِي أَمَانٍ وَهِيَ عَلَى المَقْعَدِ ؟ أ تَعْتَقِدُ أَنَّهَا فِي أَمَانٍ ،  
يا سيّد هارترايث ؟ نَعَمْ .. عَظِيمٌ جدًا . انصَرِفْ ، يا لويس . أ تَتَكَرَّمُ  
بِالنَّظَرِ إِلَى هَذِهِ اللُّوْحَاتِ ، يا سيّد هارترايث ؟ مَا رَأَيْكَ فِيهَا ؟  
حَصَلْنَا عَلَيْهَا فِي مَزَادٍ وَهِيَ فِي حَالَةٍ يُرَى لَهَا ، وَتَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةٌ  
كَرِيهَةٌ . أ يُمَكِّنُكَ أَنْ تُصَلِّحَ مِنْ حَالِهَا ؟ »

حقًا ، كَانَتْ مِثَالًا رَائِعًا لِلْفَنِّ الإنْجِلِيزِيِّ ، فَقُلْتُ إِنَّهَا قِيَمَةٌ  
لِلغَايَةِ ، وَتَسْتَحِقُّ كُلَّ عِنَايَةٍ .

كَانَ السَيِّدُ فيرلي يُنْصِتُ إِلَيَّ وَعَيْنَاهُ مُغْمَضَتَانِ ، وَلَكِنَّهُ فَتَحَهُمَا  
فُجَاءَةً قَائِلًا : « أَرْجُوكَ أَنْ تُعَذِّرَنِي ، يا سيّد هارترايث . وَلَكِنِّي أَسْمَعُ  
صَوْتَ أَطْفَالٍ مُزْعَجِينَ فِي حَدِيقَتِي . »

قُلْتُ : « أَنَا لَا أَسْمَعُ شَيْئًا . »

« هَلَّا تَكْرَمْتَ بِأَنْ تُطِلَّ مِنَ النَّافِذَةِ ، وَلَكِنْ لَا تَدَعِ الشَّمْسُ  
تَدْخُلُ وَتَتَسَلَّطُ عَلَيَّ ، يا سيّد هارترايث . »

وَفَعَلْتُ مَا طَلَبَهُ ، وَلَكِنَّ الحَدِيقَةَ كَانَتْ خَالِيَةً .

« أَلْفُ شُكْرٍ . إِنَّهُ خَيَالِي الَّذِي صَوَّرَ لِي ذَلِكَ ، كَمَا أَظُنُّ .  
كَمْ أَكْرَهُ الأَطْفَالَ ! أ هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ نُنَاقِشُهُ ؟ »



كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُتْلَهِّفًا مِثْلَهُ عَلَى إِنْهَاءِ حَدِيثِنَا ، فَوَجَّهْتُ  
إِلَيْهِ سُؤَالَ وَاحِدًا كَانَ عَالِقًا بِذَهْنِي .

« النُّقْطَةُ الْوَحِيدَةُ وَالْأَخِيرَةُ ، يَا سَيِّدُ فِيرْلِي ، تَتَعَلَّقُ بِعَمَلِي مَعَ  
الْآنِسَتَيْنِ . »

قَالَ : « آه بِالضَّبْطِ ! لَيْتَنِي كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّي مِنَ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ  
أَسْتَطِيعُ مُنَاقَشَةَ الْأَمْرِ . وَلَكِنِّي لَا أَشْعُرُ بِذَلِكَ الْآنَ . الْآنِسَتَانِ ،  
يَا سَيِّدُ هَارْترايت ، يَجِبُ أَنْ يُقَرَّرَا لِنَفْسَيْهِمَا . أ هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ ؟  
لَا ؟ إِذَا فَحَنُ مُتَفَاهِمَانِ تَمَامًا . أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ لَا يَنْبَغِي أَنْ  
أُبْقِيكَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . أ تَفْضَلُ بِإِعْلَاقِ الْأَبْوَابِ بِلُطْفٍ ، وَبِأَلَّا  
تَوْقَعَ اللَّوْحَاتِ ؟ شُكْرًا لَكَ . رَفَقًا بِالسَّائِرِ . إِنَّ أَخْفَ ضَوْضَاءٍ  
تَوَثَّرَ فِي وَكَانَهَا سَكِينٌ تَشْطُرُّنِي . نَعِمْتَ صَبَاحًا . »

وَتَنَفَّسْتُ الصُّعْدَاءَ حِينَ خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ . وَذَهَبْتُ إِلَى عُرْفَةِ  
الْجُلُوسِ الْمُخَصَّصَةِ لِي . وَقَرَّرْتُ - فِي التَّوَّ وَاللَّحْظَةِ - أَلَّا أَذْهَبَ  
مَرَّةً أُخْرَى لِرُؤْيَا السَّيِّدِ فِيرْلِي مَا لَمْ أَدْعَ إِلَيْهِ . وَبِفَضْلِ هَذَا الْقَرَارِ ،  
بَدَأْتُ الْعَمَلَ عَلَى لَوْحَاتِهِ بِحَالَةِ نَفْسِيَّةٍ مُطْمَئِنَّةٍ .

وَفِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ نَزَلْتُ لِتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ . وَلَكِنْ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُ  
لِلْآنِسَةِ فِيرْلِي فَتَنَاوَلْنَا الطَّعَامَ بِدُونِهَا . وَبَعْدَ الْغَدَاءِ قَادَتْنِي الْآنِسَةُ

هَالِكُومَ إِلَى الْحَدِيقَةِ ، وَأَخْبَرْتَنِي أَنَّهَا لَمْ تَكْتَشِفْ بَعْدَ أَيِّ شَيْءٍ فِي  
خِطَابَاتِ أُمِّهَا .

وَمَضَتْ تَقُولُ : « وَلَكِنِّي لَمْ أَفْهَمْ كُلَّ الْخِطَابَاتِ ، فَمَا زَال  
لَدَيَّ ثَلَاثُ مَجْمُوعَاتٍ أُخْرَى . اِطْمَئِنَّ ؛ سَأُكْرِسُ الْمَسَاءَ لَهَا . »

كُنَّا نَسِيرُ ، وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ ، نَحْوِيَّتِ صَيْفِي مِنَ الْخَشَبِ وَإِذَا بِي  
أَرَى فِي عُرْفَتِهِ الْوَحِيدَةِ فِتَاةً فِي رِيعَانِ شَبَابِهَا . كَانَتْ تَقِفُ بِجَوَارِ  
مِنْضَدَةٍ وَهِيَ تَطُلُّ عَلَى الْمَنْظَرِ أَمَامِهَا ، وَتَقْلَبُ بِأَلَا اِهْتِمَامٍ صَفَحَاتِ  
كِرَاسَةٍ رَسَمٍ . كَيْفَ أَصِفُهَا ؟ كَيْفَ أَفَرِّقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَشَاعِرِي  
وَبَيْنَ كُلِّ مَا حَدَثَ فِيمَا بَعْدُ ؟ كَيْفَ أَرَاهَا ثَانِيَةً كَمَا تَبَدَّتْ عِنْدَمَا  
اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهَا عَيْنَايَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ؟

رَأَيْتُ فِتَاةً رَقِيقَةً فِي رِدَاءٍ بَسِيطٍ ، يُتَوَّجُ رَأْسُهَا شَعْرَ كَسْتِنَائِي  
فَاتِحَ تَعْلُوهُ قُبْعَةٌ صَغِيرَةٌ . كَانَتْ عَيْنَاهَا زَرْقَاوَيْنِ جَمِيلَتَيْنِ مُتَأَمِّلَتَيْنِ ،  
تَنْمَانِ عَنْ صِدْقٍ وَطَهَارَةٍ . كَانَتَا مِنَ الرُّوعَةِ حَتَّى لَيْتَعَذَّرُ النَّظْرَ إِلَى  
بَاقِي وَجْهِهَا . وَكَانَتْ شَفَتَاهَا خَلَائِطَيْنِ رَغِمَ مَا كَانَ يَبْدُو عَلَيْهَا مِنْ  
حَيَاءٍ حَالِ ابْتِسَامَتِهَا . كَانَ صَوْتُهَا عِنْدَمَا تَتَكَلَّمُ حُلُوَ النُّغَمَاتِ .  
وَكَانَتْ خُطَوَاتُ مَشِيِّهَا رَقِيقَةً هَيِّنَةً . وَلَكِنْ تَغْيِيرُهَا الْعَذْبَ وَبَسَاطَةَ  
أَسْلُوبِهَا مَمَزُوجَانِ بِتَأْثِيرِ وَجْهِهَا الْجَدَّابِ . كَانَ يُوحِي إِلَيَّ بِشُعُورِ  
خَاصٍّ . كُنْتُ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ أَفْتَقِدُهُ ، إِمَّا فِيهَا وَإِمَّا فِي نَفْسِي . وَلَكِنْ



ما هذا الشيء ؟ لم أدر .

وقدّمنا الأنسة هالكوم ثم أشارت ضاحكة إلى كُرَاسَةِ الرَّسْمِ بِيدِ أختها قائلة: « يا لها من تلميذة رائعة ، يا سيد هارترائت ! ما إن تسمع أنك في البيت حتى تمسك بكُرَاسَةِ رَسْمِها تريد أن تبدأ . »

قالت الأنسة فيرلي : « نعم ، أخشى البداية . أشعر وكأنني فتاة صغيرة تراجع دروسها قبل الذهاب إلى المدرسة . »

قالت الأنسة هالكوم : « سواء أ كانت رسوم التلميذة جيدة أم رديئة ، فلا بد أن تجتاز نيران حكم الأستاذ . دعونا نخرج للنزهة



ونأخذها معنا . هيا أريها للسيد هارترائت - لأول مرة - لحظة كونه غير قادر على تركيز كل انتباهه عليها . »

وركبنا العربة ، واستحال كل نقد جاد للرسوم إلى هذر في ظل حديث الأنسة هالكوم الساخر ، عن الآنسات والسيدات اللاتي يتعلمن الفنون الجميلة . كنت أنظر أحيانا إلى كُرَاسَةِ الرَّسْمِ ، ولكنني أعترف بأنني كنت أنظر إلى الأنسة فيرلي أكثر وأكثر . كنت أستمع بالنزهة بصفتي ضيفا أكثر مني مدرّس رسم .

كانت الساعة الثالثة قبل أن نعود إلى البيت . وعندما انصرفت الفتاتان لارتداء ملابسهما للغداء ، وانفردت بنفسي ثانية ، في غرفتي ، تبددت سعادتي فجأة ؛ إذ شعرت بعدم الرضا عن نفسي . ربما كان السبب يكمن في الشعور بأنني أفتقد شيئا ما ، إما في الأنسة فيرلي وإما في نفسي .

وفي غرفة الجلوس بعد الغداء ، انسلت الأنسة هالكوم إلى النافذة واستمرت في تفحص خطابات والدتها ، على حين راحت الأنسة فيرلي تعرف على البيانو . كانت أمسية لن أنساها بموسيقاها العذبة وأطمئنتاني نفسي ، ونور القمر يتلألأ على الأزهار بالحديقة . كان يغمّرني شعور بالهدوء والارتياح .



بَعْدَ ذَلِكَ ، خَرَجَتِ الْآنِسَةُ فِيرَلِي تَسْتَنْشِقُ الْهَوَاءَ ، فَادَّتَنِي  
الْآنِسَةُ هَالِكُومَ هَامِسَةً . كَانَتْ تُمَسِّكُ بِخِطَابِ كِتَبَتِهِ أُمُّهَا إِلَى  
السَّيِّدِ فِيلِيبِ فِيرَلِي مِنْذُ إِحْدَى عَشْرَةَ أَوْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَأَخَذَتْ  
تَقْرَأُ لِي جُزْءًا مِنْهُ . كَانَ كَمَا يَلِي :

« لَعَلَّكَ تَعْرِفُ السَّيِّدَةَ الْعَجُوزَ كِمَبِ صَاحِبَةِ حَانُوتِ الْقَرْيَةِ .  
إِنَّهَا تُحْتَضِرُ ، وَقَدْ وَصَلَتْ أَخْتُهَا السَّيِّدَةَ كَاثِيرِيكَ مِنْ هَامْبُشِير  
لِرِعَايَتِهَا . إِنَّهَا امْرَأَةٌ مَحْمُودَةٌ السَّيِّرَةِ ، فِي مُنْتَصَفِ الْعُمُرِ ، وَلَكِنْ  
يَبْدُو أَنَّ لَدَيْهَا سِرًّا دَفِينًا ، لِذَا تَتَرَاءَى نَظْرَةً غَرِيبَةً عَلَى وَجْهِهَا . لَقَدْ  
طَلَبْتُ مِنِّي أَنْ أَقْبَلَ ابْنَتَهَا الصَّغِيرَةَ فِي مَدْرَسَتِي ؛ وَبِالطَّبَعِ قِيلَتْ .  
إِنِّي أَحِبُّ تَلْمِيزَتِي الصَّغِيرَةَ حُبًّا شَدِيدًا ، رَغْمَ أَنَّ عَقْلَ الْمُسْكِينَةِ  
لَيْسَ مِنَ النُّضْجِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِمَنْ هُوَ فِي مِثْلِ سِنِّهَا . وَقَدْ  
طَلَبْتُ مِنَ الطَّبِيبِ أَنْ يُرَاقِبَهَا ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا سَتَتَغَلَّبُ عَلَى هَذَا  
النَّقْصِ ، وَلَكِنَّهُ حَذَّرَنِي أَنَّهَا لِبُطْئِهَا فِي تَقَبُّلِ الْأَفْكَارِ الْجَدِيدَةِ ، فَإِنَّهَا  
تَحْتَزِنُهَا فِي ذَهْنِهَا لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ بَعْدَ أَنْ تَفْهَمَهَا . إِنَّهَا فَتَاةٌ لَطِيفَةٌ  
وَدُودٌ ، يَا عَزِيزِي فِيلِيبَ ، وَلَكِنْ مَلَابِسُهَا لَمْ تَكُنْ مُنَاسِبَةً عِنْدَمَا  
أَقْبَلْتُ حَتَّى إِنَّنِي قَدَّمْتُ لَهَا بَعْضًا مِنْ مَلَابِسِ ابْنَتِنَا الْعَزِيزَةِ لُورَا  
الْبَيْضَاءِ الْقَدِيمَةِ .

« فَقَبِلْتُ يَدَيَّ وَقَالَتْ : « آه ، يَا سَيِّدَتِي ، لَا بُدَّ أَنْ أَرْتَدِي

مَلَابِسَ بَيْضَاءَ طِيلَةً حَيَاتِي ؛ لِأَنَّهَا سَتَذَكِّرُنِي بِعَطْفِكَ وَحَنَانِكَ نَحْوِي  
وَتَجْعَلُنِي أَعْتَقِدُ دَائِمًا أَنَّي أَرْضِيكَ . »

وَتَوَقَّفَتِ الْآنِسَةُ هَالِكُومَ وَسَأَلَتْنِي إِنْ كَانَتِ الْفَتَاةُ الَّتِي قَابَلْتُهَا فِي  
الطَّرِيقِ تَبْدُو شَابَةً فِي الثَّانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ أَوْ الثَّالِثَةِ وَالْعِشْرِينَ .

« نَعَمْ ، إِنَّهَا فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّنِ . »

« وَكَانَتْ كُلُّ مَلَابِسِهَا بَيْضَاءَ ؟ »

« كُلُّهَا بَيْضَاءَ . »

« رُبَّمَا كَانَ الطَّبِيبُ مُخْطِئًا عِنْدَمَا قَالَ إِنَّهَا سَتَتَخَلَّصُ مِنْ نِقَاطِ  
ضَعْفِهَا ، قَدْ لَا تَتَخَلَّصُ مِنْهَا أَبَدًا . رُبَّمَا كَانَ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي  
أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَرْتَدِي الْمَلَابِسَ الْبَيْضَاءَ . »

وَبَعْدَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَادَتِ الْآنِسَةُ هَالِكُومَ إِلَى الْخِطَابِ :

« وَالْآنَ يَنْبَغِي عَلَيَّ أَنْ أَخْبِرَكَ عَنْ سِرِّ شَغْفِي بِأَنَّ كَاثِيرِيكَ ،  
يَا عَزِيزِي فِيلِيبَ ؛ فَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَيْسَتْ رَائِعَةً الْجَمَالِ ، إِلَّا أَنَّهَا  
تُشَبِّهُ ، إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ ، فِي شَعْرِهَا ، وَلَوْنِ عَيْنَيْهَا ، وَشَكْلِ  
وَجْهِهَا ... »

وَقَفَزْتُ مِنْ مَقْعَدِي ، قَبْلَ أَنْ تُكْمِلَ الْآنِسَةُ هَالِكُومَ قِرَاءَةَ



الكلمات التالية ، إلى الخارج ، في نور القمر حيث رأيته ، كانت  
تقف الأنسة فيرلي وهي تشبه تماماً الفتاة ذات الرداء الأبيض .  
لقد فهمت الآن ما كنت أفقده عندما رأيته أول مرة . كنت  
أفقد الشبه بينها وبين الفتاة التي كانت تسير بمفردها في الطريق !  
صاحت الأنسة هالكوم : « أ رأيت ! هذا ما رأيته أمي منذ إخذى

عشرة سنة ! »

« نعم أراه ، وإن كنت كارهاً له ؛ فالربط بين الاثنين يلقي  
بظلال على مستقبل تلك المتألقة التي تقف الآن ناظرة إلينا .  
فلندعها إلينا . »

« صه ! إنها قادمة إلينا من تلقاء نفسها . لا تذكر لها شيئاً عن  
هذا . تعالي يا لورا . السيد هارترابت يريد المزيد من الموسيقى .  
يريدها هذه المرة من نوع مرح . »

وهكذا انتهى يومي الأول بليميريدج هاوس .

## الفصل الرابع

ومرت الأيام والأسابيع ، وبدأ الصيف يستسلم للخريف . يا له  
من وقت آمن سعيد ! كنت في الصباح أصلح من حال لوحات  
السيد فيرلي ، وأقضي ما بعد الظهر والأمسيات ، أسبوعاً وراء  
أسبوع ، وحيداً في رفقة فتاتين كانت إحداهما تحظى بكل الجمال  
والرقة والصدق الخالص الذي يأسر قلب الإنسان . لقد كشفت  
الكلمات التي حاولت أن أصف بها الأنسة فيرلي عن سري ؛  
لقد أحببتها .

كان علي أن أتذكر وضعي ، وأن أتحكم في مشاعري على  
لحز أكثر حرصاً . ففي عملي قمت كثيراً بتعليم فتيات من  
مختلف درجات الجمال ، ولكنني كنت قد تعلمت أن أترك قلبي  
في القاعة الخارجية بمثل الهدوء الذي كنت أترك فيه مظلتي  
هناك . لقد تعلمت أن تلميذاتي ، بحكم مركزي المتواضع في



الحياة ، لَنْ يَشْعُرَنَّ بِاهْتِمَامِ نَحْوِي ، وَهَذِهِ الْخَبْرَةُ وَقَرَّتْ لِي  
السَّلَامَةُ فِي الْمَاضِي ، وَلَكِنْ هَا هِيَ ذِي قَدْ تَخَلَّتْ عَنِّي ؛ لَقَدْ  
أَحْبَبْتُهَا .

وَأَفْتَرَقْنَا كَالْعَادَةِ ذَاتَ مَسَاءٍ . وَلَمْ تَكُنْ كَلِمَةً وَاحِدَةً ، فِي أَيِّ  
وَقْتٍ مَضَى ، قَدْ أَفْلَتَتْ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيَّ بِحَيْثُ تُمَكِّنُهَا مِنْ مَعْرِفَةِ  
سِرِّي . وَلَكِنْ عِنْدَمَا تَقَابَلْنَا فِي الصَّبَاحِ لَاحَظْتُ عَلَيْهَا بَعْضَ تَغْيِيرٍ  
أَفْصَحَ لِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لَقَدْ اكْتَشَفَتِ الْحَقِيقَةُ ، وَكَانَتْ تَشْعُرُ  
بِالْأَسْفِ نَحْوِي .

تَغَيَّرَتْ طَرِيقَتُهَا . أَصْبَحَتْ حَزِينَةً وَعَصْبِيَّةً فِي وُجُودِي ، وَنَدَرَ  
ابْتِسَامُهَا . كُنْتُ أَلْمَسُ بُرُودَةً فِي يَدِهَا ، وَأَحْيَانًا خَوْفًا فِي تَغْيِيرَاتِ  
وَجْهِهَا . وَانْعَكَسَ هَذَا التَّغْيِيرُ لَدَيْهَا فِي سُلُوكِ أَخْنِهَا غَيْرِ الشَّقِيقَةِ  
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ تُفَلِّتْ مِنَ الْآنِسَةِ هَالِكُومٍ مُجَرَّدُ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ  
حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ . صَارَتْ عَيْنَاهَا تَرْقُبَانِي . وَكَانَ يَبْدُو عَلَيْهَا  
الْغَضَبُ أَحْيَانًا ، وَالْخَوْفُ أَحْيَانًا . لَمْ يَعُدْ وَضْعِي يُطَاقُ ، وَلَكِنِّي لَمْ  
أَكُنْ أَعْرِفُ كَيْفَ أَتَصَرَّفُ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ . وَأَخِيرًا أَعَانَتْنِي الْآنِسَةُ  
هَالِكُومِ الَّتِي أَنْبَأَتْنِي شَفَتَاهَا بِالْحَقِيقَةِ الْمُرَّةِ غَيْرِ الْمَتَوَقَّعَةِ ، وَالَّتِي كَانَ  
لَا بُدَّ مِنْهَا . كَانَ هَذَا يَوْمَ خَمِيسٍ ، وَكُنْتُ تَقْرِيئًا فِي نَهَايَةِ شَهْرِي  
الثَّالِثِ فِي لِيْمِيرِيدِج .

كَانَ إِفْطَارُنَا ، الَّذِي كَانَ يَحْفَلُ فِيهِمَا مَضَى بِالْمُنَاقَشَةِ الْمَرْحَةِ عَنْ  
خُطَطِ الْيَوْمِ ، مُقْتَضِبًا وَصَامِتًا . وَأَخِيرًا تَكَلَّمَتِ الْآنِسَةُ هَالِكُومِ .

قَالَتْ : « لَقَدْ رَأَيْتُ عَمَكَ هَذَا الصَّبَاحَ يَا لُورَا . قَالَ إِنَّ الْاِثْنَيْنِ  
لَا الثَّلَاثَاءَ هُوَ الْيَوْمُ الْمَحْدَدُ . »

وَأَطَرَقَتِ الْآنِسَةُ فِيرْلِي بِرَأْسِهَا إِلَى الْأَرْضِ ، وَتَحَرَّكَتْ أَصَابِعُهَا  
فِي عَصَبِيَّةٍ ، وَاخْتَلَجَتْ شَفَتَاهَا . وَلَاحَظْتُ الْآنِسَةُ هَالِكُومِ بُوَسَّ  
حَالَةَ أَخْنِهَا فَتَهَضَّتْ مِنْ جِلْسَتِهَا أَمَامَ الْمَائِدَةِ . وَعِنْدَمَا هَمَّتْ  
بِالْاِنْصِرَافِ ، طَلَبْتُ مِنِّْي أَنْ أُسِيرَ مَعَهَا فِي الْحَدِيقَةِ قَبْلَ أَنْ أَبْدَأَ  
عَمَلِي صَبَاحَ ذَلِكَ الْيَوْمِ . وَعِنْدَمَا خَرَجْنَا إِلَيْهَا مَرَّ بِنَا بُسْتَانِي وَيَيْدِهِ  
خِطَابٌ ، وَقَالَ إِنَّهُ خَاصٌّ بِالْآنِسَةِ فِيرْلِي .

وَنَظَرْتُ الْآنِسَةَ هَالِكُومِ إِلَيْهِ ، وَلَاحَظْتُ أَنَّ الْخَطَّ كَانَ غَرِيبًا  
عَلَيْهَا فَسَأَلْتُهُ مِنْ أَيْنَ جَاءَ ، فَقَالَ إِنَّ امْرَأَةً عَجُوزًا قَدْ أَعْطَتْهُ إِيَّاهُ ثُمَّ  
مَضَتْ إِلَى حَالِ سَبِيلِهَا .

قَالَتْ الْآنِسَةُ هَالِكُومِ : « أَظُنُّ أَنَّهُ خِطَابٌ تَسْأَلُ فِيهِ إِحْسَانًا .  
أَعْطَاهُ لِأَحَدِ الْخَدَمِ . »

وَذَهَبْنَا إِلَى الْبَيْتِ الصَّيْفِيِّ ، وَهُنَاكَ صَارَحْتَنِي بِأَنَّهَا تَعْرِفُ سِرِّي ،  
وَأَنَّهَا مُعْجَبَةٌ بِي إِذْ لَمْ أَفْصَحْ عَنْ مَشَاعِرِي لِأَخْنِهَا ، وَلَمْ أُسْتَغْلِ



وَجُودِي فِي الْبَيْتِ . وَأَرَدَفْتُ تَقُولُ : « وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ تَرْحَلَ ،  
يَا سَيِّدَ هَارْترايت ، قَبْلَ وَقُوعِ ضَرْرٍ أَكْبَرَ ، لَا لِأَنَّكَ مُدْرَسٌ رَسَمٍ ،  
وَلَكِنْ لِأَنَّ لُورَا فيرلي مَخْطُوبَةٌ لِرَجُلٍ آخَرَ . »

وَاخْتَرَقَتِ الْكَلِمَاتُ الْأَخِيرَةَ قَلْبِي وَكَانَهَا رِضَاصَةً . وَبَعْدَ أَنْ زَالَ  
الْأَلَمُ الْمَوْجِعُ أَصَابَنِي شُعُورٌ بِالْكَابَةِ ، وَاسْتَحَالَتْ زَهْرَاتُ أَمَالِي  
الْحَمَقَاءِ إِلَى أَوْرَاقٍ ذَابِلَةٍ . وَانْتَضَرْتُ مُتَرْفِقَةً حَتَّى أَفْقَتْ مِنْ  
صَدَمَتِي .

قَالَتْ : « لَا بُدَّ أَنْ تَرْحَلَ مِنْ أَجْلِهَا . لَقَدْ ظَلَّتْ تَلُومُ نَفْسَهَا  
عَلَى مَا حَدَثَ ، وَهَذَا يُلْقِي بِظِلَالٍ قَاتِمَةٍ عَلَى خِطْبَتِهَا . إِنَّهَا خِطْبَةٌ  
مَبْنِيَّةٌ عَلَى كَلِمَةٍ شَرَفٍ ، لَا عَلَى الْحُبِّ . بَارَكِهَا أَبُوهَا وَهُوَ عَلَى  
فِرَاشِ الْمَوْتِ مُنْذُ سَنَتَيْنِ ، وَرَضِيَتْ هِيَ بِالْأَمْرِ الْوَاقِعِ مِثْلَمَا تَرْضِيهِ  
بَنَاتُ أَخْرِيَّاتٍ . لَا بُدَّ أَنْ تَنْسَاكَ ، وَسَيَسَاعِدُهَا غِيَابُكَ عَلَى ذَلِكَ .  
إِنِّي أَثِقُ بِكَ كَصَدِيقٍ . »

قُلْتُ : « مَا الْعُدْرُ الَّذِي أَقْدَمَهُ لِلسَيِّدِ فيرلي لِرَحِيلِي عَلَى هَذَا  
النَّحْوِ الْمَفَاجِئِ ؟ وَمَتَى أَرْحَلُ ؟ »

أَجَابَتْ : « إِنَّ خِطْبَتَهَا سَيَأْتِي يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ . قَدْ يَصِلُكَ عَدَاً بَعْضُ  
خِطَابَاتٍ . اِنْتَظِرْ حَتَّى الْعَدِ ، وَقُلْ لِلسَيِّدِ فيرلي إِنَّ هُنَاكَ مَهْمَةً

تَقْتَضِي عَوْدَتَكَ إِلَى لُنْدُنَ . وَبِمَكِّنِكَ الرَّحِيلُ يَوْمَ السَّبْتِ . »

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَدِمَ أَحَدُ الْخَدَمِ لِخَيْرِ الْآنِسَةِ هَالِكُومَ أَنَّ  
الْآنِسَةَ فيرلي كَانَتْ فِي غَايَةِ الْقَلْقِ بِسَبَبِ رِسَالَةٍ تَلَقَّتْهَا ، وَلَكِنْ ،  
قَبْلَ أَنْ تَتَرَكَّنِي رَفِيقَتِي لِمُرَافَقَةِ أُخْتِهَا اضْطُرَّتْ أَنْ أَسْأَلَ عَنْ ذَلِكَ  
الْخَطِيبِ .

« إِنَّهُ رَجُلٌ ثَرِيٌّ وَصَاحِبُ أَمْلَاقٍ فِي هَامْبُشِير . »

« مَا اسْمُهُ ؟ »

« سِير بيرسيغال غلايد . »

سِير بيرسيغال ! هَامْبُشِير ! تَذَكَّرْتُ أَنَّ كَاتِيرِيكَ وَسَّأَلَهَا .

سَأَلْتُهَا : « بِمَرْتَبَةٍ ( فَارِس ) أَوْ ( بَارُون ) ؟ »

أَجَابَتْ بِشَيْءٍ مِنَ الْبُرُودِ : « طَبْعاً بِمَرْتَبَةِ الْبَارُون . » ثُمَّ مَضَتْ  
لِرُؤْيَةِ أُخْتِهَا ، وَتَرَكْتُني لِأَفْكَارِي الْمُضْطَرِبَةِ الْمَهْمُومَةِ . وَمَا إِنْ صِرْتُ  
وَحِيداً حَتَّى رَاحَتْ تِلْكَ الْأَفْكَارُ تَتَزَاحَمُ فِي ذَهْنِي : سِير بيرسيغال  
غلايد ! بَارُون ! صَاحِبُ أَمْلَاقٍ فِي هَامْبُشِير ! أَمْ كُنْتُ أَحْمَقُ  
عِنْدَمَا رَبَطْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنَّ كَاتِيرِيكَ ؟ حَقّاً كَانَ هُنَاكَ أَلِفَاتٌ مِنَ  
الْبَارُونَاتِ فِي إِنْجِلْتْرَا ، إِلَّا أَنِّي شَعَرْتُ أَنَّ ثَمَّةَ خَطَرٍ فِي ظِلَالِ



المستقبل ، خطراً كان أقوى بكثير من العذاب المرير الذي سببه  
النهاية التبعة لحبي القصير .

كنت أعمل في لوحاتي ، حين فوجئت بدخول الأنسة هالكوم  
عرفتي ، وكانت غاضبة ومضطربة .

قالت : « سيد هارترايت ، لقد تلقت أختي رسالة بلا توقيع ،  
ولكنها محاولة شريرة للإساءة إلى سمعة سير بيرسيغال في نظر  
أختي . لقد وجدت صعوبة كبيرة في تهدئتها . إنها مسألة  
عائلية ، ولكنك الرجل الوحيد الذي أستطيع استشارته . أ ينبغي  
علي أن أكتشف ثوا من كتب هذه الرسالة ، أم أن أنتظر حتى الغد  
حين يقدم إلينا محامي السيد فيرلي ؟ »

وأعطتني الرسالة وهي تتكلم . ولاحظت أن بدايتها كانت بدون  
آية مقدمة :

« هل تعتقدين في الأحلام ؟ بالأمس رأيتك في منامي ،  
يا آنسة فيرلي : كنت موشكة على الزواج ، وكان مظهر  
الرجل بجانبك يبعث على الرضا ؛ كان متوسط القامة ، ويبلغ من  
العمر خمسة وأربعين عاماً . وكان ذا وجه شاحب ، وشعر أسود ،  
وعينين عسليتين براقيتين ، ولكن كان يتأبه سعال بين آن وآخر ،

وكان يظهر يده اليمنى أثر جرح قديم ، ترى أ كان حلمي هذا  
عن ذلك الرجل بعينه ؟

« ولكنني استطعت أن أنفذ إلى قلبي . كان أسود سواد الليل ،  
كتبت عليه ، وبحروف ملتهبة ، هذه الكلمات « جبار لا يرحم .  
لقد أشقى أخريات وسوف يتعس هذه الفتاة بجانيه . » ثم جاءت  
أشعة الضوء بينك وبينه ، وباعدت بينكما . ولم يستطع رجل الدين  
أن يقرأ مراسيم الزواج . إنني أعتقد في الأحلام ، يا آنسة فيرلي ،  
وأحذرك لا من أجلي ولكن من أجلك أنت . إن أختك لوالدتك  
لها مكان كبير في قلبي ؛ فقد كانت أمك صديقتي الأولى  
الحميمة والوحيدة . »

هنا انتهى الخطاب الغريب بلا اسم أو توقيع .

عقبته قائلاً : « يبدو أنه خطاب كتبه امرأة - امرأة عقلها  
مختل بعض الشيء . » وأمنت الأنسة هالكوم على قلبي .

لقد أوجت إلي تلك الكلمات الأخيرة بفكرة ما ، ولكنني لم  
أذكرها ، فقد كنت أخشى أنني واهم .

قلت : « لو أتيت لنا آية فرصة للعثور على من كتب هذه  
الرسالة فلن يضيرنا أن نستغل فرصتنا . علينا أن نسأل البستاني عن



المرأة العجوز التي سلمتها له ، ثم أليس هناك احتمال استشارة  
محامي السيد فيري اليوم ؟»

قالت : « إنه قادم إلينا غدا . إن سير بيرسيغال يريد أن يحدد  
تاريخ زواجه عندما يأتي يوم الاثنين ، وسوف يناقش السيد غيلمور ،  
المحامي ، هذا الأمر معه . إنه صديق قديم لآل فيرلي ، ويمكننا أن  
نثق به . وإن هو اتفق مع سير بيرسيغال فسيعود إلى لندن لكتابة  
اتفاقية هبة الزواج . »

وعلى الرغم من صعوبة الاعتراف بما سأقوله ، فإني بدأت  
التفكير بشغف شديد ، وبأمل كبير ، في صديق الاتهامات الواردة  
بتلك الرسالة . ماذا يحدث لو كانت صحيحة ؟ لا بد أن أكون  
أميناً فأعترف بأنني كنت أكن كراهية شديدة للرجل الذي كان  
سيترزوج الآنسة فيرلي .

وعندما انطلقنا للعثور على معلومات عن مصدر الرسالة ، سألت  
الآنسة هالكوم إن كان وصف ذلك الرجل في الحلم الذي رأيته  
ينطبق على سير بيرسيغال .

أجابت : « في كل شيء ، ولكنني لم أسمع همسة واحدة تنال

سمعته . »

ولم يستطع البستاني أن يخبرنا أكثر مما قاله من قبل ، فكان أن  
ذهبنا ، بعد ذلك ، إلى القرية ولكن حتى هناك ، لم نُسفر  
استفساراتنا عن شيء إلى أن جئنا إلى المدرسة .

وهناك وجدنا معلم المدرسة يتحدث إلى تلاميذه . كان يقول  
لهم : « لن أسمع منكم ، بعد ذلك ، كلمة عن الأشباح . ليس  
هناك مثل هذه الأشياء ، وسيعاقب أي ولد يقول بوجود الأشباح .  
كلكم ترون جاكوب بوسلثويت . ها هو ذا واقف هناك وحده .  
لقد عاقبته لأنه يقول إنه رأى شبحاً ، ولكنه لا يستمع إلى ما  
يُمليه العقل عندما أقول له ليس هناك أية أشباح . قد أضطر إلى  
ضربه ، وإذا انتشرت هذه الشائعة أكثر من ذلك ، فقد أضطر إلى  
ضربكم جميعاً ! والآن ، انصرفوا إلى بيوتكم ما عدا جاكوب . »

سألت الآنسة هالكوم : « ماذا حدث ، يا سيد ديميستر ؟ »

أجاب : « هذا الولد اللعين يخيف المدرسة كلها بترديد قوله إنه  
رأى شبحاً الليلة البارحة . »

والتفتت الآنسة هالكوم إلى جاكوب ، وسألته أين رآه .

« في المدافن ، متشجاً كله بالبياض كما ينبغي أن يكون الشبح . »

« وكان شبح من ؟ »



قال دون تردد : « سُبْحَ السَّيِّدَةِ فيرلي » .

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَغْضَبَ الْآنِسَةُ هَالِكُومَ لِذِكْرِ أُمِّهَا الْمُتَوَفَاةِ ،  
عَلَى هَذَا النَّحْوِ ، وَلَكِنَّ السَّيِّدَ دِيمِيسْتَرَ بَدَلَ كُلِّ مَا فِي وَسْعِهِ  
لِيُطِيبَ خَاطِرَهَا .

قال : « لَقَدْ رَأَى الْوَلَدُ ، أَوْ تَخَيَّلَ أَنَّهُ رَأَى امْرَأَةً تَرْتَدِي مَلَابِسَ  
بَيَضَاءَ بِجَوَارِ مَقْبَرَةِ السَّيِّدَةِ فيرلي . وَهَذَا يُفَسِّرُ إِجَابَتَهُ » .

وَبَيْنَمَا كُنَّا نَغَادِرُ الْمَدْرَسَةَ أَخْبَرْتُ الْآنِسَةَ هَالِكُومَ بِشَكِّي فِي أَنْ  
تَكُونَ الرِّسَالَةُ قَدْ جَاءَتْ مِنْ الْفَتَاةِ ذَاتِ الرِّدَاءِ الْأَبْيَضِ ، وَبَيَّنْتُ لَهَا  
أَنَّ رِوَايَةَ الْوَلَدِ تَدْعِمُ قَوْلِي ، ثُمَّ اسْتَطَرَدْتُ أَقُولُ إِنَّ كَاتِبَتَهَا هِيَ أَنْ  
كَاثِيرِيك .

وَتَوَقَّعْتُ وَقَدْ اعْتَرَاهَا الشُّحُوبُ ، ثُمَّ دُونَ مَزِيدٍ مِنَ الْمُنَاقَشَةِ ،  
أَخَذْتَنِي إِلَى الْمَدَافِنِ لِتُرِيَنِي قَبْرَ أُمِّهَا ، وَتَرَكْتَنِي هُنَاكَ ، وَتَفَحَّصْتُ  
شَاهِدَ الْقَبْرِ بِإِمْعَانٍ . كَانَ بَيَاضُهُ غَائِمًا ، وَلَكِنِّي لَاحِظْتُ أَنَّ جُزْءًا  
مِنْهُ قَدْ نَظَّفَ مُؤَخَّرًا . وَتَسَاءَلْتُ مُسْتَعْرِبًا : « تَرَى مَنْ فَعَلَ هَذَا ؟ »

وَوَقَعَتْ عَيْنَايَ عَلَى كُوخٍ لَا يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْمَدَافِنِ . وَاتَّجَهْتُ  
إِلَيْهِ فَوَجَدْتُ امْرَأَةً عَجُوزًا أَخْبَرْتَنِي أَنَّ زَوْجَهَا كَانَ مَرِيضًا وَطَرِيحَ  
الْفَرَّاشِ مِنْذُ عِدَّةٍ أَشْهُرٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَعْتَنِيَ بِالْمَقَابِرِ كِعَادَتِهِ .

إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ الَّذِي قَامَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ .

وَعَدْتُ مُفَكِّرًا إِلَى لِيْمِيرِيْدَجِ هَاوَسَ ، وَقَرَّرْتُ أَنْ أُرَاقِبَ الْمَقْبَرَةَ  
سِرًّا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَأَبْلَغْتُ الْآنِسَةَ هَالِكُومَ بِنِيَّتِي ، وَلَكِنْ عَلَى  
الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَمْ تَبْدِ اعْتِرَاضًا ، فَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّهَا كَانَتْ تَشْكُ فِي  
جَدِّوَاهَا .





## الفصل الخامس

وَعِنْدَمَا أَقْبَلَ الْمَسَاءُ ، اتَّخَذْتُ مَوْضِعًا لِي فِي مَدْخَلِ الْمَدَافِنِ ،  
كُنْتُ أَرَى مِنْهُ ، بِوُضُوحٍ ، قَبْرَ السَّيِّدَةِ فِيرْلِي . مَا كُنْتُ تَرَى هُنَاكَ  
مَخْلُوقًا حَيًّا ، وَلَا طَائِرًا يُحَلِّقُ فِي السَّمَاءِ ، أَوْ كَلْبًا هَائِمًا . كَانَ  
مَنْظَرًا مَوْحِشًا ، وَكَانَتْ سَاعَةٌ مُقْبِضَةً . كُنْتُ أَشْعُرُ بِاِكْتِتَابٍ وَأَنَا  
أَحْصِي الثَّوَانِي .

وَقَبْلَ أَنْ يُسْدِلَ الظُّلَامُ أَسْتَارَهُ ، سَمِعْتُ وَقَعَ خُطُواتٍ ، وَصَوْتًا  
مُقْبِلًا ، كَانَ صَوْتَ امْرَأَةٍ .

قَالَ الصَّوْتُ : « لَا تَقْلَقِي عَلَى الرِّسَالَةِ ؛ لَقَدْ سَلَّمْتَهَا فِي أَمَانٍ  
إِلَى الرَّجُلِ ، فَأَخَذَهَا دُونَ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ . لَمْ يَرْنِي أَحَدٌ ، بِكُلِّ  
تَأْكِيدٍ . »

وَأَنْتَظَرْتُ وَقَدْ اسْتَبَدَّ بِي الْقَلَقُ ، وَالْخُطُواتُ تَتَوَالَى تَبَاعًا . وَبَعْدَ



هَنِيئَةً رَأَيْتُ امْرَأَتَيْنِ تَمْشِيَانِ صَوْبَ الْمَقْبَرَةِ . كَانَتْ إِحْدَاهُمُ تَرْتَدِي مِعْطَافًا فَوْقَ فُسْتَانِهَا ، وَكَانَ جُزْءٌ مِنْهُ يَظْهَرُ تَحْتَهُ . كَانَ فُسْتَانَا أَبْيَضُ ! وَاتَّجَهَتِ الْمَرْأَةُ الْأُخْرَى بِمُفْرَدِهَا صَوْبَ الْمَقْبَرَةِ ، وَكَانَتْ فِي مُنْتَصَفِ الْعُمُرِ ، وَاخْتَفَتْ عِنْدَ نَاصِيَةِ الْمَبْنَى . لَمْ أَتْبَعْهَا لِاعْتِقَادِي بِأَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي سَلَّمَ الرِّسَالَةَ لَمْ يَكُنْ ذَا أَهْمِيَّةٍ تُذَكِّرُ . كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَى مَنْ كَتَبَهَا ، وَكُنْتُ مُوقِنًا مِنْ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ كَانَ أَمَامِي فِي الْمَدَافِنِ .

وَوَقَفْتُ شَاخِصَةً يَبْصُرُهَا إِلَى الْقَبْرِ ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ قِطْعَةً قُمَاشٍ أَبْيَضَ ، وَبَلَلْتُهَا فِي جَدُولِ مِيَاهِ ، وَشَرَعْتُ تُنْظِفُ شَاهِدَ الْقَبْرِ . وَمَشَيْتُ بِرُفْقِ نَحْوِهَا ، وَمَا إِن رَأَيْتِي حَتَّى أَجْفَلْتُ .

قُلْتُ لَهَا : « لَا تَخَافِي . لَا شَيْءَ أَنْكَ تَذَكِّرِينِي ؟ لَقَدْ تَقَابَلْنَا فِي سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ إِحْدَى اللَّيَالِي ، وَقَدْ سَاعَدْتِكِ فِي مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ إِلَى لُنْدَنَ . »

وَتَنَفَّسَتِ الصُّعْدَاءُ ، ثُمَّ تَبَدَّدَ الْخَوْفُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَزَايَلَ وَجْهَهَا .

قَالَتْ : « لَقَدْ كُنْتُ فِي غَايَةِ الْعَطْفِ عَلَيَّ . كَيْفَ جِئْتُ إِلَى هُنَا ؟ »

« أَلَا تَذَكِّرِينَ مَا قُلْتَهُ لَكَ ؟ إِنَّنِي أَقِيمُ فِي لِيمِيرِيدَجْ هَاوَس ؟ »

« فِي لِيمِيرِيدَجْ هَاوَس ! آه ! مَا أَسْعَدَكَ ! » وَنَظَرْتُ إِلَى نَظْرَةٍ لَيْسَ فِيهَا أَيُّ إِشَارَةٍ مِنْ شَكِّهَا السَّابِقِ .

وَتَأَمَّلْتُ وَجْهَهَا ، وَإِذْ بِي أَرَى شِبْهَ الْآنِسَةِ فِيرْلِي فِيهَا ، بَيْدَ أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ بَعْضُ فُرُوقٍ ، فَالْجَمَالُ الرَّقِيقُ لَوَجْهِ الْآنِسَةِ فِيرْلِي ، وَصَفَاءُ الْعَيْنَيْنِ ، وَنَقَاءُ الْبَشَرَةِ ، لَمْ يَكُنْ لَهَا وَجُودٌ فِي الْوَجْهِ الْمُجْهَدِ الْمُضْنَى الَّذِي كَانَ يُوَاجِهُنِي آنَذَاكَ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّي كَرِهْتُ نَفْسِي لِمُجَرَّدِ التَّفَكِيرِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ ، فَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَوْ حَدَثَ وَتَرَكَ الْحُزْنَ وَالْأَلَمَ أَثَارَهُمَا عَلَى وَجْهِ الْآنِسَةِ فِيرْلِي ، إِذَا لَبَدْتُ هِيَ وَآنَ كَاتِيرِيكَ مُتَمَاثِلَتَيْنِ تَمَامًا . وَبَيْنَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ الْحَزِينَةُ تَحْطُرُ بِيَالِي ، سَأَلْتَنِي فِيمَا كُنْتُ أَفْكُرُ .

قُلْتُ : « كُنْتُ أَتَسَاءَلُ .. كَيْفَ جِئْتُ إِلَى هُنَا ؟ »

« جِئْتُ مَعَ صَدِيقَةٍ طَيِّبَةٍ لَمْ أَمُكِّثْ مَعَهَا سِوَى يَوْمَيْنِ . إِلَى أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ أَذْهَبُ ؟ إِنَّ أَعَزَّ صَدِيقَةٍ لِي تَرَقُّدُ هُنَا . كَمْ يَحْزُنُ فِي قَلْبِي أَنْ أَرَى شَاهِدَ قَبْرِهَا مُتَسِخًا ! »

قُلْتُ : « أَنَا سَعِيدٌ بِرُؤْيَيْكَ هُنَا . بَعْدَ أَنْ افْتَرَقْنَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَصَلَ رَجُلَانِ فِي مَرَكَبَةٍ وَأَخْبَرَا شَرْطِيًّا بِأَنَّكَ هَرَبْتَ مِنْ مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ . كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَعَثُرَا عَلَيْكَ . »



وَصَرَخَتْ وَكَأَنَّ كَلِمَاتِي الْآخِرَةَ قَدْ أَفْرَعَتْهَا .

وَأَضَفْتُ قَائِلًا : « وَلَكِنِّي لَمْ أَخْرِهُمَا إِلَى أَيْنَ ذَهَبَتْ . »

وَهَذَاتُ كَلِمَاتِي مِنْ رَوْعِهَا إِذْ فَهِمْتُ أَنَّي صَدِيقٌ مُخْلِصٌ لَهَا .  
وَسَأَلْتُهَا عَنْ مَكَانِ هَذَا الْمُسْتَشْفَى ، فَذَكَرَتْ مُسْتَشْفَى خَاصًّا لَا  
يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي تَقَابَلْنَا فِيهِ ، وَأَرَدْتُ تَقُولُ : « أَظُنُّكَ لَا  
تَعْتَقِدُ فِي إِعَادَتِي إِلَيْهِ ثَانِيَةً . أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

قُلْتُ : « أَنَا سَعِيدَةٌ أَنَّكَ هَرَبْتَ . هَلْ وَجَدْتَ صَدِيقَتَكَ ؟ »

« نَعَمْ . كَانَ الْوَقْتُ مُتَأَخِّرًا جَدًّا ، وَلَكِنِ السَّيِّدَةَ كَلِيمَتَسْ  
كَانَتْ سَعِيدَةً لِرُؤْيَايَ . »

« أَلَيْسَ لَكَ أَبٌ أَوْ أُمٌّ ؟ »

« أَبٌ ! آه ، لَقَدْ تُوَفِّيَ أَوْ أَظُنُّ أَنَّهُ كَذَلِكَ . أَمَّا أُمِّي فَلَسْتُ عَلَى  
وِثَامٍ مَعَهَا . لَا تَتَكَلَّمُ عَنْهَا . تَكَلَّمُ عَنِ السَّيِّدَةِ كَلِيمَتَسْ . إِنَّهَا  
صَدِيقَتِي ؛ لَقَدْ بَكَتْ لِمُصِيبَتِي . »

« آيَةُ مُصِيبَةٍ ؟ »

أَجَابَتْ : « مُصِيبَةٌ اخْتِجَازِي وَحَبْسِي . آيَةُ مُصِيبَةٍ أُخْرَى يُمَكِّنُ  
أَنْ تَقَعَ لِإِنْسَانٍ ؟ »

« هَلْ تُقِيمِينَ بِالْقَرْيَةِ الْآنَ ؟ »

« لَا ، لَا . لَا أَقِيمُ بِالْقَرْيَةِ . بَلْ أَقِيمُ فِي مَزْرَعَةٍ عَلَى بَعْدِ خَمْسَةِ  
كِيلُومِتْرَاتٍ . أَمْ تَعْرِفُهَا ؟ يُسَمُّونَهَا تودز كورنر . أَصْحَابُهَا أَقَارِبُ  
السَّيِّدَةِ كَلِيمَتَسْ . وَقَدْ ذَهَبْنَا لِلْإِقَامَةِ مَعَهُمْ طَلَبًا لِلْهُدُوءِ وَالْهَوَاءِ  
نَقِيٍّ . كَمْ كُنْتُ سَعِيدَةً أَنْ آتَيْتِ بِالْقُرْبِ مِنْ لِيْمِيرِيدَج ! إِنَّهُمْ أَنَاسٌ  
اسْتِضَافُونَا عِنْدَهُمْ . وَلَكِنْ كَيْفَ حَالُ الْآنِسَةِ فِيرَلِي ؟ أَمْ هِيَ  
وَبِخَيْرٍ ؟ »

« : « لَا هِيَ سَعِيدَةٌ وَلَا هِيَ بِخَيْرٍ هَذَا الصَّبَاحَ . لَقَدْ تَلَقَّيْتُ  
سَأَلْتُكَ .. »

رَتَسَبَّيْتُ كَلِمَاتِي فِي تَوَقُّفِهَا عَنْ تَنْظِيفِ شَاهِدِ الْقَبْرِ ، وَأَنْفَرَجَتْ  
شَفَتَاهَا .

سَأَلْتُ : « كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ ؟ مَنْ أَرَاكَ إِيَّاهَا ؟ أَنَا لَمْ  
أَكْتُبْهَا . »

قُلْتُ : « لَا ، أَنَا وَاثِقٌ أَنَّكَ كَتَبْتَهَا ، وَتَعْرِفِينَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْهَا .  
لَقَدْ أَخْطَأْتُ بِكِتَابَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ . كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَذْهَبِي إِلَى الْبَيْتِ  
وَتَكَلَّمِي الْآنِسَةَ فِيرَلِي بِنَفْسِكَ . أَمْ تَذْهَبِينَ لِرُؤْيَايَ ؟ إِنَّهَا عَطُوفٌ  
كَامُّهَا . هَلْ سَتَرْتِهَا غَدًا فِي الْمَزْرَعَةِ ، أَمْ فِي حَدِيقَةِ لِيْمِيرِيدَج . »



وَأَنْفَرَجَتْ شَفَتَاهَا عَنْ بَضْعِ كَلِمَاتٍ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ شَاهِدِ الْقَبْرِ :  
« أَنْتِ تَعْرِفِينَ كَمْ أَحَبُّ ابْنَتِكَ ، مِنْ أَجْلِكَ ! أَخْبِرْنِي ، يَا  
عَزِيزَتِي فِيرْلِي ، أَخْبِرْنِي مَا هُوَ أَفْضَلُ شَيْءٍ أَفْعَلُهُ . »

وَقَبَلَتْ الْحَجَرَ وَرَبَّتْ بِيَدَيْهَا عَلَيْهِ . وَتَمَلَّكَنِي الْحُزْنُ وَالْأَسَى ،  
وَأَخَذْتُ يَدَيْهَا فِي يَدَيَّ مُحَاوِلًا مُوَاسَاتِهَا ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى ، وَمَا  
لَبِثْتُ أَنْ انْتَرَعَتْهُمَا مِنِّي .

قُلْتُ بِرَفْقٍ « إِهْدِنِي . لَا تَدْعِينِي أَظُنُّ أَنْ مَنْ أَوْدَعَكَ مُسْتَشْفَى  
الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ كَانَ مُحِقًّا فِي ذَلِكَ . »

وَأَحْدَثْتُ كَلِمَاتِي تَغْيِيرًا مُفَاجِئًا ؛ إِرْبَدُّ وَجْهَهَا بِالْكَرَاهِيَةِ  
وَالْفَزَعِ ، وَقَالَتْ وَهِيَ تَعْصُرُ عَلَى نَوَاجِدِهَا : « تَكَلَّمْ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ ؛  
فَسَافَقِدُ أَعْصَابِي إِنْ تَكَلَّمْتُ عَلَى هَذَا النُّحُو ! »

كَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ ذِكْرِي الشَّخْصِ الَّذِي حَبَسَهَا يُؤَثِّرُ فِيهَا  
تَأْثِيرًا عَمِيقًا . كَانَتْ فِي غَايَةِ الْاضْطِرَابِ ، وَبَدَلْتُ قُصَارَى جَهْدِي  
بِكَلِمَاتٍ رَقِيقَةٍ ، كَيْ أَهْدِي مِنْ رَوْعِهَا ، ثُمَّ طَلَبْتُ إِلَيْهَا لِلْمَرَّةِ  
الثَّانِيَةِ أَنْ تُقَابِلَ الْآنِسَةَ فِيرْلِي ، كَمَا أَخْبَرْتَهَا أَنَّ اسْمَ الرَّجُلِ  
الْمُوصُوفِ فِي رِسَالَتِهَا كَانَ مَعْرُوفًا . وَلَكِنْ مَا إِنْ ذَكَرْتُ اسْمَ سِير

بِيرْسِفَالِ غَلَايِدَ حَتَّى نَدَّتْ عَنْهَا صَرْخَةً دَوَّتْ فِي أَرْجَاءِ سَاحَةِ  
الْمَدَافِنِ ، وَعَاوَدَتْهَا نَظْرَةُ الْحَقْدِ وَالْكَرَاهِيَةِ . لَمْ يَبْقَ لَدَيَّ أَدْنَى شَكٍّ ؛  
لَقَدْ كَانَ هُوَ الَّذِي احْتَجَزَهَا فِي مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ .

كَانَتْ صَرْخَتُهَا قَدْ وَصَلَتْ إِلَى آذَانِ أُخْرَى ، فَهَرَوَلَتْ الْمَرْأَةُ  
الْمَدْعُوءَةُ بِالسَّيِّدَةِ كَلِيمَتَسِ نَحُونًا ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْعِهَا أَنِّي صَدِيقٌ  
وَأَنَّ الصَّرْخَةَ لَمْ تَكُنْ قَرْعًا مِنِّي ، إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ جَهِيدٍ ، وَلَكِنَّهَا  
فَهَمَّتْ آخِرَ الْأَمْرِ ، وَأَخَذَتْ تَقْوُدُ أَنْ كَاتِيرِيكَ بَعِيدًا .

وَلَمْ يَتَّبِعِدَا سِوَى بَضْعِ خُطَوَاتٍ عِنْدَمَا تَوَقَّفَتْ أَنْ وَعَادَتْ إِلَى  
الْقَبْرِ ، وَقَبَلَتْهُ ثُمَّ قَالَتْ لِي : « لَا بُدَّ أَنْ أَقُولَ لَكَ وَدَاعًا . أَنَا الْآنَ  
بِخَيْرٍ ، وَقَدْ سَامَحْتُكَ . »

وَنَظَرْتُ فِي إِثْرِهَا وَهِيَ تَخْتَفِي عَنِ الْأَنْظَارِ بِقَلْقٍ وَحُزْنٍ ، وَكَأَنَّمَا  
كَانَتْ تِلْكَ الْمَرَّةُ هِيَ آخِرُ مَرَّةٍ أَرَى فِي هَذَا الْعَالَمِ الْبَائِسِ تِلْكَ الْفَتَاةَ  
ذَاتَ الرِّدَاءِ الْأَبْيَضِ .

وَعُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ وَأَخْبَرْتُ الْآنِسَةَ هَالِكُومَ بِمَا حَدَثَ . وَرَفَضَتْ  
اِقْتِرَاحِي بِأَنْ تَذْهَبَ الْآنِسَةُ فِيرْلِي لِرُؤْيَايَ أَنْ ، وَلَكِنَّهَا وَاظَفَتْ عَلَى أَنْ  
تَذْهَبَ مَعِيَ بِنَفْسِهَا إِلَى الْمَرْعَةِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي . كَمَا أَخْبَرْتَنِي أَنَّ  
الْابْنَةَ الثَّانِيَةَ لِفَلَّاحِ الْمَرْعَةِ كَانَتْ إِحْدَى الْخَادِمَاتِ بِلِيمِيرِيدَجِ  
هاوس .



قَالَتْ: « قَدْ تَكُونُ قَدْ سَمِعْتَ شَيْئًا يُفِيدُنَا مَعْرِفَتَهُ ، وَسَأَلَهَا غَدًا .  
وَلَكِنْ أَمْتَاكِدْ أَنْتَ أَنْ سِير بِيرسيغال هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي أَرْسَلَ أَنْ  
كَاتِيرِيكَ إِلَى مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ ؟ »

« تَمَامَ التَّأَكُّدِ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَهَا إِلَى مُسْتَشْفَى خَاصٍّ ، وَلَا بُدَّ  
أَنَّهُ دَفَعَ مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ لِحَجْرِهَا هُنَاكَ ، وَلَكِنِّي لَا أَفْهَمُ لِمَ فَعَلَ  
ذَلِكَ . »

« أَنَا مُتَأَكِّدَةٌ ، يَا سَيِّدَ هَارْترايت ، أَنْ سِير بِيرسيغال لَنْ يَطُولَ بِهِ  
الْبَقَاءُ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا لَمْ أَقْتَنِعْ أَنَا وَالسَيِّدُ غِيلْمُورُ بِهِ . إِنْ مُسْتَقْبَلُ  
أَخْتِي هُوَ أَعْلَى مَا أُحْرِصُ عَلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ . »

وَوَصَلَتْ خِطَابَاتِي فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي ، فَبَعَثَتْ بِرِسَالَةٍ إِلَى  
السَيِّدِ فِيرْلِي أَطْلَبُ مِنْهُ السَّمَاخَ لِي بِالرَّحِيلِ قُورًا ؛ مُتَعَلِّلًا بِأَنْ ثَمَّةَ  
مُهِمَّةٍ تَسْتَدْعِي عَوْدَتِي إِلَى لَنْدَنْ ، فَكَانَ أَنْ ذَكَرَ فِي إِجَابَتِهِ أَنَّي لَا  
حَقَّ لِي فِي الرَّحِيلِ ، عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَرْحَلَ لِأَنَّ وُجُودِي  
الْمُسْتَمِرَّ رَغْمَ إِرَادَتِي فِي الْبَيْتِ قَدْ يُشِيرُ أَعْصَابُهُ ، وَأَخْبَرْتُ الْآنِسَةَ  
هَالْكُومَ بِالْإِذْنِ بِرَحِيلِي ، وَأَنْطَلَقْنَا إِلَى الْمَزْرَعَةِ .

وَدَخَلْتُ الْآنِسَةَ هَالْكُومَ كُوخَ الْمَزْرَعَةِ وَحْدَهَا ، وَلَكِنَّهَا سَرَّعَانَ  
مَا عَادَتْ قَائِلَةً : « لَقَدْ رَحَلْتُ أَنْ كَاتِيرِيكَ وَالسَيِّدَةُ كَلِيمَنْتِس . »

رَحَلْنَا فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ تَارَكْتَيْنِ السَيِّدَةَ تُوْدَ فِي  
غَايَةِ الدَّهْشَةِ وَالْغَضَبِ مِنْ قَرَارِهِمَا الْمَفَاجِئِ . يَبْدُو أَنَّ ، عِنْدَمَا  
وَصَلْتُ إِلَى الْكُوخِ لَيْلَةَ أَمْسٍ ، شَعَرْتُ عَلَى نَحْوِ مُفَاجِئٍ بِدَوَارٍ ،  
وَأَنَّ كَانَ السَّبَبُ سِرًّا لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ . وَكَانَتْ الزَّائِرَةُ الْوَحِيدَةُ هِيَ  
خَادِمَتُنَا الَّتِي سَبَقَ أَنْ قُلْتُ لَكَ عَنْهَا إِنَّهَا إِحْدَى ابْنَتِي السَيِّدِ تُوْدَ ،  
وَأَخَذْتُ أَنْ إِلَى الْفِرَاشِ ، وَظَلَّتِ السَيِّدَةُ كَلِيمَنْتِسُ تَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا  
وَقَفْنَا طَوِيلًا ، وَفِي سَاعَةٍ مُبَكَّرَةٍ مِنْ هَذَا الصَّبَاحِ رَحَلْنَا .

« عَمَّ كَانَ يَدُورُ الْحَدِيثُ عِنْدَمَا شَعَرْتُ أَنَّ بِدَوَارٍ ؟ »

« لَا شَيْءَ غَيْرَ عَادِيٍّ . إِنَّهُمَا لَا يَسْتَطِيعَانِ تَذَكُّرَ شَيْءٍ غَيْرِ

عَادِيٍّ . »

قُلْتُ : « فَلَنْسَأَلَ الْخَادِمَةَ ؛ فَقَدْ تَكُونُ أَقْوَى ذَاكِرَةً . »

وَسَأَلْنَاهَا بِمُجَرَّدِ أَنْ عُدْنَا إِلَى الْبَيْتِ ، فَقَالَتْ : « لَقَدْ ذَكَرْتُ  
الزَّيَارَةَ الْقَادِمَةَ لِسِير بِيرسيغال غَلَايِدَ لِلْيَمِيرِيدِج . أَرْجُو أَلَّا أَكُونَ قَدْ  
ارْتَكَبْتُ خَطَأً . »

وَمَا إِنْ أَنْفَرَدْنَا ثَانِيَةً حَتَّى سَأَلْتُ الْآنِسَةَ هَالْكُومَ : « أَلَا يَزَالُ  
يُسَاوِرُكَ أَيُّ شَيْءٍ الْآنَ ؟ »



عَلِمْتُ الْآنِسَةَ لُورَا أَنْ تَرُسُمَهَا قَدْ ذَبَلْتُ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الْأَشْجَارِ ،  
وَلَكِنْ أَوْرَاقُهَا كَانَتْ تَتَسَاقَطُ حَوْلِي مِنْ أَغْصَانِهَا ، وَاسْتَحَالَ  
الْعُشْبُ الَّذِي كُنْتُ أَرْسُمُهُ لَهَا إِلَى بَرَكَةٍ مِنَ الْمِيَاهِ . لَمْ يَعِدِ الْمُنْظَرُ  
الَّذِي تَذَكَّرْتُهُ كَمَا كَانَ . لَقَدْ ذَهَبَ ضِيَاءُ وَجُودِهَا وَضِيَاءُ الصَّيْفِ  
مَعًا .

## الفصل السادس

وَفِي أَثْنَاءِ عَوْدَتِي إِلَى الْبَيْتِ ، قَابَلْتُ السَّيِّدَ غِيلْمُورَ الَّذِي طَلَبَ  
أَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيَّ . قَالَ إِنَّ الْآنِسَةَ هَالِكُومَ قَدْ أَخْبَرَتْهُ عَنْ مَوْضُوعِ  
الرِّسَالَةِ الْبَغِيضِ ، وَإِنَّ التَّصَرُّفَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضُوعِ سَيَتَرَكُ كُلَّهُ فِي  
يَدَيْهِ .

وَاسْتَطَرَدَ قَائِلًا : « سَأَرْسِلُ نُسْخَةً مِنَ الْخِطَابِ إِلَى مُحَامِي سِير  
بِيرسيغال فِي لَنْدَنَ ، وَسَأَحْتَفِظُ بِالْخِطَابِ الْأَصْلِيِّ هُنَا ؛ لِأَنِّي لَسِير  
بِيرسيغال حَالِ وَصُولِهِ إِلَيْنَا . كَمَا أُرْسَلْتُ خَادِمًا فِي إِثْرِ الْمَرَاتَيْنِ فِي  
مُحَاوَلَةٍ لِلْعُثُورِ عَلَيْهِمَا . هَذَا كُلُّ مَا يُمَكِّنُنَا عَمَلَهُ حَتَّى يَأْتِيَ سِير  
بِيرسيغال يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ . وَلَا شَكَّ عِنْدِي أَنَّهُ سَيُوضِّحُ لَنَا كُلُّ مَا يُمَكِّنُ  
تَوَقُّعَهُ مِنْ رَجُلٍ شَرِيفٍ مِثْلِهِ . »

قُلْتُ : « يُؤَسِّفُنِي ، يَا سَيِّدَ غِيلْمُورَ ، أَنِّي لَا أَتَّفِقُ مَعَكَ فِي هَذَا  
الْمَوْضُوعِ . »

« هَذَا طَبِيعِي ، يَا عَزِيزِي ، فَأَنَا رَجُلٌ عَجُوزٌ وَعَمَلِي ، وَأَنْتَ شَابٌّ

وَصَلْتُ إِلَى بَابِ الْبَيْتِ مَرْكَبَةً مِنَ الْمَحْطَةِ ، وَذَهَبْتُ الْآنِسَةَ  
هَالِكُومَ لِمُقَابَلَةِ سَيِّدِ عَجُوزِ هَبَطَ مِنَ الْمَرْكَبَةِ بِخُطَوَاتٍ نَشِطَةٍ . لَقَدْ  
كَانَ السَّيِّدُ غِيلْمُورَ .

كَانَ يَخْتَلِفُ تَمَامَ الْاِخْتِلَافِ عَنِ الْمُحَامِي الْقَدِيمِ الْمَأْلُوفِ . كَانَ  
ذَا وَجْهِ أَحْمَرَ ، وَشَعْرٌ أَيْضٌ مُمَشَّطٌ بِعِنَايَةٍ . وَكَانَ زِيَّةُ الْأَنِيقِ  
وَأَسْلُوبُهُ اللَّطِيفُ يُسَبِّغَانِ عَلَيْهِ رُوحَ الرَّجُلِ الْعَصْرِيِّ الْمُهَذَّبِ . وَكَانَ  
يَتَمَيَّزُ بِقُدْرَاتٍ وَسُرْعَةٍ بِدِيهِ رَجُلٍ يُسَاعِدُهُ عَمَلُهُ عَلَى الْحِفَاطِ  
عَلَيْهَا . لَقَدْ كَانَ رَجُلًا ذَا شَيْخُوخَةٍ مَرَحَةٍ تَحْطِي بِاحْتِرَامٍ كَبِيرٍ .

وَبَعْدَ أَنْ قُدِّمْتُ إِلَيْهِ ، ذَهَبْتُ بِمُقَرَّدِي فِي جَوْلَةٍ أُخِيرَةٍ لِدَوَاعِ  
الْمَشَاهِدِ الْمُرْتَبِطَةِ بِحُلُمِ سَعَادَتِي وَحُبِّي الْقَصِيرِ - ذَهَبْتُ إِلَى حَدِيقَةِ  
الْوَرْدِ ، وَلَكِنْ الشِّتَاءُ كَانَ قَدْ هَاجَمَهَا ، وَكَانَتْ الْأَزْهَارُ الَّتِي



وَعَاطِفِي . إِنَّ غَدًا لِنَظَرِهِ قَرِيبٌ .

وَتَوَقَّفْنَا عَنِ الْحَدِيثِ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، وَرَحْنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ أَشْيَاءَ أُخْرَى حَتَّى افْتَرَقْنَا . كَانَتْ هَذِهِ آخِرَ لَيْلَةٍ لِي فِي لِيْمِيرِيدَجْ هَاوَسَ ، وَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَحَدَّثْتُ مَعَ الْآنِسَةِ فِيرْلِي طِيلَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ . وَعِنْدَمَا دَخَلْتُ حَجْرَةَ الاسْتِقْبَالِ قَبْلَ الْعِشَاءِ ، رَأَيْتُ أَنَّهَا بَذَلَتْ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهَا لِإِعَادَةِ الْأَيَّامِ الْحُلُوءِ الْمَاضِيَةِ - تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي مَا كَانَتْ لَتَعُودَ ثَانِيَةً . كَانَتْ تَلْبَسُ الثَّوْبَ الَّذِي كُنْتُ أَعْشَقُهُ ، وَتَقَدِّمْتُ نَحْوِي بِتَرْحَابِهَا الْمَعْهُودِ لِتُعْطِيَنِي يَدَهَا بِنَفْسِ بَرَاءَتِهَا الْخَالِصَةِ فِي الْأَوْقَاتِ السَّعِيدَةِ الْمَاضِيَةِ . وَمَضَى الْعِشَاءُ بِرَفْقَةِ السَّيِّدِ غِيلْمُورِ عَلَى مَا يُرَامُ .

وَعِنْدَمَا فَرَعْنَا مِنَ الْعِشَاءِ ، جَاءَ الْخَادِمُ الَّذِي أَرْسَلَهُ السَّيِّدُ غِيلْمُورِ فِي إِثْرِ الْمَرَاتَيْنِ لِيُخْبِرَهُ أَنَّهُ لَمْ يُوقِفْ فِي مِهْمَتِهِ . لَقَدْ رَحَلْنَا إِلَى كَارَلَايِلِ بِالْقِطَارِ ، وَهُنَاكَ اخْتَفَيْنَا تَمَامًا . وَلَمْ يَنْزِعِ السَّيِّدُ غِيلْمُورِ ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى قَوْلِهِ إِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَصِلَ سِيرِ بِيرْسِيْشَالِ .

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَجْلِسُ بِجِوَارِ الْآنِسَةِ فِيرْلِي وَهِيَ تَعْرِفُ عَلَى الْبِيَانُو فِي قَاعَةِ الْجُلُوسِ ، سَمِعْتُهَا تَقُولُ فِي صَوْتٍ خَفِيفٍ : « يُوسِفُنِي جِدًّا رَحِيلُكَ . »

« سَأَتَذْكُرُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الرَّقِيقَةَ ، يَا آنِسَةُ فِيرْلِي ، إِلَى الْأَبَدِ ، بَعْدَ أَنْ يَأْتِيَ الْغَدُ وَيَمْضِي . »

قَالَتْ : « لَا تَتَكَلَّمْ عَنِ الْغَدِ . لِنَدْعِ الْمَوْسِيقَى تَتَحَدَّثُ اللَّيْلَةُ نِيَابَةً عَنَّا بِلُغَةٍ أَسْعَدَ مِنْ لُغَتِنَا . »

وَلَكِنْ أَصَابِعُهَا أَخْطَأَتِ الْعَرْفَ ، فَصَدَرَ عَنِ الْبِيَانُو لَحْنٌ نَشَازٌ فَتَوَقَّفَتْ عَنِ الْعَرْفِ . وَانْقَضَتْ بَقِيَّةُ الْأَمْسِيَةِ دُونَ كَلِمَةٍ أَوْ نَظْرَةٍ . وَعِنْدَمَا حَانَ الْوَقْتُ لِأَنْ تَنْصَرِفَ لَمْ أَجِدِ الثِّقَةَ فِي نَفْسِي لِإِكْمَالِ الْحَدِيثِ .

بَدَأْتُ أَقُولُ : « سَأَرْحَلُ فِي الصَّبَاحِ . قَبْلَ أَنْ ... »

قَاطَعَتْنِي قَائِلَةً : « لَا ، لَا ، لَيْسَ قَبْلَ خُرُوجِي مِنْ عُرْفَتِي . سَأَنْزِلُ لِلْإِفْطَارِ . أَنَا لَنْ أَنْسَى الْأَشْهُرَ الثَّلَاثَةَ الْمَاضِيَةَ ... » وَخَانَهَا صَوْتُهَا ، وَقَبْلَ أَنْ أَتِمَّكَ مِنْ أَنْ أَحْيِيَهَا تَحِيَّةَ الْمَسَاءِ كَانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ .

وَجَاءَتِ النِّهَايَةُ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ لِمُجَابَهَتِي . جَاءَتْ عَلَى نَحْوِ لَا يُمَكِّنُ تَلَافِيهِ مِثْلَمَا جَاءَ ضَوْؤُ آخِرِ صَبَاحِ بِلِيْمِيرِيدَجْ هَاوَسَ .

وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ الْوَقْتَ لَمْ يَكُنْ يَعْدُو السَّابِعَةَ وَالنِّصْفَ ، فَقَدْ كَانُوا فِي انْتِظَارِي عَلَى مَائِدَةِ الْإِفْطَارِ . وَكَانَ إِفْطَارًا حَزِينًا مُقْبَضًا . وَنَهَضْتُ لِأَتَقَبَّلَ وَدَاعِي .



وَعِنْدَمَا تَلَقَّيْتُ كَفَّ الْآنِسَةِ هَالِكُومَ فِي كَفِّي ، غَادَرَتِ الْآنِسَةُ  
فِيرْلِي الْغُرْفَةَ . وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَنْتَظِرَ هُنَيْهَةً قَبْلَ أَنْ أُسْتَطِيعَ الْكَلَامَ .

قَالَتِ الْآنِسَةُ هَالِكُومَ : « خَيْرًا فَعَلْتَ » .

سَأَلْتُهَا : « أَسْتَكَتِبِينَ إِلَيَّ ؟ »

وَأَمْسَكَتْ بِي بِرَاحَتَيْهَا ، وَقَالَتْ : « أَنْتَ تَسْتَحِقُّ عَنْ جِدَارَةٍ كُلَّ  
شَيْءٍ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَهُ مِنْ أَجْلِكَ . سَأُخْبِرُكَ بِالنِّهَايَةِ . سَأُثِقُ بِكَ  
صَدِيقًا وَأَخًا » .

وَلَمَسْتُ جَبِينِي ، كَأَخْتٍ ، بِشَفَتَيْهَا قَائِلَةً : « أَنْتَظِرْ هُنَا ، يَا وَلْتَر  
، بَعْدَ خُرُوجِي » .

وَعَادَرَتِ الْحُجْرَةَ ، وَاتَّجَهَتْ بِحُزْنٍ نَحْوَ النَّافِذَةِ . وَمَضَتْ لِحُظَّةٍ  
ثُمَّ سَمِعَتْ الْبَابَ يَفْتَحُ بِرَفْقٍ . وَرَاحَ قَلْبِي يَدُقُّ بِعُنْفٍ ، وَاسْتَدْرْتُ  
لَأَرَى الْآنِسَةَ فِيرْلِي .

تَوَقَّفْتُ وَتَرَدَّدْتُ ، ثُمَّ بِمَزِيجٍ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْحَيَاءِ ، أَقْبَلْتُ نَحْوِي  
وَهِيَ تَحْمِلُ شَيْئًا بِجَانِبِ خَاصِرَتِهَا .

قَالَتْ : « دَهَبْتُ إِلَى الْغُرْفَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِلْبَحْثِ عَنْ هَذِهِ ؛ إِذْ ظَنَنْتُ  
أَنَّكَ قَدْ ... »



وَأَدَارَتْ وَجْهَهَا صَوْبَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ، وَقَدَّمَتْ لِي لَوْحَةً  
صَغِيرَةً بِرِيشَتِهَا هِيَ عَنِ الْبَيْتِ الصَّيْفِيِّ الَّذِي تَقَابَلْنَا فِيهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ .

كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَعْبِرَ عَنْ شُعُورِي ، فَلَمْ تَزِدْ إِيَّائِي عَلَى هَذِهِ  
الْكَلِمَاتِ : « لَنْ تُفَارِقَنِي طِيلَةَ حَيَاتِي . أَنَا فِي غَايَةِ الْإِثْمَانِ . كَمَا  
أَشْكُرُكَ كَثِيرًا عَلَى عَوْدَتِكَ لِوَدَاعِي » .

وَارْتَسَمَ شَحْخُ حُزْنِ الْوَدَاعِ فِي عَيْنَيْهَا الزُّرْقَاوَيْنِ الْحَانِئَتَيْنِ مِنْ خِلَالِ  
دُمُوعِهَا الْمُتَجَمِّعَةِ وَأَنَا أُمَدُّ يَدِي إِلَيْهَا .

« تَمْنِيَاتِي لَكَ ، يَا آنِسَةُ فِيرْلِي ، بِمُسْتَقْبَلٍ سَعِيدٍ » .



وَأَنهَمَرَّتِ الدُّمُوعُ عَلَى وَجْهَتَيْهَا ، وَتَسَاقَطَتْ عَلَى يَدَي .

« مِنْ فَضْلِكَ أَتْرَكْنِي . » قَالَتْهَا فِي وَهْنٍ وَعَلَى نَحْوِ تَفَجَّرَ فِيهِ سِرٌّ  
قَلْبُهَا . وَأَنْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ . وَبِنَظَرَةٍ وَدَاعٍ وَاحِدَةٍ ، أَغْلَقَتِ الْبَابَ  
وَرَاءَهَا ، وَغَدَتُ صُورَتُهَا ذِكْرَى مِنْ ذِكْرِيَاتِ الْمَاضِي .

## المحامي فينست غيلمور يواصل القصة الفصل السابع

اُكْتُبُ هَذِهِ الْأَسْطَرَّ بِنَاءً عَلَى طَلَبٍ مِنْ صَدِيقِي السَّيِّدِ وَلْتَرِ  
هَارْترايْت . إِنَّهَا تَكْشِفُ عَنْ أَحْدَاثٍ مُعَيَّنَةٍ وَقَعَتْ بَعْدَ مُغَادَرَتِهِ  
لِيمِيرِيدَجْ هَاوَس ، وَعَقِبَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي وَصَفَهَا بِنَفْسِهِ .

عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى الْبَيْتِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّانِي مِنْ نَوْفَمْبَرٍ ، قُدِّمْتُ  
إِلَى السَّيِّدِ هَارْترايْت الَّذِي أَحْبَبْتُهُ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا بِهِ مِنْ عَيُوبِ  
الشَّبَابِ ، وَلَمْ تَكُنِ الْآنِسَةُ فِيرْلِي ، لِلْأَسَفِ ، عَلَى مَا يُرَامُ . رَاحَتْ  
تَعْرِفُ لَنَا فِي الْمَسَاءِ وَقَدْ تَخَلَّتْ عَنْهَا مَهَارَتُهَا الْمَعْهُودَةُ .

وَرَحَلَ السَّيِّدُ هَارْترايْت يَوْمَ السَّبْتِ قَبْلَ أَنْ أَهْبِطَ إِلَى الطَّابِقِ  
الْأَرْضِيِّ لِتَتَنَاوَلَ طَعَامَ الْإِفْطَارِ ، وَاعْتَكَفَتِ الْآنِسَةُ فِيرْلِي فِي عُرْفَتِهَا  
طَوَالَ الْيَوْمِ . وَبَدَتِ الْآنِسَةُ هَالِكُومَ كَاسِفَةَ الْبَالِ مُغْتَمَةً . خَرَجْتُ  
لِلنَّزْهَةِ وَحْدِي ، وَلَكِنَّ الْمَنَاطِرَ الَّتِي رَأَيْتُهَا لَمْ تَكُنْ كَمَا أَلْفَتُهَا عِنْدَمَا



كُنْتُ أَقِيمُ بِلِيمِيرِيدَج مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَضَتْ . وَكَانَ الْبَيْتُ قَدْ تَغَيَّرَ  
هُوَ الْآخِرُ ، وَلَكِنِّي عِنْدَمَا رَأَيْتُ السَّيِّدَ فِيرْلِي عَصَرَ ذَلِكَ الْيَوْمَ ،  
كَانَ كَمَا تَخَيَّلْتُهُ تَمَامًا ؛ كَانَ الْعَمَلُ يَزْعِجُهُ . وَكُلُّ مَا اسْتَطَعْتُ  
أَنْ أَكْتَشِفَهُ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَبِرُ زَوْاجَ ابْنَةِ أَخِيهِ شَيْئًا مُقَرَّرًا ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ  
سَعِيدًا عِنْدَمَا يَنْتَهِي مَا يُسَبِّبُهُ لَهُ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ قَلَقٍ . وَقَالَ إِنَّهُ يَنْبَغِي  
عَلَيَّ أَنْ أُرْتَبَ كُلُّ شَيْءٍ بِنَفْسِي بِمُعَاوَنَةِ ابْنَةِ أَخِيهِ .

وَفِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ وَصَلَ سِير بِيرْسِيْفَال . كَانَ جَذَابًا وَلَكِنَّهُ كَانَ  
أَكْبَرَ سِنًا مِمَّا كُنْتُ أَتَوَقَّعُ . وَكُنْتُ أَنَا وَهُوَ عَلَى وِثَامٍ مَعًا . وَكَانَتْ  
مُعَامَلَتُهُ لِلْآنِسَةِ فِيرْلِي ، حَتَّى عِنْدَمَا كَانَ يَرَى انْصِرَافَهَا عَنْهُ ، رَقِيقَةً  
وَمُجَامِلَةً ؛ لِذَا كُنْتُ أَسْتَغْرِبُ عِنْدَمَا كُنْتُ أَرَى شُعُورَهَا بِالْقَلَقِ فِي  
وُجُودِهِ . وَكَانَتْ تَتْرَكَ الْغُرْفَةَ عِنْدَ أَوَّلِ فُرْصَةٍ تَسْنَحُ لَهَا . وَلَمْ يَذْكُرْ  
سِير بِيرْسِيْفَال أَمْرَ انْصِرَافِهَا لِلْآنِسَةِ هَالِكُومَ ، وَلَمْ أَلَا حِظٌ لَا فِي هَذَا  
الْوَقْتِ ، وَلَا فِي أَيِّ وَقْتٍ آخَرَ ، أَيُّ تَقْصِيرٍ فِي سُلُوكِهِ الطَّيِّبِ فِي  
لِيمِيرِيدَج هَاوَسَ .

وَمَا إِنْ تَرَكْتُنَا الْآنِسَةَ فِيرْلِي حَتَّى أَخْبَرَنَا أَنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى صُورَةِ  
الْخِطَابِ الْمُرْسَلِ إِلَى مُحَامِيهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَهْمُهُ أَنْ يَشْرَحَ لَنَا كُلَّ  
شَيْءٍ .

قَالَ لَنَا إِنَّ السَّيِّدَةَ كَاثِيرِيكَ كَانَتْ قَدْ قَامَتْ عَلَى خِدْمَتِهِ هُوَ

وَأَسْرَتِهِ بِكُلِّ تَفَانٍ وَإِخْلَاصٍ ، عَلَى نَحْوِ لَنْ يَنْسَاهُ أَبَدًا . وَكَانَ عَقْلُ  
ابْنَتِهَا مُشَوَّشًا دَائِمًا ، وَأَدْرَكَتِ الْأُمُّ وَجُوبَ وَضْعِهَا تَحْتَ رِعَايَةِ طَبِيبَةٍ  
مُنَاسِبَةٍ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ لِتَرْغَبَ فِي أَنْ تُرْسَلَ إِلَى مُسْتَشْفَى عَامٍ  
لِلْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ ؛ لِذَا فَقَدْ وَافَقَ عَلَى أَنْ يَتَكَفَّلَ بِدَفْعِ نَفَقَاتِ  
وَضْعِهَا فِي مُسْتَشْفَى خَاصٍّ لِلْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَلَكِنَّ الْفَتَاةَ  
اِكْتَشَفَتْ ، لِسُوءِ الْحِظِّ ، دَوْرَهُ فِي الْأَمْرِ ، فَبَدَأَتْ تَكْرَهُهُ . وَكَانَ  
الْخِطَابُ نَتِيجَةً هَذِهِ الْكَرَاهِيَةِ . وَقَدْ أَدَّى وَاجِبُهُ فِي مُحَاوَلَةِ الْعُثُورِ  
عَلَيْهَا بَعْدَ هُرُوبِهَا ، ثُمَّ أَبْدَى اسْتِعْدَادَهُ لِلْإِجَابَةِ عَنْ أَيِّ سُؤَالٍ نَوَدُّ أَنْ  
نَسْأَلَهُ .

وَتَقَبَّلْتُ أَقْوَالَهُ ، أَمَّا الْآنِسَةُ هَالِكُومَ فَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهَا التَّرَدُّدُ . وَلَمَّا  
رَأَى ذَلِكَ رَجَاها أَنْ تَكْتُبَ إِلَى السَّيِّدَةِ كَاثِيرِيكَ وَتَسْأَلَهَا إِنْ كَانَ  
مَا قَالَهُ هُوَ الصَّدَقُ أَمْ لَا . وَبَعْدَ مَزِيدٍ مِنَ التَّرَدُّدِ ، اسْتَجَابَتْ إِلَى  
رَجَائِهِ . وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَكْتُبُ الْخِطَابَ ، مَدَّ يَدَهُ لِكَلْبِ الْآنِسَةِ فِيرْلِي  
الصَّغِيرِ الَّذِي كَانَ يَرْقُدُ أَمَامَنَا عَلَى السَّجَادَةِ ، وَلَكِنَّ الْكَلْبَ ،  
كَأَمَثَالِهِ مِنَ الْكِلَابِ الْمُدْكَلَةِ ، رَاحَ يَنْبَحُ ، ثُمَّ جَرَى لِيَخْتَبِيءَ تَحْتَ  
أَحَدِ الْمَقَاعِدِ . وَدَهَشْتُ عِنْدَمَا لَاحِظْتُ أَنَّ سِير بِيرْسِيْفَالِ اسْتَشَارَ  
غَضَبًا ، وَطَلَبَ مِنَ الْآنِسَةِ هَالِكُومَ أَنْ تُخْبِرَ أَخْتَهُ بِمَا تَمَّ ، وَتَرَكْنَا  
لِيَذْهَبَ إِلَى حُجْرَتِهِ . وَفَهَمْتُ مِنْ حَدِيثِي مَعَ الْآنِسَةِ هَالِكُومَ ، بَعْدَ



انصرافه ، أنها كانت لا تزال في شك من هذا الأمر برُمته ، ولكننا  
قررنا ألا نتحدث عنه حتى يرد إلينا الرد على خطابها .

وجاء بريد الأربعاء بالرد التالي :

« سيدتي ، تلقيت خطابك الذي تسألين فيه إن كانت ابنتي آن  
قد وضعت تحت الرعاية الطبية بعلمي وموافقتي ، وعمّا إن كنت  
شاكراً لفضل سير بيرسيغال غلايد لدوره في هذا الشأن . ورداً على  
سؤاليك أقول : نعم . »

خادمتك المطيعة

جين آن كاثيريك

كان خطاباً مقتضباً وجافاً . لم يكن يشبه خطاباً من امرأة ،  
ولكنه كان يؤيد ، بوضوح ، كل ما قاله سير بيرسيغال . وتحدثت  
معى الأنسة هالكوم قبل الذهاب لإخبار أختها عن مضمون ذلك  
الرد ، كما أنبأتني أن سير بيرسيغال قد لاحظ تغيراً في أسلوب  
الآنسة فيرلي ، وأنه لم يكن يرغب في الضغط عليها للزواج منه إن  
لم تكن راغبة في ذلك ، وأن كل ما يطلبه منها أن تتذكر سلوكه  
منذ بداية الخطوبة ، ورغبات أبيها قبل وفاته ، فإذا أرادت ، بعد  
ذلك ، ألا ترتبط به ، فإنه سيضحى بنفسه ويتركها لشأنها .

قلت : « ما من رجل يستطيع أن يقول أكثر من ذلك . »

قالت : « لست متأكدة . تذكر شخصية لورا . إن طلبت إليها  
أن تتذكر ظروف خطوبتها فلن تنسى حبها لأبيها . إنها لم تحث  
قط بوعد واحد في حياتها . »

وشعرت ببعض الارتباك ، فسألتها : « قطعاً أنت لا تعنين أنه  
كان يعتمد على هاتين النقطتين عندما أوحى بهما ؟ هل تعتقدين  
أنه كان على يقين أنها لن تحث بوعدها ؟ »

أجابت : « لو أنني كنت أعتقد ذلك ؛ لما كنت لأبقى في  
رفقتي لحظة واحدة . »

ولم ترد على ذلك ، ولكنني شعرت من طريقتها أنها كانت  
تخفي شيئاً عني .

سمعت بعد ذلك أن الآنسة فيرلي طلبت إِمهالها حتى نهاية  
العام قبل تحديد موعد للزواج . كان هذا ، بلا ريب ، شيئاً مريحاً  
لها ، ولكنه كان أمراً عسيراً بالنسبة لي ؛ فقد كان عليّ أن أعود  
إلى لندن ، ولم يكن بمقدوري العودة إلى ليميريدج لمناقشة  
اتفاقية هبة الزواج في تاريخ لاحق ؛ لذا طلبت رؤية الآنسة فيرلي في  
صبيحة اليوم التالي ، وذهبت إلى غرفة جلوسها للتحدث معها في





ذَلِكَ الْمَوْضُوع . كَانَتْ الْمِسْكِينَةُ تَبْدُو فِي غَايَةِ الشُّحُوبِ وَالْحُزَنِ ،  
حَتَّى إِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحَدِّثَهَا عَلَى نَحْوِ جَادٍ ، بَلْ فَتَحْتُ بَابَ  
الْحَدِيثِ مَعَهَا بِتَذَكِيرِهَا بِوَقْتِ أَنْ كَانَتْ طِفْلَةً صَغِيرَةً وَكَانَتْ  
تَجْلِسُ عَلَى رُكْبَتَيَّ .

قُلْتُ لَهَا فِي تَوَدُّدٍ : « مِنْ أَحَدِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جِئْتُ إِلَيْكَ مِنْ  
أَجْلِهَا هُوَ أَنْ أُوَدِّعَكَ ، يَا عَزِيزَتِي . »

أَجَابَتْ : « يُؤَسِّفُنِي أَنَّكَ ذَاهِبٌ ! إِنَّ وُجُودَكَ بَيْنَنَا يَذْكُرُنِي بِالْأَيَّامِ  
السَّعِيدَةِ الْمَاضِيَةِ . »

وَمَضَيْتُ أَقُولُ : « أَنَا لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنِّي سَأَكُونُ قَادِرًا عَلَى  
الْعُودَةِ إِلَى هُنَا ، يَجِبُ أَنْ أَتَهَيَّزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ لِلْحَدِيثِ عَنْ زَوْاجِكَ  
الْمُرْتَقَبِ . »

كَانَتْ يَدُهَا تَعْبَثُ بِكَرَّاسَةِ رَسْمٍ ، وَلَكِنَّهَا ، حَالَ سَمَاعِهَا  
قَوْلِي ، سَحَبَتْهَا فَجَاءَتْ وَكَانَتْ قَدْ لَسَعَتْهَا ، وَبَدَتْ عَلَيْهَا أَمَارَاتُ  
عَصَبِيَّةٍ شَدِيدَةٍ .

وَاسْتَطَرَدْتُ أَقُولُ : « إِنْ كُنْتُ سَتَزَوِّجِينَ فَيَنْبَغِي عَلَيَّ أَنْ أَكُونُ  
مُسْتَعِدًّا لِكِتَابَةِ اتِّفَاقِيَةِ هِبَةِ زَوْاجِكَ . قَدْ تَكُونُ هَذِهِ هِيَ فُرْصَتِي  
الْوَحِيدَةَ لِسَمَاعِ رَعَبَاتِكَ ، وَيُسْتَحْسَنُ أَنْ أَثْبُتَكَ عَنْ وَضْعِكَ الْآنَ ،  
وَمَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَجْعَلِيهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . »

وَأَخَذْتُ أَشْرَحُ لَهَا كُلَّ شَيْءٍ عَنْ أَمْوَالِهَا ، وَهِيَ تَنْصِتُ إِلَيَّ  
بِانتِبَاهٍ طِيلَةَ الْوَقْتِ . وَعِنْدَمَا سَأَلْتُهَا إِنْ كَانَ ثَمَّةَ شَيْءٍ تُرِيدُ مِنِّي أَنْ  
أُدْبِرَهُ ، قَالَتْ : « لَا تَدْعُهُ يُفَرِّقُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَارِيَانِ ! أَوْ ، يَا سَيِّدُ  
غِيلْمُورَ ، أَرْجُو أَنْ تَشْتَرِطَ عَلَيْهِ أَنْ تَعِيشَ مَارِيَانُ مَعِي ! »

وَشَعَرْتُ بِالْأَسْفِ إِذْ وَجَدْتُ أَنَّهَا كَانَتْ تَخْشَى أَنْ تَنْفَصِلَ عَنِ  
الْمَاضِي . خَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُبَشِّرُ بِمُسْتَقْبَلٍ سَعِيدٍ . أَوْضَحْتُ لَهَا  
أَنَّ ذَلِكَ يُمْكِنُ تَرْتِيبُهُ دُونَ شَكٍّ ، وَلَكِنْ أَقْوَالُهَا كَانَتْ هِيَ الشَّيْءُ  
الَّذِي يُوْهِمُنَا مُنَاقَشَتَهُ . سَأَلْتُهَا : « إِنْ أَنْتِ كَتَبْتِ وَصِيَّةً ، فَلِمَنْ  
تَرْغَبِينَ أَنْ تَتْرَكِي أَمْوَالَكَ ؟ »



سَأَلَتْ : « أَيْمَكُنِّي أَنْ أَتْرَكَهَا لِمَارِيَان ، يَا سَيِّدُ غِيلْمُور ؟ »

أَجَبَتْ : « بِكُلِّ تَأَكِيدٍ ، وَلَكِنَّهُ مَبْلَغٌ كَبِيرٌ . أَتُرِيدِينَ أَنْ يَتَوَلَّى جَمِيعُهُ إِلَيْهَا ؟ »

« لَيْسَ كُلُّهُ . هُنَاكَ شَخْصٌ آخَرٌ إِلَى جَانِبِ مَارِيَان . »

وَتَوَقَّعَتْ وَقَدْ وَضَعَتْ أَصَابِعَ يَدِهَا فِي رَفْقٍ ، عَلَى كُرَّاسَةِ الرَّسْمِ ثُمَّ وَاصَلَتْ حَدِيثَهَا .

قَالَتْ : « ثَمَّةُ شَخْصٍ آخَرٍ قَدْ يُحِبُّ شَيْئًا صَغِيرًا مِنِّي إِنْ قُدِّرَ وَتَرَكَتُهُ ؛ فَلَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ضَيِّرٌ إِنْ أَنَا مِتُّ أَوَّلًا ... »

وَتَوَقَّعَتْ ثَانِيَةً ، وَأَخْفَتْ وَجْهَهَا فِي رَاحَتِهَا . وَنَسِيتُ السَّنَوَاتِ الَّتِي مَضَتْ ، وَنَقَلْتُ الْمَقْعَدَ بِالْقُرْبِ مِنْهَا ، وَأَزَحْتُ كَفَّيْهَا عَنْ وَجْهَهَا .

قُلْتُ : « لَا تَبْكِي ، يَا عَزِيزَتِي . » وَأَسْنَدْتُ رَأْسَهَا عَلَى كَتِفِي .

قَالَتْ : « مَعْدِرَةٌ . لَسْتُ عَلَى مَا يُرَامُ . إِنَّنِي كَثِيرًا مَا أَبْكِي دُونَ أَيِّ سَبَبٍ . إِنَّنِي بِخَيْرٍ الْآنَ . أَسْتَطِيعُ الْإِجَابَةَ عَنْ أَسْئَلَتِكَ . »

أَجَبْتُ : « لَا ، لَا ، يَا عَزِيزَتِي ، لِنَسِّ هَذَا الْمَوْضُوعِ ، وَلِنَتَكَلُّمِ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ . لَقَدْ قُلْتُ مَا يَكْفِي . » وَنَهَضْتُ سَرِيعًا وَاسْتَأْذَنْتُهَا فِي الْإِنْصِرَافِ .

لَمْ يَسْتَعْرِقْ حَدِيثُنَا كُلُّهُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ سَاعَةٍ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَمْ تُعْطِ أَيَّ تَفْسِيرٍ لِنُؤْسِهَا حَيَالَ فِكْرَةِ زَوَاجِهَا ، فَقَدْ كَسَبَتْني إِلَى جَانِبِهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْأَمْرِ . كُنْتُ قَدْ جِئْتُ وَلَدَيْ شُعُورٍ بِأَنْ سِيرَ بِيرْسِفَالُ مِنْ حَقِّهِ ، وَبِدَرَجَةٍ مَعْقُولَةٍ ، أَنْ يَشْكُوَ مِنْ أَسْلُوبِ مُعَامَلَتِهَا لَهُ ، وَغَادَرْتُ الْبَيْتَ وَكُلِّي أَمَلٌ أَلَّا يَتِمَّ الزَّوْاجُ .

لَقَدْ دَهَشْتُ وَأَسِفْتُ عِنْدَمَا سَمِعْتُ ، حَالَ عَوْدَتِي إِلَى لُنْدَنِ ، أَنَّهَا سَتَتَزَوَّجُ فِي شَهْرِ دَيْسَمْبَرِ ، أَيَّ قَبْلَ حَوَالِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ عِيدِ مِيلَادِهَا الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ . أَمَّا السَّبَبُ فِي هَذَا الْقَرَارِ الْمَفَاجِئِ فَأَتَرَكُهُ لِلْآنَسَةِ هَالِكُومَ لِتَبَيَّانِهِ فِي مَكَانِهِ ، وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ أَكْفُفَ عَنِ الْكِتَابَةِ ، أَرَى أَنْ وَاجِبِي يُحْتَمُّ عَلَيَّ أَنْ أَشْرَحَ التَّفَاصِيلَ الْخَاصَّةَ بِشُئُونِ الْآنَسَةِ فِيرْلِي الْمَالِيَّةِ ، وَهَذَا مَا سَأَعْلَهُ الْآنَ .

كَانَ نَصِيبُهَا قِسْمَيْنِ : أَرْضٍ وَأَمْوَالٍ . أَوَّلًا : الْأَرْضُ ، وَكَانَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي حَوْزَةِ عَمَّتِهَا السَّيِّدِ فَرِيدْرِيك فِيرْلِي ، فَإِذَا تَوَفَّيَ دُونَ ابْنِ بَرْتِئِ ، فَإِنَّهَا تَتَمَتَّعُ بِمَدَى حَيَاتِهَا بِرِيعِهَا الْبَالِغِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ جَنِيهِ سَنَوِيًّا . وَإِذَا تَوَفَّيَتْ قَبْلَ زَوْجِهَا ، فَإِنَّهُ يَتَلَقَّى هَذَا الْمَبْلَغَ أَثْنَاءَ حَيَاتِهِ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى إِلَى ابْنِهَا - إِنْ كَانَ لَهَا ابْنٌ - بَعْدَ ذَلِكَ . إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ آيَةٌ مُشْكِلَةٍ بِهَذَا الصَّدَدِ .

عَلَى كُلِّ ، كَانَ مِنَ الْمَقَرَّرِ أَنْ تَتَلَقَّى الْآنَسَةُ فِيرْلِي بَعْضَ الْمَالِ



عند بلوغها الحادية والعشرين ، وهذا ما كان يجب ، حينذاك ،  
النظر فيه . كان هذا البند من جزأين : فموجب وصية أبيها تتلقى  
عشرين ألف جنيه ، بالإضافة إلى فوائد عشرة آلاف جنيه طيلة  
حياتها . وهذه العشرة آلاف لا يمكن أن تمسها ، ثم بعد وفاتها  
يؤول هذا المبلغ إلى عمتها اليانور - الأخت الوحيدة لأبيها .

وكان السيد فيليب فيرلي ينوي ، أصلاً ، أن يترك مبلغ العشرة  
آلاف جنيه لأخته مباشرة ، ولكن تلك السيدة أغضبتة بزواجها ببنييل  
إيطالي يدعى كونت فوسكو ، ومن ثم غير وصيته . وكانت الأنسة  
فيرلي قد توسلت إلى أبيها أن يلتزم بنيه الأولى وأن يترك هذا المبلغ  
مباشرة ، لعمتها ، ولكنه رفض طلبها . ولما كانت العمة تكبر  
الآنسة فيرلي بكثير ، ومن الأرجح أن تموت أولاً ، فلم يكن من  
المحتمل أن ترث هذا المبلغ ، لذا كان من الطبيعي أن تغضب من  
هذه المعاملة ، فكانت ترفض رؤية ابنه أخيها ، وما كانت لتصدق  
قط ، أن الآنسة فيرلي قد طلبت من أبيها أن يترك هذا المبلغ  
مباشرة لها . هكذا كان تاريخ العشرة آلاف جنيه . الفائدة تذهب  
إلى الآنسة فيرلي مدى حياتها ، ثم يؤول المبلغ كله لعمتها .

نأتي الآن إلى العشرين ألف جنيه - المشكلة الحقيقية . كان  
ذلك المبلغ سيؤول للآنسة فيرلي في عيد ميلادها الحادي والعشرين

وكان مصيره يتوقف على الترتيبات المدونة في هبة الزواج . وكانت  
ترتيباتي هي : أن تعطى فوائد المبلغ لليدي غلايد مدى حياتها ، ثم  
من بعدها ، لسير بيرسيغال مدى حياته ، ثم يؤول المبلغ كله  
لأبنايهما من الزواج ، فإن لم يكن هناك أبناء فإن ليدي غلايد  
تستطيع أن تفعل ما تشاء بمالها في الوصية ، تاركة إياه حسب  
رغبتها ، ربما للآنسة هالكوم أو لمعارف آخرين . كان ذلك يبدو  
لي تصرفاً عادلاً .

ولكن محامي الزوج ، السيد ميريمان ، اعترض على ذلك .  
كان يريد أن يؤول كل هذا المبلغ إلى سير بيرسيغال إن توفيت  
زوجته أولاً ؛ أي لا يذهب بنس واحد من العشرين ألف جنيه إلى  
الآنسة هالكوم ، أو لأي من أقرباء أو معارف ليدي غلايد . كان  
لا بد أن يذهب المبلغ كله إلى جيب سير بيرسيغال .

وتجادلت كثيراً مع السيد ميريمان حول هذا الاقتراح الغريب ،  
ولكن دون جدوى . وكتبت إلى السيد فيرلي ، ولكنه رفض أن  
يناقش الأمر لما قد يسببه له من إزعاج وإرهاق . ثم علمت أن سير  
بيرسيغال كان مثقلاً بالديون ، لذا فقد كان في حاجة ملحة إلى  
المال . وأظن أن هذا كان السبب في طلب محاميه في اتفاقية هبة  
الزواج .



وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَتَحَدَّثُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ - ذَاتَ يَوْمٍ - إِلَى  
السَّيِّدِ مِيرِيمَانَ ذَكَرَ رِسَالَةَ آن كاثيريك ، فَسَأَلْتُهُ إِنْ كَانَ قَدْ نَمَّ  
الْعُثُورُ عَلَيْهَا .

قَالَ : « لَيْسَ بَعْدُ . إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ رَجُلًا مَا يُخْفِيهَا عِنْدَهُ . إِنَّا  
نُرَاقِبُ ذَلِكَ الرَّجُلَ ، وَسَرَى مَا يَحْدُثُ . »

كُنْتُ فِي غَايَةِ الْاسْتِثْيَاءِ مِنْ خِطَابِ السَّيِّدِ فِيرْلِي حَوْلَ مَبْلَغِ  
الْعِشْرِينَ أَلْفَ جُنْيَةٍ ، فَكَانَ أَنْ ذَهَبْتُ لأَرَاهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُسْعِفْنِي  
إِطْلَاقًا . طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أُوَافِقَ عَلَى رَغَبَاتِ سِير بيرسيغال ، فَكَانَ  
عَلَيَّ ، فِي خَاتِمَةِ الْمَطَافِ ، أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ . وَلَكِنِّي حَدَرْتُهُ أَنَّهَا  
كَانَتْ غَلْطَةً شَنِيعَةً أَنْ يُحَرَّرَ اتِّفَاقٌ يُعْطِي الزَّوْجَ عِشْرِينَ أَلْفَ جُنْيَةٍ  
عِنْدَ وَفَاةِ زَوْجَتِهِ .

لَقَدْ أَتَمَمْتُ عَمَلِي ؛ إِذْ إِنَّ دَوْرِي فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ يَنْتَهِي عِنْدَ  
هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ . وَأَكْرَرُ بِكُلِّ جِدِّيَّةٍ وَأَسَى بَعْضَ كَلِمَاتِ قُلْتِهَا لِلْسَّيِّدِ  
فِيرْلِي : مِنَ الْمَحَالِ أَنْ أَزُوجَ ابْنَتَهُ لِي لِأَيِّ رَجُلٍ ، كَاتِنًا مَنْ كَانَ ،  
وَفَقْ هَذِهِ الْاِتِّفَاقِيَّةِ ، الَّتِي أَجِدُ نَفْسِي مُضْطَرًّا لِتَحْرِيرِهَا لِلُّورَا فِيرْلِي .

## ماريان هالكوم تُواصلُ القِصَّةَ الفصلُ الثَّامِنُ

إِنْ تَسْجِيلَ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي احْتَفَظْتُ بِهَا فِي مُفَكَّرَتِي يَسْمَحُ  
لِي بِسَرِّهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ .

لَقَدْ تَرَكْنَا السَّيِّدَ غِيلْمُورَ فِي صَبَاحِ الثَّامِنِ مِنْ نَوْفَمْبَرٍ ، وَهُوَ فِي  
غَايَةِ الْحُزْنِ وَالِدَّهْشَةِ ؛ حَتَّى إِنَّنِي خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ لُورَا قَدْ أَفْضَتْ  
إِلَيْهِ بِسَرِّهَا . وَأَذْهَلَنِي اكْتِشَافُ قُوَّةِ مَشَاعِرِهَا الْحَزِينَةِ . وَكَانَ عَلَيَّ  
أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ رِقَّةَ مَشَاعِرِ ذَلِكَ الْمَسْكِينِ هَارْتِرَايتَ مَعَ فَضِيلَةِ الشَّرَفِ  
عِنْدَهُ كَانَتَا - بِالذَّاتِ - الصِّفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَجَذِّبَانِهَا إِلَيْهِ . وَبَدَأْتُ  
أُخْشَى أَنْ يَكُونَ حُبُّهَا قَدْ اسْتَحُوذَ عَلَيْهَا عَلَى نَحْوِ دَائِمٍ ، وَأَنَّهُ  
سَيَغَيِّرُهَا طِيلَةَ حَيَاتِهَا . وَلَمْ أَكُنْ قَدْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، فَبَدَأْتُ  
أَشْكُ ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، فِي حُكْمِي عَلَى الْأُمُورِ .

وَوَجَدْتُهَا تَذَرُعُ الْعُرْقَةَ جِيئَةً وَذَهَابًا وَقَدْ اسْتَبَدَّ بِهَا الْقَلْقُ .



وَلَدَهْشَتِي قَرَّرْتُ أَنْ أَصَارَ سِير بِيرسيغال بِالْحَقِيقَةِ . إِنَّهَا لَنْ تُنَاشِدَهُ أَنْ يُطْلِقَ سَرَاحَهَا ، فَقَدْ تَمَّتْ خُطُوبُهَا بِوَاسِطَةِ أَبِيهَا ، وَلَكِنَّهَا لَنْ تَتَزَوَّجَهُ ، وَلَدَيْهَا سِرٌّ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ .

وَتَلَقَّيْتُ خِطَابًا مِنْ هَارْترايت يَقُولُ فِيهِ إِنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْعَوْدَةَ إِلَى سَابِقِ عَهْدِهِ أَوْ عَمَلِهِ ، وَيَسْأَلُنِي إِنْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْتُخْدِمَ نُفُوزِي لِلْحُصُولِ لَهُ عَلَى عَمَلٍ بِالْخَارِجِ . كَمَا أَثَارَ مَخَافِي أَيْضًا بِقَوْلِهِ إِنَّهُ كَانَ مُرَاقِبًا دَائِمًا مِنْ قَبْلِ رِجَالِ أَغْرَابٍ مُنْذُ عَوْدَتِهِ إِلَى لَنْدَنَ . كَانَ يَبْدُو أَنَّ فِكْرَتَهُ الْمُرَكَّزَةَ عَلَى لُورَا قَدْ أَثَرَتْ عَلَى حَالَتِهِ النَّفْسِيَّةِ ، فَقَرَّرْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى بَعْضِ أَصْدِقَاءِ لَأْمِي مِنْ دَوِي النُّفُوزِ فِي لَنْدَنَ ؛ أَسْأَلُهُمْ إِنْ كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ الْحُصُولَ لَهُ عَلَى الْوِظِيفَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا . وَكُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ تَغْيِيرَ الْمَكَانِ سَيُسَاعِدُهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ مِنْ حَيَاتِهِ .

وَطَلَبْتُ مِنْ لُورَا أَنْ أَكُونَ مُتَوَاجِدَةً حِينَ تُخْبِرُ سِير بِيرسيغال بِمَا كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَقُولَهُ . وَلَدَهْشَتِي كَانَتْ تَبْدُو هَادِئَةً تَنْمُ مَلَامِحُهَا عَنْ إِصْرَارِ عَيْنَيْهِ . وَتَبَدَّتْ قُوَّةٌ كَامِنَةٌ فِي شَخْصِيَّتِهَا لَمْ أَعْهَدْهَا فِيهَا مِنْ قَبْلُ . وَعِنْدَمَا وَصَلَ لِرُؤُوسِهَا لَاحَظْتُ خُطُوطًا سَطَرَهَا الْقَلْتُ عَلَى وَجْهِهِ ، كَمَا أَزْدَادَ السُّعَالُ الْجَافُ الَّذِي كَانَ يُزْعِجُهُ . وَسَادَتْ فِتْرَةٌ صَمَتْ قَبْلُ أَنْ تَقْطَعَهُ لُورَا .

قَالَتْ : « أَرِيدُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ ، يَا سِير بِيرسيغال ، فِي مَوْضِعٍ يُهِمُّنَا نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ . إِنْ أَخْتِي هُنَا لِأَنَّ وُجُودَهَا يَسَاعِدُنِي ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَوُجِدْ إِلَيَّ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّا سَأَقُولُ . »

وَأَخْنَى رَأْسَهُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْبَسُ بِنِتِ شَفَةِ .

وَمَضَتْ تَقُولُ : « لَقَدْ كُنْتُ كَرِيمًا مَعِي حِينَ قُلْتَ إِنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُونَ حُرَّةً طَلِيقَةً ، إِنْ شِئْتُ ، وَلَكِنِّي أَذْكَرُ أَنَّكَ طَلَبْتَ إِذَنْ وَالِدِي قَبْلَ أَنْ تُشَرِّفَنِي بِطَلْبِ يَدِي . إِنْ تَأَثَّرَ وَالِدِي جَعَلَنِي أَوَافِقُ عَلَى خُطُوبِنَا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ خَيْرَ صَدِيقٍ لِي . وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ ، لَمْ أَجِدْ مَوْضِعَ نَقْدٍ فِي سُلُوكِكَ . لَقَدْ كُنْتُ جَدِيرًا بِثِقَتِي ، وَلَمْ تُعْطِنِي أَيَّ عَذْرِ لِلْمُطَالَبَةِ بِإِعْفَائِي مِنَ الْخِطْبَةِ ، لِذَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَطَالِبَكَ بِذَلِكَ . إِنْ فَسَخَ خُطُوبِنَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِمَحْضِ رَغْبَتِكَ أَنْتَ ، وَبِمَحْضِ تَصَرُّفِكَ أَنْتَ ، يَا سِير بِيرسيغال ، وَلَيْسَ بِنَاءً عَلَى رَغْبَتِي أَوْ تَصَرُّفِي . »

سَأَلَهَا : « بِمَحْضِ تَصَرُّفِي ؟ أَيُّ سَبَبٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جَانِبِي ؟ »

وَسَمِعْتُ أَنْفَاسَهَا تَتَلَاخَقُ بِسُرْعَةٍ أَكْبَرَ ، وَلَكِنَّهَا اسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَهَا بِهَدْوٍ : « سَبَبٌ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ أَنْبِئَكَ بِهِ . لَقَدْ حَدَّثَ لِي تَغْيِيرُ خُطْبَتِي . »



وَأَعْتَرَى وَجْهَهُ شُحُوبٌ ، بَلْ وَهَرَبَ الدَّمُ مِنْ شَفْتَيْهِ أَيْضًا ، وَسَأَلَ  
فِي صَوْتٍ أَجَشٍّ : « أَيُّ تَغْيِيرٍ تَعْنِينَ ؟ »

وَتَنَهَّدَتْ بِصُعُوبَةٍ ثُمَّ قَالَتْ : « الْحُبُّ الَّذِي كَانَ عِنْدِي لَأَمْنَحَكَ  
إِيَّاهُ ، إِنْ كُنْتَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَظْفَرَ بِهِ ، عِنْدَمَا بَدَأَتْ خُطُوبَتُنَا ، لَمْ  
يَعُدْ كَذَلِكَ الْآنَ . »

وَتَجَمَّعَتْ بِضَعُ دُمُوعٍ فِي مُفْلَتَيْهَا وَهِيَ تَنْتَظِرُ رَدَّهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ  
يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ جَلَسَ سَاكِئًا تَمَامًا .

قُلْتُ : « أَلَيْسَ لَدَيْكَ مَا تَقُولُهُ ، يَا سِير بيرسيغال ؟ »

وَلَكِنْ لُورَا مَضَتْ تَقُولُ : « إِنْ تَرَكَتْنِي ، يَا سِير بيرسيغال ، بَعْدَ  
مَا سَمِعْتَهُ الْآنَ ، فَلَنْ أَتَزَوَّجَ رَجُلًا آخَرَ . لَمْ تَدُرْ كَلِمَةً وَاحِدَةً بَيْنِي  
وَبَيْنَ مَنْ أَتَحَدَّثُ عَنْهُ بِهَذَا الشَّأْنِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ نَتَقَابَلَ فِي  
هَذَا الْعَالَمِ ثَانِيَةً . لَقَدْ صَارَحْتُكَ بِالْحَقِيقَةِ الَّتِي أَعْتَقِدُ أَنَّ زَوْجِي  
الْمُرْتَقِبَ لَهُ الْحَقُّ فِي أَنْ يَسْمَعَهَا . أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي ، وَأَنْ  
تَحْفَظَ سِرِّي . أَظُنُّ أَنَّي قُلْتُ مَا يَكْفِي لِيَسْمَحَ لَكَ بِفَسْخِ خِطْبَتِنَا . »

أَجَابَ : « بَلْ لَقَدْ قُلْتُ مَا يَكْفِي لِجَعْلِهَا أَعَزَّ أَمْنِيَّةٍ فِي حَيَاتِي -  
أَمْنِيَّةٍ أَتَمَسَّكَ بِهَا . »

وَأَفْلَتَتْ صَرْخَةً دَهْشَةٍ وَاهِنَةٍ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهَا ، وَلَكِنَّهُ اسْتَرْسَلَ

يَقُولُ : « أَنَا لَسْتُ مِنَ الْقَسْوَةِ بِحَيْثُ أَتَخَلَّى عَنْ وَاحِدَةٍ أَظْهَرَتْ أَنَّهَا  
مِنْ أَتْبَلِ النِّسَاءِ . »

قَالَتْ : « لَا ، بَلْ مِنْ أَتْعَسِ النِّسَاءِ ، مَا دَامَتْ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ  
تَمْنَحَ حُبَّهَا لِمَنْ يَتَزَوَّجُهَا . »

سَأَلَ : « أَلَنْ تَمْنَحَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ؟ »

« أَبَدًا . إِنْ تَزَوَّجْتَنِي فَسَأَكُونُ زَوْجَتَكَ الْوَفِيَّةَ الْمُخْلِصَةَ . أَمَا أَنْ  
أَكُونُ زَوْجَتَكَ الْمُحِبَّةَ ، فَلَا ! »

قَالَ : « إِنِّي أَقْبَلُ شَاكِرًا وَفَاءً وَإِخْلَاصًا . إِنْ أَقَلَّ مَا  
تَسْتَطِيعِينَ تَقْدِيمَهُ لِي هُوَ أَكْثَرُ مِمَّا أَمَلُ فِيهِ مِنْ آيَةِ امْرَأَةٍ أُخْرَى فِي  
الْعَالَمِ . »

وَلَبِثَتْ طَوِيلًا بَعْدَ انْصِرَافِهِ دُونَ حَرَكَ أَوْ كَلَامٍ ، ثُمَّ قَالَتْ :  
« إِنَّ لِحَيَاتِي الْجَدِيدَةِ ، يَا مَارِيَان ، وَاجِبَاتِهَا الْعَسِيرَةَ ، وَهَا هِيَ ذِي  
إِحْدَاهَا تَبْدَأُ الْيَوْمَ . »

وَأَوْدَعَتْ ، فِي أَحَدِ الْأَذْرَاجِ ، كُلَّ الصُّورِ وَالْأَقْلَامِ الَّتِي كَانَتْ  
تَذْكُرُهَا بِهَارْتَرَايْت ، ثُمَّ أَغْلَقَتْهُ وَأَعْطَتْنِي الْمِفْتَاحَ قَائِلَةً :

« إِنْ كَتَبْتَ إِلَيْهِ ، فَقُولِي لَهُ دَائِمًا إِنِّي بِخَيْرٍ ، وَلَا تَقُولِي أَبَدًا



إِنِّي تَعِيسَةٌ . لَا تَجْعَلِيهِ يَشْعُرُ بِالْأَسَى ، يَا مَارِيَان . وَإِذَا مِتُّ ، فَقُولِي لَهُ إِنِّي كُنْتُ أَحِبُّهُ .

وَانْفَجَرَتْ بَاكِئَةً ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَمْنَعَهَا . وَلَمْ تَتَطَرَّقْ ثَانِيَةً إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

وَعِنْدَمَا ذَهَبَ سِير بيرسيغال لرؤية السيد فيرلي ليرتب معه موعد الزواج ، طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَنْضِمَ إِلَيْهِمَا . واقترح السيد فيرلي أَنْ يَتِمَّ تَحْدِيدُ مَوْعِدِ الزَّوْاجِ حَسَبَ رَغْبَةِ سِير بيرسيغال ، وَلَكِنِّي اعْتَرَضْتُ بِشِدَّةٍ ، وَغَادَرْتُ الْحَجْرَةَ . بَيِّدَ أَنَّ لُورَا ، حِينَ أَخْبَرْتَهَا بِأَمْرِ مُنَاقَشَتِنَا ، مَا كَانَتْ لِتَسْمَعَ لِي أَنْ أَحَاوِلَ تَأْجِيلَ الزَّوْاجِ . لَقَدْ وَجَدْتُهَا ، فِي يَاسِيهَا ، مُصَمِّمَةً عَلَى رَأْيِهَا ، لِذَا فَقَدْ فَازَ سِير بيرسيغال بِبُغْيَتِهِ ، وَغَادَرَ الْبَيْتَ فِي عَجَلَةٍ رَجُلٍ سَعِيدٍ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُعِدَّ الْعِدَّةَ لِزَوَاجِهِ الْقَادِمِ .

وَتَلَقَّيْتُ خِطَابًا مِنْ أَحَدِ السَّادَةِ الَّذِينَ كَتَبْتُ لَهُمْ عَنْ وَلْتِر هَارْترايت يُلْغِنِي فِيهِ أَنَّهُ قَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُسَاعِدَنِي فِي هَذَا الْأَمْرِ ، وَأَنَّ هَارْترايت سَيَعْمَلُ ، فِي الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ ، فِي أَمْرِيكَا الْوُسْطَى مَعَ فَرِيقِ رِجَالٍ سَيَذْهَبُونَ إِلَى هُنَاكَ لِدِرَاسَةِ الْمَدِينِ الْأَثَرِيَّةِ فِي هَنْدُورَاس . كَمَا كَتَبَ إِلَيَّ وَلْتِر نَفْسَهُ . وَكُنْتُ أَمَلُّ أَنْ كِلَيْنَا يَفْعَلُ الصَّوَابَ ، فَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ يَبْدُو خَطِيرًا أَنْ يَتْرَكَ وَطَنَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ طِيلَةَ سِتَّةِ شَهُورٍ

أَوْ رُبَّمَا لِفَتْرَةٍ أَطْوَلِ .

وَأَخِيرًا حُدِّدَ مَوْعِدُ الزَّوْاجِ بِصِفَةِ نِهَائِيَّةٍ فِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ دَيْسَمْبَرِ . وَعِنْدَمَا سَمِعْتُ لُورَا بِذَلِكَ ، تَبَدَّدَ هُدُوءُهَا ، وَتَفَجَّرَتْ الدَّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهَا ، وَلَكِنُّهَا رَفَضَتْ أَنْ يَكُونَ لَهَا دَخْلٌ بِالتَّرْتِيبَاتِ الْجَارِيَةِ . وَقَطَعْتُ لَهَا وَعْدًا بِأَلَّا أَذْكَرُ ذَلِكَ الْمَوْعِدَ لِهَارْترايت إِنْ كَتَبْتُ إِلَيْهِ ، وَأَلَّا أَذْكَرُ لَهُ اسْمَهَا أَبَدًا . وَعَدْتُهَا بِذَلِكَ وَأَنَا حَزِينَةٌ مُغْتَمَّةٌ ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ حِيلَةٌ فِي الْأَمْرِ .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّالِي ، قَرَأْتُ خِطَابَ هَارْترايت مَرَّةً أُخْرَى ، وَتَسَاءَلْتُ إِنْ كُنْتُ عَلَى صَوَابٍ فِي إِخْفَاءِ أَمْرِ سَفَرِهِ لِلخَارِجِ عَنْ لُورَا ، وَمَعَ ذَلِكَ ، فَقَدْ قَرَّرْتُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَلُّ الْأَفْضَلُ ، فَالرَّحْلَةَ إِلَى أَمْرِيكَا الْوُسْطَى كَانَتْ مَعْرُوفَةً بِخُطُورِهَا ، وَلَكِنْ تَكُونُ لِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ آيَةً فَائِدَةٍ ، بَلْ إِنَّهَا سَتَزِيدُ مِنْ قَلْقِهَا . كَانَ أَمْرًا مُزْعَجًا لِي ، أَنْ أَعْرِفَ أَنَّ صَدِيقًا عَزِيزًا مُسَافِرًا بَعِيدًا إِلَى مَوَاطِنِ الْخَطَرِ ، فَمَا بِالْكَافِ بِوُقُوعِ هَذَا الْأَمْرِ عَلَيْهَا ؟ وَكَرَّرَ الْخِطَابُ شَكَّهُ فِي أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَتَّبَعُهُ فِي لَنْدُنْ ، بَلْ كَانَ هُنَاكَ رَجُلَانِ رَاحَا يُرَاقِبَانِهِ فِي لِيْفَرِبُولِ عِنْدَمَا اسْتَقْبَلَ الْبَاخِرَةَ ، كَمَا سَمِعَ اسْمَ أَنْ كَاثِيرِيكِ خَلْفَهُ وَسَطَ الرِّحَامِ . وَكَتَبَ يَقُولُ : « إِنْ سِرَّ أَنْ كَاثِيرِيكِ لَمْ يُمْكِنِ اكْتِشَافُهُ بَعْدَ ، إِنْ حَدَثَ وَعَثَرَتْ عَلَيْهَا ، فِي يَوْمٍ مِنْ الْأَيَّامِ ،



فَاعْتَنِمِي الْفُرْصَةَ ، يَا آنِسَةُ هَالِكُوم ، أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلْتِ .

كَانَتْ تِلْكَ هِيَ كَلِمَاتِهِ ، وَكَانَ الْخِطَابُ كُلُّهُ يُمَثِّلُ خُطُورَةً بِالْغَةِ إِنَّهُ هُوَ وَقَعَ فِي يَدِ أَحَدٍ غَيْرِي ؛ لِذَا فَقَدْ أَحْرَقْتَهُ .

وَبَدَأَ الْإِعْدَادَ لِلزَّوْاجِ ، وَلَكِنْ لُورَا لَمْ تَكُنْ لِتُبَالِي بِمَلَابِسِ زَفَافِهَا . كَمْ كَانَ سُلُوكُهَا سَيِّخْتَلِفُ لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ سَتَتَزَوَّجُ هَارْتَرَايتِ ! تَرَكْتُ كُلَّ التَّفَاصِيلِ لِلْخِيَاطَةِ وَلِي . وَاقْتَرَحَ سِيرِيرِيسِفَالُ أَنْ يَأْخُذَ زَوْجَتَهُ إِلَى رُومَا لِقَضَاءِ فَصْلِ الشِّتَاءِ ، ثُمَّ الْمَكُوثِ فِي إِيْطَالِيَا حَتَّى بَدَايَةِ الصَّيْفِ . وَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّي سَأَفْتَرِقُ عَنْهَا مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَعْتَقِدُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَشَاعِرِي أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْأَفْضَلُ ، فَقَدْ تَرَفَّعَ الْمُنَاطِرُ الْجَدِيدَةُ مِنْ حَالَتِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَأَنَّ الشِّتَاءَ الْإِيْطَالِيَّ سَيُنَاسِبُهَا أَكْثَرَ مِنْ مُنَآخِنَا الْإِنْجِلِيزِيِّ الْبَارِدِ . وَكُنْتُ أَخْشَى بَدَايَةَ حَيَاتِهَا الْجَدِيدَةِ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَطِيعُ الْكَلِمَاتُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا ، وَلَكِنْ كَانَ يَحْدُونِي مَزِيدٌ مِنَ الْأَمَلِ فِي التَّكْيِيفِ مَعَهَا إِنَّ هِيَ سَافَرَتْ إِلَى الْخَارِجِ أَكْثَرَ مِنْ إِقَامَتِهَا فِي لَنْدُنْ .

وَهَكَذَا حُسِمَ الْأَمْرُ . كَانَ يَوْمًا حَزِينًا عِنْدَمَا اضْطُرَرْتُ لِأَنْ أَقُولَ لَهَا إِنَّنَا سَنَفْتَرِقُ مُدَّةً طَوِيلَةً . وَاتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ أَطْلُبَ مِنْ سِيرِيرِيسِفَالِ الْإِذْنَ لِي بِالْإِقَامَةِ مَعَهُمَا بَعْدَ عَوْدَتِهِمَا إِلَى إِنْجِلْتِرَا . وَفَعَلًا ، فَعَلْتُ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَرَجِ ، لِذَا فَقَدْ فَرِحَتْ عِنْدَمَا شَدَّ عَلَى يَدَيَّ

بِحَرَارَةٍ قَائِلًا إِنَّنِي كُنْتُ الرَّفِيقَةَ الْمُثْلَى الَّتِي كَانَ يَرْغَبُ فِي صَدَاقَتِهَا ، بِكُلِّ إِخْلَاصٍ ، لِزَوْجَتِهِ . لَمْ أَكُنْ أَحِبُّهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَقْنَعُ نَفْسِي بِأَنَّهُ يَحْطِي بِالْكَثِيرِ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ .

وَمَضَى يَتَحَدَّثُ عَنْ أَسْفَارِهِمَا الْقَادِمَةِ فِي إِيْطَالِيَا . وَفِي مَعْرُضِ الْحَدِيثِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ هُوَ وَلُورَا قَدْ يُقَابِلَانِ هُنَاكَ صَدِيقَهُ الْعَزِيزَ كُونْتِ فُوسْكُو ، وَكَانَتْ الْكُونْتِيسَةُ فُوسْكُو ، عَمَّةُ لُورَا ، لَا تَزَالُ غَاضِبَةً ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَرِثِ الْعَشْرَةَ آلَافٍ جُنِيهِ بَعْدَ وَفَاةِ السَّيِّدِ فِيلِيْبِ فِيرْلِي . وَظَنَنْتُ أَنَّهُ إِنْ تَقَابَلْتُ الْاِثْنَتَانِ فِي إِيْطَالِيَا ، فَقَدْ يَنْتَهِي خِلَافُ الْأُسْرَةِ الْقَدِيمِ ، إِذَا مَا دَامَ سِيرِيرِيسِفَالُ وَالْكُونْتِ صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ ، فَإِنَّ زَوْجَتَيْهِمَا سَتَتَقَابِلَانِ مَعًا ، عَلَى الْأَقْلَى ، عَلَى نَحْوِ مُهْدَبٍ . وَكَانَتْ الْكُونْتِيسَةُ فُوسْكُو ، قَبْلَ زَوَاجِهَا ، مِنْ أَسْوَى النِّسَاءِ خُلُقًا ، وَلَكِنْ زَوَّجَهَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُعِيدَهَا إِلَى صَوَابِهَا ، لِذَا فَقَدْ كَانَ خَلِيقًا بِأَمْتِنَانِ الْأُسْرَةِ كُلِّهَا . وَلَمْ يَحْدُثْ أَنْ قَابَلْتُهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ أَتَقَدَّ ، ذَاتَ مَرَّةٍ ، حَيَاةَ سِيرِيرِيسِفَالِ فِي رُومَا ، فَبَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالرَّغْبَةِ فِي رُؤْيَتِهِ .

وَأَقْبَلَتْ الْأَيَّامُ السَّابِقَةَ عَلَى الزَّوْاجِ ، وَمَضَتْ فِي عَجَلَةٍ بَيْنَ حَزْمِ الْأَمْتَعَةِ وَهَرْجِ لَمْ يَقُمْ فِيهِ السَّيِّدُ فِيرْلِي بِأَيِّ دَوْرٍ عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ . وَصَارَ سِيرِيرِيسِفَالُ أَكْثَرَ قَلَقًا . كُنْتُ أَنَا وَلُورَا نَخْتَلِسُ النُّظَرَاتِ



وَبَحْنُ نُفْكُرَ فِي فِرَاقِنَا الْمُنْتَظَرِ ، وَسَاطِلُ أَدْكُرَ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ  
دَيْسَمِيرَ عَلَى أَنَّهُ أَتَعَسُ يَوْمَ فِي حَيَاتِي ، وَلَكِنْ مَاذَا سَأَقُولُ عَنْ الْأَيَّامِ  
التَّالِيَةِ ؟ وَقَبْلَتُهَا وَتَعَاهَدُنَا عَلَى أَلَا نَفْقَدَ شَجَاعَتَنَا .

وَتَزَوُّجًا ! وَسَافِرًا ! وَكِدْتُ أَفْقِدُ بَصْرِي مِنْ شِدَّةِ بَكَائِي .

## الفصل التاسع

لَمْ أَرِ لُورَا طِيلَةً سِتَّةَ شُهُورٍ ، وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنْ تَعُودَ هِيَ  
وَزَوْجُهَا إِلَى إِنْجَلْتِرَا فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ يُونِيهِ ، وَأَنْ يَذْهَبَا لِتَوْهُمَا إِلَى  
بَلَا كُووتر بَارَك - بَيْتِ سِيرِيرِيسِفَالِ الرِّيفِيِّ فِي هَامْبِشِير . وَلَمْ يَكُنْ  
يَرْغَبُ فِي أَنْ يَقْضِيَ أَيَّ وَقْتٍ فِي لَنْدَنَ لِكثَرَةِ النِّفَقَاتِ هُنَاكَ ؛ إِذْ  
كَلَّفَتْهُ أَسْفَارُهُ فِي إِيْطَالِيَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَتَوَقَّعُهُ .

وَفِي الْيَوْمِ السَّابِقِ لَوُصُولُهُمَا ذَهَبَتْ إِلَى بَلَا كُووتر بَارَك ،  
فَوَجَدَتْهُ يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنْ لِيْمِيرِيدِجْ هَاوس . كَانَ يَقُومُ عَلَى أَرْضٍ  
مُسْتَوِيَةٍ ، وَكَانَ مُحَاطًا بِأَعْدَادٍ كَبِيرَةٍ مِنْ أَشْجَارٍ تَضْرِبُ نِطَاقًا حَوْلَهُ  
فَيَبْدُو وَكَأَنَّهُ سِجْنٌ مُنْعَزَلٌ . وَكَانَتْ أَجْزَاءُ كَثِيرَةٍ مِنَ الْبَيْتِ قَدِيمَةً  
مُتَهَالِكَةً تَرَكَتْ نَهْبًا لِلْفِئْرَانِ وَالْغُبَارِ . وَكَانَتْ هُنَاكَ أَجْزَاءُ أُخْرَى  
بُنِيَتْ فِي تَارِيخٍ لَاحِقٍ ، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَخْدَمُ وَقْتِئَاكَ . كَانَ لِي  
حُجْرَةٌ نَوْمٍ صَغِيرَةٌ لَطِيفَةٌ وَعُرْفَةٌ جُلُوسٍ فِي نِهَآيَةِ الْمَمَرِّ فِي الطَّابَقِ



الأول ، وَكَانَ الخَدَمُ يُقِيمُونَ فِي بَعْضِ عُرُفٍ خَالِيَةٍ فِي الطَّابِقِ  
الثاني . أَمَّا كُلُّ عُرُفٍ المَعِيشَةِ فَكَانَتْ فِي الطَّابِقِ الأَرْضِيِّ . وَقَادَتْنِي  
مُدْبِرَةٌ مَنَزِلٍ وَدَوْدٌ إِلَى عُرْفَتِي ، حَيْثُ جَلَسْتُ أَفَكِّرُ فِي المَاضِي :  
فَكَّرْتُ فِي هَارْترايت ، وَكَانَ حِينَذَلِكَ فِي مَكَانٍ مَا فِي هُنْدوراس ،  
وَفَكَّرْتُ فِي آن كاثيريك والسَيِّدَةِ كليمنتس ، اللَّتَيْنِ لَمْ أَسْمَعْ عَنْهُمَا  
شَيْئًا ، وَفَكَّرْتُ أَيْضًا فِي السَّيِّدِ غيلمور ، صَدِيقِنَا الطَّيِّبِ الَّذِي كَانَ  
مَرِيضًا نَتِيجَةَ الإِرْهَاقِ فِي العَمَلِ ، وَيَقْضِي فِتْرَةَ اسْتِجْمَامٍ فِي  
أَلْمَانِيَا . أَمَّا السَّيِّدُ فِيرلي فَكَانَ ، بِالطَّبْعِ مَسْرُورًا لِتَخْلُصِهِ مِنَّا - نَحْنُ  
ابْنَتَي أَخِيهِ . كَانَ مِنْهُمَا كَمَا فِي ليميريدج فِي تَصْوِيرِ لَوْحَاتِهِ تَصَوِيرًا  
شَمْسِيًا ، وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِالأَسْفِ نَحْوَ المَصْوَرِينَ .

وَفَكَّرْتُ فِي لورا ؛ تُرَى أَمْ كَانَتْ أَسْعَدَ حَالًا عَمَّا كَانَتْ فِي  
أَيَّامِهَا الأَخِيرَةِ بِلِيميريدج ؟ أَمْ كَانَ سِير بيرسيغال يُعَامِلُهَا بِلُطْفٍ ؟  
وَكُنْتُ قَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْهَا هَذِهِ الأَسْئَلَةَ فِي خُطَابَاتِي ، وَلَكِنَّهَا لَمْ  
تُجِبْ عَلَيْهَا إِطْلَاقًا . لَمْ تَكْتُبْ عَنْ زَوْجِهَا إِلَّا وَكَأَنَّهَا تَكْتُبُ عَنْ  
صَدِيقٍ يُرَافِقُهَا فِي السَّفَرِ . لَمْ تَكْتُبْ لِي كَمَا يُفْتَرَضُ أَنْ تَكْتُبَ  
زَوْجَةً عَنْ زَوْجِهَا ، أَوْ بِمَعْنَى آخَرَ ، كَانَتْ لورا فِيرلي ، وَلَيْسَتْ  
لِيدي غلايد ، هِيَ الَّتِي تَكْتُبُ لِي .

وَكَانَتْ قَدْ قَابَلَتْ الكُونْتيسة فوسكو وَوَجَدَتْهَا قَدْ تَحَوَّلَتْ كَثِيرًا

نَحْوَ الأَفْضَلِ ؛ كَانَتْ أَكْثَرَ هُدُوءًا وَتَعَقُّلاً مِمَّا كَانَتْ . أَمَّا عَنْ  
الْكُونْتيسة نَفْسِهَا ، فَلَمْ تَقُلْ لِي شَيْئًا عَنْهُ حَتَّى أَكُونُ عَنْهُ فِكْرَتِي  
بِنَفْسِي عِنْدَمَا أَقَابِلُهُ ؛ إِذْ سَيَعُودُ هُوَ وَزَوْجَتُهُ مِنْ سَفَرِهِمَا مَعَ آلِ  
غلايد لِيُقِيمَا مَعَهُمَا فِي بلاكووتر بارك .

وَبَعْدَ أَنْ نِمْتُ لَيْلَتِي ، خَرَجْتُ كَيْ أَسْتَطْلِعَ المِنْطَقَةَ المُحِيطَةَ  
بِالْبَيْتِ . كَانَ هُنَاكَ - كَمَا تَوَقَّعْتُ - كَثِيرٌ مِنَ الأشْجَارِ ، تَمْتَدُّ  
وَرَاءَهَا رُقْعَةٌ فَسِيحَةٌ مِنْ أَرْضٍ خَلَاءٍ تُشْرِفُ عَلَى بُحِيرَةٍ بلاكووتر  
الَّتِي سُمِّيَ الْبَيْتُ بِاسْمِهَا . كَانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ ، فِيمَا مَضَى ،  
أَكْبَرُ مِمَّا عَلَيْهِ الآنَ . وَلَمْ تَكُنِ الأَرْضُ بِالقُرْبِ مِنْهُ سِوَى مُنْبَسَطٍ  
مِنَ الرَّمَالِ . وَوَرَاءَ مِيَاهِ البُحِيرَةِ السُّودَاءِ الضُّحْلَةِ كَانَتْ تَنْتَصِبُ  
أَشْجَارٌ أُخْرَى تَحْجُبُ مَا دُونَهَا مِنْ مَنَاطِرٍ . وَرَأَيْتُ حُطَامَ قَارِبٍ قَدِيمٍ  
وَعَدَدًا مِنَ الفِئْرَانِ تَجْرِي دَاخِلَةً فِي المِيَاهِ وَخَارِجَةً مِنْهَا . كَانَ مَنَظَرُ  
خَرَابٍ وَدَمَارٍ لَمْ تُسْهِمِ شَمْسُ الصَّيْفِ السَّاطِعَةُ فَوْقَهُ بِشَيْءٍ  
لِتَجْمِيلِهِ . وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ البُحِيرَةِ رَأَيْتُ كَوْخًا كَانَ يُسْتَخْدَمُ  
حَظِيرَةً لِلْقَوَارِبِ ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ ثَمَّةَ مُحَاوَلَةٍ لِتَحْوِيلِهِ إِلَى  
اسْتِرَاحَةٍ ؛ إِذْ كَانَ يَدَاخِلُهُ بَعْضُ مَقَاعِدَ وَمِنْضَدَّةٍ .

وَدَخَلْتُ حَظِيرَةَ القَوَارِبِ وَجَلَسْتُ ، وَلَكِنَّنِي شَعَرْتُ بِانْزِعَاجٍ  
حِينَ سَمِعْتُ صَوْتَ حَشْرَجَةٍ ، فَقَفَزْتُ مِنْ مَكَانِي ، ثُمَّ اسْتَجْمَعْتُ



شَجَاعَتِي ، وَنَظَرْتُ أَسْفَلَ الْمَقْعَدِ . وَهُنَاكَ وَجَدْتُ كَلْبًا صَغِيرًا كَانَ يُعَانِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ . كَانَ لِعَيْنَيْهِ ذَلِكَ الْمَظْهَرُ الْجَامِدُ الْمَأْلُوفُ لِعَيْنَيْ حَيَوَانٍ يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ ، وَكَانَتْ ثَمَّةٌ بَقَعَ مِنَ الدَّمَاءِ عَلَى جَنْبِهِ . حَمَلْتُهُ فِي الْحَالِ إِلَى الْبَيْتِ وَنَادَيْتُ إِحْدَى الْخَادِمَاتِ ، وَلَكِنَّ الْغَيَّةَ كَانَتْ عَدِيمَةً الْفَائِدَةِ . لَمْ تَقُلْ سِوَى أَنَّ بَاكْسْتِرَ الْحَارِسَ كَانَ يُطْلِقُ النَّارَ ، دَائِمًا ، عَلَى الْكِلَابِ الضَّالَّةِ كَمَا يَقْتَضِيهِ وَاجِبُهُ . وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا ، فِي عَصِيَّةٍ ، أَنْ تَسْتَدْعِيَ مُدَبِّرَةَ الْبَيْتِ . وَعِنْدَمَا جَاءَتْ قُمْنَا بِعَمَلٍ مَا اسْتَطَعْنَا لِهَذَا الْكَلْبِ الْمُسْكِينِ وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى ، فَقَدْ مَاتَ .

وَدَهَشْتُ عِنْدَمَا قَالَتْ مُدَبِّرَةُ الْبَيْتِ إِنَّهُ كَانَ كَلْبُ السَّيِّدَةِ كَاثِيرِيك ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ قَدْ جَاءَتْ إِلَى بِلَا كُووتر فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ ، لِسَمَاعِهَا أَنَّ ابْنَتَهَا قَدْ شُوهِدَتْ هُنَاكَ . وَتَذَكَّرْتُ خِطَابَ هَارْترايت الَّذِي جَاءَ فِيهِ « إِنَّ حَدَثَ وَعَثَرَتْ عَلَيْهَا ، فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، فَأَعْتَمِي الْفُرْصَةَ ، يَا آنِسَةُ هَالِكُوم ، أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلْتَ » . تُرَى أَوْ يُمْكِنُ أَنْ تَسْنَحَ لِي الْفُرْصَةَ ؟ أَوْ يُمْكِنُ مُقَابَلَتُهَا ؟ وَلَكِنَّ السَّيِّدَةَ كَاثِيرِيكَ كَانَتْ تَعِيشُ فِي وَلَمْنِجْهَام ، عَلَى بُعْدِ أَرْبَعِينَ كِيلُو مِترًا مِنْ بِلَا كُووتر بَارَك .

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ نَبَهْتَنِي أَصْوَاتُ عَجَلَاتٍ





مَرْكَبَةٍ إِلَى أَنَّ الْمَسَافِرَيْنِ قَدْ عَادَا ، فَذَهَبْتُ لِاسْتِقْبَالِهِمَا . كَيْفَ أَصِفُ مُقَابِلَتِي لِأَخْتِي بَعْدَ تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ ؟

وَجَدْتَهَا وَقَدْ تَغَيَّرَتْ . لَمْ تَكُنْ أَقْلَ جَمَالًا ، وَلَكِنَّهَا صَارَتْ أَكْثَرَ صَلَابَةً وَصَرَامَةً مِمَّا اعْتَادْتُهُ . وَلَى بَعْضُ هُدُوثِهَا وَرَقَّتِهَا . وَلَكِنِّي عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ ، شَعَرْتُ بِإِعْزَازٍ لَهَا أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى مِنْذُ فِرَاقِنَا الطَّوِيلِ .

كَانَتْ لَا تُحِبُّ مُنَاقَشَةَ حَيَاتِهَا الزَّوْجِيَّةِ تَمَامًا كَمَا كَانَتْ تَكْرَهُ الْكِتَابَةَ عَنْهَا . قَالَتْ : « مِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ تَتَجَنَّبَنِي ، وَنَحْنُ مَعًا ، أَيُّ ذِكْرِ لَهَا . سَنَكُونُ أَسْعَدَ حَالًا إِنْ تَقَبَّلْنَاها فِي صَمْتٍ وَلَمْ نُفَكِّرْ فِيهَا . وَلَكِنْ هَلْ تَكْتُبِينَ وَتَتَلَقَّيْنَ خِطَابَاتٍ كَثِيرَةً مُؤَخَّرًا ، يَا مَارِيَان ؟ هَلْ كَتَبَ إِلَيْكِ ؟ أَمْ هُوَ بِخَيْرٍ وَسَعِيدٍ ؟ »

مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَسْأَلَ هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ ، وَلَكِنْ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ كَامِلٍ تَمَامَ الْكَمَالِ . رَبُّمَا كُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسَ الْأَسْئَلَةِ ، لَوْ أَنَّي كُنْتُ مَكَانَهَا . كُلُّ مَا فَعَلْتُهُ هُوَ أَنَّي قُلْتُ لَهَا إِنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ إِلَيَّ مُؤَخَّرًا ، ثُمَّ حَوَّلْتُ مَجْرَى الْحَدِيثِ نَحْوَ أُمُورٍ أُخْرَى .

وَكَانَ حَدِيثُنَا يُحْزِنُنِي . كُنْتُ أَنَا وَهِيَ ، الْأَخْتَيْنِ اللَّتَيْنِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا سِرٌّ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَلَكِنْ هَا قَدْ قَامَ الْآنَ حَاجِرٌ بَيْنَنَا -

حَاجِرٌ أَقَامَهُ مَوْضُوعٌ مُحَرَّمٌ . وَتَأَكَّدْتُ مِنْ قُتُورِ الْمَشَاعِرِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا ، وَأَنَّهَا كَانَتْ وَلَا تَزَالُ تُفَكِّرُ فِي هَارْتِرَايْت . وَلَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْأَحْثِيَاظَاتِ ، كُنْتُ سَعِيدَةً لِاحْتِفَاطِهَا بِرَقَّتِهَا وَصَرَاحَتِهَا وَعُذُوبَتِهَا وَبَسَاطَتِهَا . كَانَتْ لَا تَزَالُ مَصْدَرٌ بِهَجَةٍ لِكُلِّ مَنْ يُقَابِلُهَا .

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِسِيرِ بِيرْسِيْقَالِ فَقَدْ بَدَأَ أَكْثَرَ نَحَافَةً ، وَازْدَادَ سَعَالَةً سَوْءًا . لَمْ يُظْهَرْ سُرُورًا بِالْغَا لِرُؤْيَايَ ، بَلْ تَقَبَّلَنِي ، مُجَرَّدَ تَقَبُّلٍ ، كَأَحَدِ أَنْاسِ بِلَا كُوْنِ بَارِك . كَانَ يُنْذِي فِي بَيْتِهِ رَعْبَةً شَدِيدَةً فِي النِّظَامِ وَالتَّنْسيقِ ، لَمْ أَلْحَظْهَا مِنْ قَبْلُ ، فَكَانَ يُرِيدُ كُلُّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ ، بَلْ وَكَانَ يُعِيدُ أَيَّ كِتَابٍ إِلَى الرَّفِّ إِنْ تَرَكَتُهُ عَلَى الْمِنْضَدَةِ . وَكَانَ يَسُبُّ الْخَدَمَ وَيَلْعَنُهُمْ إِنْ لَمْ يَجِدْ سَكِينًا وَقْتُ الْعِشَاءِ وَكَانَهُمْ قَدْ أَهَانُوهُ شَخْصِيًّا . كَانَ قَلِيلَ الْكَلَامِ قَلِقًا ، وَكَانَ يَدَّوْنَهُ يُعَانِي مُضَاقَاتٍ كَثِيرَةً تُثِيرُ غَضَبَهُ .

تَضَاقِقَ كَثِيرًا عِنْدَمَا أَخْبَرْتُهُ مُدِيرَةَ الْبَيْتِ أَنَّ رَجُلًا غَرِيبًا زَارَ الْبَيْتَ وَسَأَلَ مَتَى يَعُودُ صَاحِبُهُ . لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقُولَ مَنْ هُوَ ، فَثَارَتْ نَائِرَتُهُ ، وَإِنْ لَمْ نَعْرِفْ سَبَبَ غَضَبِهِ .

وَيَأْتِي الْكُونَتِ وَالْكُونَتِيسَةُ عَلَى قَائِمَةِ شَخْصِيَّاتِي ، وَسَأَصِفُ الْكُونَتِيسَةَ أَوَّلًا : لَمْ يَحْدُثْ فِي حَيَاتِي ، أَنْ رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا التَّغْيِيرِ فِي



امْرَأَةً مَا ! كَانَتْ قَبْلَ زَوَاجِهَا مَصْدَرُ إِزْعَاجٍ دَائِمٍ لغيرِها ، وَلَكِنْ هِيَ هِيَ الَّذِي الْآنَ تَجْلِسُ لِسَاعَاتٍ دُونَ أَنْ تَتَقَوَّهَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ . صَارَتْ تَلْبَسُ عَلَى نَحْوِ لَائِقٍ يُنَاسِبُ امْرَأَةً فِي الثَّالِثَةِ وَالْأَرْبَعِينَ ؛ مَلَاسٍ سَوْدَاءٍ أَوْ رَمَادِيَّةٍ هَادِئَةٍ كَتَلِكِ الَّتِي كَانَتْ تَسُخَّرُ مِنْهَا فِيمَا مَضَى . كَانَتْ مِنْهُمْ كَذَلِكَ دَائِمًا بِالحَيَاكَةِ أَوْ لَفٍ سَجَائِرِ الْكُونَتِ ، فَإِذَا فَرَعَتْ مِنْ عَمَلِهَا رَاحَتْ تَحْدَقُ إِلَى زَوْجِهَا وَوَجْهَهَا يَنْطِقُ بِتَعْبِيرٍ طَاعَةِ كَلْبٍ وَفِي . كَانَتْ هَادِئَةً وَرَزِينَةً ، وَكَانَ الْوَقْتُ الْوَحِيدُ الَّذِي تُبْدِي فِيهِ أَيَّ أَمَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى شَعُورٍ عَمِيقٍ هُوَ حِينَ كَانَ الْكُونَتِ يَتَحَدَّثُ إِلَى امْرَأَةٍ أُخْرَى بِاهْتِمَامٍ غَيْرِ عَادِيٍّ .

هَذَا الرَّجُلُ الْعَجِيبُ الَّذِي رَوَّضَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْغَيْبَةَ ، يَبْدُو وَكَانَهُ يَسْتَطِيعُ تَرْوِضَ أَيَّ شَيْءٍ . لَوْ أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ نَمْرَةً مُتَوَحِّشَةً لَا اسْتَطَاعَ تَرْوِضَهَا . كَانَ مُفْرَطَ الْبَدَانَةِ ، وَكَانَ يَبْدُو فِي بَدَانَتِهِ كَنَابِلْيُونِ بُونَابَرْتِ . كَانَ الشَّبَّهِ عَجِيبًا حَقًّا ، وَلَكِنْ عَيْنَيْهِ كَانَتَا لَهُمَا بَرِيقٌ صَارِمٌ صَافٍ ، كَانَ يَدْفَعُنِي إِلَى أَنْ أَنْعِمَ النَّظَرَ فِيهِمَا ، وَلَكِنِّي حِينَ كُنْتُ أَتَمَعَّنُهُمَا ، كُنْتُ أَشْعُرُ بِضَيْقٍ شَدِيدٍ . وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ يُنَازِلُ السَّيِّئِينَ ، إِلَّا أَنَّ غُضُوضَ وَجْهِهِ كَانَتْ أَقْلَ مِنْ الْغُضُوضِ بِوَجْهِهِ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ بَدَانَتِهِ وَسِنِّهِ ، كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي الْغُرْفَةِ فِي سَكُونٍ وَخَفَةِ امْرَأَةٍ نَشِيطَةٍ .

كَانَ مُهْدَبًا دَائِمًا فِي مُعَامَلَتِهِ لِلنِّسَاءِ ، وَكَانَ يَتَحَدَّثُ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ بِطَلَاقَةٍ . قَدْ يَنْطِقُ جُمْلَةً بِلَكْنَةٍ أُجْنِبِيَّةٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَنَاوَلَ قَطُّ تَعْبِيرًا إِنْجِلِيزِيًّا عَلَى نَحْوِ خَاطِئٍ فِي اخْتِيَارِ كَلِمَاتِهِ . وَكَانَ لِهَذَا الرَّجُلِ أَيْضًا وَلَعٌ شَدِيدٌ بِالْحَيَوَانَاتِ الْمُسْتَأْنَسَةِ . كَانَ قَدْ أَحْضَرَ مَعَهُ مَجْمُوعَةً مِنَ الطُّيُورِ وَالْفِئْرَانِ الْبَيْضَاءِ . وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُلَاعِبُهَا ، فَيَجْعَلُ الطُّيُورَ تَقِفُ عَلَى يَدِهِ وَتَغْنِي لَهُ ، وَكَانَتِ الْفِئْرَانُ مَحْبُوسَةً فِي قَفَصٍ مِنَ السَّلَكِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخْرِجُهَا لِتَرْحَفَ فَوْقَ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ جِسْمِهِ . لَمْ يَكُنْ يَرَى أَيَّ شَيْءٍ غَرِيبٍ فِي سُلُوكِهِ هَذَا ، وَمَا كَانَ لِيُخْجَلَ مِنْهُ إِطْلَاقًا .

دَخَلَ الْإِصْطِبَلُ صَبِيحَةَ يَوْمٍ وَصُولِهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ كَلْبٍ مُتَوَحِّشٍ كَانَ مُقَيَّدًا بِالسَّلَاسِلِ ، فَبَادَرَهُ رَجُلٌ يَقِفُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ قَائِلًا : « احْتَرِسْ مِنْ هَذَا الْكَلْبِ ، يَا سَيِّدِي ، فَهُوَ يُهَاجِمُ أَيَّ شَخْصٍ ! »

رَدَّ الْكُونَتِ فِي هُدُوءٍ : « إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّ الْكُلَّ يَخَافُونَ مِنْهُ . لِمَ لَا نَرَى إِنْ كَانَ سَيُهَاجِمُنِي ؟ »

وَوَضَعَ أَصَابِعَهُ ، مَرَّةً أُخْرَى ، عَلَى رَأْسِ الْكَلْبِ ، وَحَمَلَهُ إِلَى عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ بِإِحْتِقَارٍ وَوَجْهَهُ لَا يَبْعُدُ عَنْ أَنْفِ الْكَلْبِ بِأَكْثَرِ مِنْ بُوَصَةٍ وَاحِدَةٍ : « أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكِلَابُ الضَّخْمَةُ كُلُّكُمْ جُبْنَاءُ . أَنْتَ



تَقْتُلُ قِطْعَةً مِسْكِينَةً ، يَا جَبَانُ ! تُهَاجِمُ شَحَّادًا ، يَا جَبَانُ ! أَنْتَ تُبَاغِتُ  
أَيَّ مَخْلُوقٍ ضَعِيفٍ . تَسْتَطِيعُ أَنْ تُمَزَّقَ رَقَبَتِي الْآنَ ، يَا حَيَوَانُ !  
وَلَكِنَّكَ لَا تَجْرَأُ عَلَى مُجَرَّدِ النَّظَرِ فِي وَجْهِهِ ؛ لِأَنِّي لَسْتُ خَائِفًا  
مِنْكَ .

ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ يَضْحَكُ مِنْ ذُهُولِ الرِّجَالِ حَوْلَهُ . وَانْسَلَّ  
الْكَلْبُ إِلَى بَيْتِهِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَظْهَرَ الْكَوْنَتَ بَعْضَ الْغَضَبِ  
عِنْدَمَا لَاحَظَ أَنَّ الْكَلْبَ قَدْ تَسَبَّبَ فِي اتِّسَاخِ مَلَابِسِهِ ، إِذْ كَانَ  
مَوْلَعًا بِمَلَابِسِهِ الْفَاحِشَةِ .

كَانَ يُحَاوِلُ إِرْضَاءَ الْجَمِيعِ ؛ فَكَانَ يُقَدِّمُ الْأَزْهَارَ لِلُورَا ، وَيُقَدِّمُ  
الْبَعْضَ مِنْهَا لِزَوْجَتِهِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ . وَكَانَ يَنْحَنِي مُحِبًّا زَوْجَتَهُ  
وَيُنَادِيهَا بِمَلَاكِه . وَكَانَ يَتَحَدَّثُ إِلَيَّ بِاتِّزَانٍ وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ إِلَى  
رَجُلٍ ، إِذْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّنِي كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ أَعَامَلَ بِجِدِّيَّةٍ . لَقَدْ  
اسْتَطَاعَ أَنْ يَسُوسَنِي وَيَسُوسَ زَوْجَتَهُ وَلُورَا ، مِثْلَمَا كَانَ يَسُوسُ  
الْكَلْبَ الْمُتَوَحِّشَ ، وَكَمَا كَانَ يَسُوسُ سِير بِيرْسِيْفَال . فَإِذَا حَدَّثَ  
وَتَصَرَّفَ سِير بِيرْسِيْفَال نَحْوَهُ بِوَقَاحَةٍ ، لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ سِوَى أَنْ يَتَسَيَّم  
فِي هُدُوءٍ كَمَا يَتَسَيَّم أَبُ لَابْنٍ مُشَاغِبٍ .

لَقَدْ قُلْتُ الْكَثِيرَ عَنِ الْكَوْنَتِ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَتَحَوَّلَ الْآنَ إِلَى سَرْدِ  
الْأَحْدَاثِ : فَقَدْ زَارَنَا السَّيِّدُ مِيرِيْمَان لِرُؤْيَا سِير بِيرْسِيْفَال ، وَيَبْدُو أَنَّهُ

أَفْلَقَهُ أَعْصَابُهُ . وَاعْتَقَدْنَا جَمِيعًا أَنَّ شَيْئًا هَامًّا قَدْ حَدَّثَ ؛ إِذْ لَا يُعْقَلُ  
أَنْ يُسَافِرَ مُحَامٍ مِنْ لَنْدُنَ إِلَى هَامْبُشِيرِ دُونَ سَبَبٍ وَجِيهِ .

وَبَيْنَمَا كَانَ يَسْتَعِدُّ لِلرَّحِيلِ ، تَصَادَفَ أَنْ سَمِعْتُ بَعْضَ كَلِمَاتِ  
نَفْوِهِ بِهَا ؛ إِذْ قَالَ : « لَا تَقْلُقْ ، يَا سِير بِيرْسِيْفَال ! الْأَمْرُ كُلُّهُ يَتَوَقَّفُ  
عَلَى لَيْدِي غَلَايْد . عَلَيْهَا أَنْ تُوقَعَ بِاسْمِهَا فِي حُضُورِ شَاهِدَيْنِ . إِنْ  
تَمَّ هَذَا فِي غُضُونِ أُسْبُوعَيْنِ فَسَتَنْتَهِي الْمَشْكِلَةُ ، وَإِلَّا ... »

سَأَلَ سِير بِيرْسِيْفَال : « مَاذَا تَعْنِي بِقَوْلِكَ : « وَإِلَّا . » ؟ إِنْ كَانَ  
لَا بُدَّ مِنْ عَمَلِ هَذَا الشَّيْءِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ . أَعِدُّكَ  
بِذَلِكَ ، يَا مِيرِيْمَان . لَا يُمَكِّنُ الْحُصُولُ عَلَى الْمَالِ الْإِلَازِمِ إِلَّا بِهِذِهِ  
الطَّرِيقَةَ . »

أَجَابَهُ مُحَدِّثُهُ : « رَبَّمَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْصُلَ عَلَى قَرْضٍ لِمُدَّةِ ثَلَاثَةِ  
أَشْهُرٍ ، ثُمَّ تُسَدِّدَ الْمَبْلَغَ فِيمَا بَعْدُ . »

كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ ، وَلَكِنْ مَا سَمِعْتُهُ أَقْلَقَنِي ؛  
لَا بُدَّ أَنَّ شَيْئًا قَدْ حَدَّثَ . كَانَ يَبْدُو أَنَّهُ أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِالْمَالِ ، وَأَنَّهُ يَتَوَقَّفُ  
عَلَى لُورَا . وَذَهَبْتُ لِأَنِّيْهَا بِمَا سَمِعْتُهُ .

قَالَتْ : « كُنْتُ أَخْشَى ذَلِكَ حِينَ عَرَفْتُ أَنَّ رَجُلًا غَرِيْبًا زَارَنَا  
وَتَرَكَ اسْمَهُ . أَظُنُّ أَنَّ سِير بِيرْسِيْفَالَ مَدِينٌ لَهُ بِمَبْلَغٍ مَا . »



قُلْتُ : « لَا تُوقِعِي عَلَى شَيْءٍ ، يَا لُورَا ، دُونَ الْإِطْلَاعِ عَلَيْهِ . »

قَالَتْ : « بِالتَّأَكِيدِ ، يَا مَارِيَان ، لَنْ أَوْقَعَ عَلَى شَيْءٍ أَجْهَلُهُ . »

وَفِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ رَاحَ سِيرَ بِيرْسِيْفَالُ يُعَامِلُنَا جَمِيعًا بِرِقَّةٍ وَأَدَبٍ كَعَهْدِهِ قَبْلَ الزَّوْاجِ . كَانَ لَطِيفًا بِدَرَجَةٍ مُذْهِلَةٍ نَحْوَ زَوْجَتِهِ ، حَتَّى إِنْ كُنْتُ فَوْسِكُو نَفْسِهِ كَانَ دَهْشًا . مَاذَا كَانَ يَعْنِي ذَلِكَ ؟ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّي أَعْرِفُ السَّبَبَ وَكُنْتُ وَاثِقَةٌ أَنَّ الْكُونْتَ كَانَ يَعْرِفُهُ كَذَلِكَ ، فَقَدْ رَأَيْتُ سِيرَ بِيرْسِيْفَالٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لِنَيْلِ اسْتِحْسَانِهِ ، أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ .

## الفصل العاشر

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي لِمَحِّ الْكُونْتِ فِي حَظِيرَةِ الْقَوَارِبِ نُقْطَةً مِنَ الدَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَلَكِنِّي أَقْسَرُ سِرًّا وَجُودِهَا أَخْبَرْتُ الْجَمِيعَ عَنِ الْكَلْبِ الصَّغِيرِ الَّذِي وَجَدْتُهُ هُنَاكَ .

سَأَلَ سِيرَ بِيرْسِيْفَالُ : « كَلْبٌ مِنْ ؟ أَلَيْسَ كَلْبًا مِنْ كِلَاي ؟ »

وَكَانَتْ مُدَبِّرَةُ الْبَيْتِ قَدْ أَخْبَرْتَنِي أَنَّ السَّيِّدَةَ كَاتِيرِيكَ كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَحْتَفِظَ بَزِيَارَتِهَا لِلْبَيْتِ فِي طَيِّ الْكِتْمَانِ ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُ نَفْسِي مُضْطَّرَّةً إِلَى الْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِهِ .

قُلْتُ : « لَقَدْ أُنبَأْتَنِي مُدَبِّرَةُ الْبَيْتِ أَنَّهُ كَلْبُ السَّيِّدَةِ كَاتِيرِيكَ . »

وَتَقَدَّمَ نَحْوِي ، ثُمَّ وَقَفَ وَوَجْهَهُ يَكَادُ يُلَاصِقُ وَجْهِي ، وَسَأَلَ بِحِدَّةٍ : « كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ ؟ »

« لَقَدْ أَحْضَرَتِ السَّيِّدَةُ كَاتِيرِيكَ الْكَلْبَ مَعَهَا . »



« أَيْنَ ؟ »

« إِلَى هَذَا الْبَيْتِ . »

« مَاذَا كَانَتْ تُرِيدُ هَذِهِ الْمَلْعُونَةُ مِنْ هُنَا ؟ »

وَكَانَ هَذَا السُّؤَالُ مِنَ الْوَقَاحَةِ بِحَيْثُ إِنِّي ابْتَعَدْتُ عَنْهُ فِي صَمْتٍ . وَوَضَعَ الْكَوْنْتُ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ قَائِلًا : « يَا عَزِيزِي بِيرْسِيْفَال ، بِهَوَادَةَ ! بِهَوَادَةَ ! »

وَتَعَنِي سِير بِيرْسِيْفَال بِضَعِ خُطَوَاتٍ مُتَرَدِّدًا ، ثُمَّ - لِفِرْطٍ دَهْشَتِي - اعْتَذَرَ لِي قَائِلًا :

« مَعَذَرَةٌ ، يَا أُنْسَةُ هَالِكُوم ، أَنَا لَسْتُ عَلَى مَا يُرَامُ ! وَيُؤَسِّفُنِي أَنِّي أَفْقَدُ أَغْصَابِي سَرِيعًا . وَلَكِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَعْرِفَ مَاذَا كَانَتْ تُرِيدُهُ هُنَا . أَمْ كَانَتْ مُدَبِّرَةُ الْبَيْتِ هِيَ الْوَحِيدَةُ الَّتِي رَأَتْهَا ؟ »

أَجَبَتْ : « الْوَحِيدَةُ ، حَسْبَمَا أَعْلَمُ . »

قَالَ الْكَوْنْتُ : « إِذَا ، لِمَ لَا تَسْأَلُ مُدَبِّرَةَ الْبَيْتِ ؟ »

أَجَابَ سِير بِيرْسِيْفَال : « هَذَا صَحِيحٌ . بِالطَّبَعِ مُدَبِّرَةُ الْبَيْتِ هِيَ أَوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ . غِبَاءٌ كَبِيرٌ مِنِّي أَلَا أَفْطَنُ لِهَذَا ! » وَتَرَكْنَا فَوْرًا لِيَعُودَ إِلَى الْبَيْتِ .

وَسَرَّعَانَ مَا أَدْرَكْتُ لِمَ عَرَضَ الْكَوْنْتُ اقْتِرَاحَهُ هَذَا ، فَعِنْدَمَا انْصَرَفَ سِير بِيرْسِيْفَال سَأَلَنِي كَثِيرًا مِنَ الْأَسْئَلَةِ عَنِ السَّيِّدَةِ كَاثِيرِيك ، وَبَعْدَ عَشْرِ دَقَائِقَ كَانَ يَعْرِفُ عَنْهَا مِثْلَمَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ تَمَامًا . كَانَ يَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمِعَ عَنْهَا مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ شَيْئًا غَرِيبًا عِنْدَمَا لَدَّكُرْتُ أَنَّهُ كَانَ صَدِيقًا حَمِيمًا لِسِير بِيرْسِيْفَال . لَمْ يَكُنْ مَا دَفَعَهُ إِلَى تَوْجِيهِ كُلِّ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ فُضُولًا عَقِيمًا ، بَلْ كَانَ يَتَوَقَّعُ إِلَى مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ عَنْهَا .

كُنَّا نَمْشِي الْهُوَيْنَى نَحْوَ الْبَيْتِ أَثْنَاءَ حَدِيثِنَا . وَعِنْدَمَا بَلَغْنَاهُ وَجَدْنَا مَرْكَبَةً أَمَامَ الْبَابِ ، وَرَأَيْنَا سِير بِيرْسِيْفَال يَهْبِطُ مِنْهَا عَلَى عَجَلٍ ، وَهَادِرًا قَائِلًا : « آسِفٌ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ إِنِّي مُضْطَرٌّ لِفِرَاقِكُمْ ... مَسَافَةٌ طَوِيلَةٌ ... مَوْضُوعٌ يَتَحَتَّمُ عَلَيَّ أَنْ أَنْجِزَهُ فَوْرًا . سَأَعُودُ فِي سَاعَةٍ مُبَكَّرَةٍ مِنَ الْغَدِ . وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ أَوْدُ أَنْ أَنْهِيَ عَمَلِيَّةَ بَسِيطَةٍ . لُورَا ، أَسْمَحِينَ بِالْمَجِيءِ إِلَى الْمَكْتَبَةِ ؟ لَنْ يَسْتَغْرِقَ الْأَمْرُ دَقِيقَةً وَاحِدَةً . وَأَنْتِ ، يَا كُونْتِيْسَةُ ، أَسْمَحِينَ لِي بِأَنْ أَزْعَجَكَ ، أَيْضًا ! أُرِيدُكَ ، يَا فُوسْكَو ، أَنْتِ وَالْكَوْنْتِيْسَةُ لِلشَّهَادَةِ عَلَى تَوْقِيعِ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ هَيَّا ادْخُلُوا وَانْتَهُوا مِنْهُ . »

وَعِنْدَمَا دَخَلُوا الْمَكْتَبَةَ ظَلَلْتُ وَاقِفَةً فِي الْقَاعَةِ ، ثُمَّ صَعِدْتُ بِطُءٍ إِلَى حُجْرَتِي . وَلَكِنْ مَا إِنَّ وَضَعْتُ يَدِي عَلَى مِقْبَضِ الْبَابِ حَتَّى



سَمِعْتُ سِير بيرسيغال يُنادي مِنَ الطَّابِقِ الْأَرْضِيِّ .

قال : « هَلَا سَمَحْتَ بِالنُّزُولِ ، ثَانِيَةً يَا آنِسَةُ هَالِكُوم ؟ إِنَّهَا غَلَطَةٌ فَوْسَكُو ، وَلَيْسَتْ غَلَطَتِي . إِنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ زَوْجَتَهُ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ شَاهِدَةً إِنْ كَانَ هُوَ شَاهِدًا . »

وَدَخَلْتُ الْحُجْرَةَ وَتَقَدَّمَ الْكَوْنَتُ لاسْتِقْبَالِي .

قال : « الْقَانُونُ يَسْمَحُ لِزَوْجِ زَوْجَتِهِ أَنْ يَكُونَ شَاهِدِينَ مَعًا ، وَلَكِنْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَنْ يَذَرِي مَا قَدْ يَحْدُثُ ؟ يَنْبَغِي أَنْ يُمَثِّلَ الشَّاهِدَانِ رَأْيَيْنِ ، وَأَنَا وَزَوْجَتِي لَيْسَ لَنَا سِوَى رَأْيٍ وَاحِدٍ ، وَهَذَا الرَّأْيُ الْوَاحِدُ هُوَ رَأْيِي أَنَا ؛ لِذَا فَمِنْ الْمُسْتَحَبِّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَاهِدَانِ مُسْتَقِلَّانِ . »

كَانَ ثَمَّةُ شَيْءٍ فِي طَرِيقَةِ الْكَوْنَتِ يَدْفَعُنِي إِلَى الْامْتِنَاعِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِي آيَةٌ صِلَةٌ بِذَلِكَ التَّوْقِيعِ ، وَلَكِنْ لَمْ يُبَيِّنْ لِي فِي الْحُجْرَةِ سِوَى رَغْبَتِي فِي مُسَاعَدَةِ لُورَا بِكُلِّ طَرِيقَةٍ مُمَكِّنَةٍ .

وَفَتَحَ سِير بيرسيغال خِزانَةَ ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا وَرَقَةً مُسْتَطِيلَةً مَطْوِيَةً عَلَى نَحْوِ يَتَعَدَّرُ مَعَهُ رُؤْيَةً آيَةٍ كَلِمَةٍ مِنَ الْكِتَابَةِ عَلَيْهَا . وَكَانَ الْجُزْءُ الْأَسْفَلُ - وَهُوَ الْمَكَانُ الْخَالِي الْمَخْصَصُ لِلتَّوْقِيعِ - مَكْشُوفًا . وَغَمَسَ قَلَمًا فِي الْمِدَادِ وَنَاولَهُ لِزَوْجَتِهِ .

قال مُشِيرًا إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ : « وَقَعِي بِاسْمِكَ هُنَا . »

سَأَلْتُ بِهِدْوٍ : « عَلَامَ أَوْقَعُ ؟ »

أجاب : « لَا وَقْتُ لَدَيَّ لِلشَّرْحِ ؛ الْمَرْكَبَةُ مُنْتَظِرَةٌ بِالْبَابِ . لَا بُدَّ أَنْ أَذْهَبَ تَوًّا . وَحَتَّى إِذَا كَانَ لَدَيَّ وَقْتُ فَلَنْ تَفْهَمِي . هَيَّا ! هَيَّا ! وَقَعِي . »

« يَقِينًا لَا بُدَّ لِي أَنْ أَعْرِفَ مَاذَا أَوْقَعُهُ ، يَا سِير بيرسيغال . »

« هَرَاءَ . مَا شَأْنُ النِّسَاءِ بِهِذِهِ الْأَعْمَالِ ؟ أَكْرَرُ لَكَ ، كُنْ تَسْتَطِيعِي فَهَمَّهُ . »

« إِذَا ، دَعْنِي أَحَاوِلُ فَهَمَّهُ . »

« كَمْ تُرِيدِينَ تَأْخِيرِي أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؟ أَقُولُ لَكَ الْمَرْكَبَةُ بِالْبَابِ . هَلْ سَتَوْقَعِينَ أَمْ لَا ؟ »

وَرَفَعَ الْوَرَقَةَ ، وَدَقَّ الْمِنْضَدَّةَ بِجَمْعِ يَدِهِ قَائِلًا : « مَا عَلَيْكَ ، يَا آنِسَةُ هَالِكُوم ؛ مَا عَلَيْكَ ، يَا فَوْسَكُو ؛ تَكَلَّمِي . قُولِي إِنَّكَ لَا تَقْنِينِ بِي . »

حِينَئِذٍ وَضَعَ الْكَوْنَتُ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى كَتِفِ سِير بيرسيغال ، وَقَالَ : « عَلَى رِسْلِكَ ، يَا سِير بيرسيغال ! لِيَدِي غَلَايِدَ عَلَى حَقٍّ . »



صاح سير بيرسيغال : « على حق ! زَوْجَةٌ عَلَى حَقٍّ فِي الشُّكِّ  
فِي زَوْجِهَا ؟ »

لَمْ أَكُنْ قَدْ تَكَلَّمْتُ بَعْدُ . وَلَكِنْ لُورَا التَّفَتَتْ نَحْوِي بِوَجْهِهَا  
الْحَزِينِ .

قُلْتُ : « أَعْتَقِدُ أَنَّ اعْتِرَاضَ لُورَا اعْتِرَاضٌ فِي مَحَلِّهِ ، وَلَكِنْ أَقْبَلَ  
أَنْ أَكُونَ شَاهِدَةً مَا لَمْ تَفْهَمْ أَوَّلًا ، مَاذَا تُوقِعُهُ . »

صاح : « تَصْرِيحٌ عَظِيمٌ حَقًّا ! فِي الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ ، إِذَا دَعَوْتُ  
نَفْسَكَ إِلَى بَيْتِ أَحَدِهِمْ ، يَا آنِسَةُ هَالِكُوم ، فَلَا تُجَازِي كَرَمَهُ  
بِالْأَنْحِيَازِ إِلَى زَوْجَتِهِ ضِدَّهُ . »

وَنَهَضْتُ وَاقِفَةً وَكَأَنَّهُ قَدْ لَطَمَنِي . لَوْ أَنَّي كُنْتُ رَجُلًا لَطَرَحْتُهُ  
أَرْضًا وَتَرَكْتُ الْبَيْتَ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ ، وَلَكِنِّي مُجَرَّدُ امْرَأَةٍ . وَكُنْتُ  
أَحِبُّ زَوْجَتَهُ حُبًّا جَمًّا ، وَأَعَانِي حَتَّى لَهَا فَجَلَسْتُ دُونَ أَنْ أَلْفِظَ  
كَلِمَةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مُدْرِكَةً مَا كُنْتُ أَعَانِيهِ ؛ فَجَرَتْ  
نَحْوِي وَقَدْ طَفَرَتْ الدَّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهَا .

قَالَتْ : « آه ، يَا مَارِيَان ! لَوْ كَانَتْ أُمِّي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ لَمَا  
فَعَلْتُ أَكْثَرَ مِمَّا تَفْعَلِينَهُ مِنْ أَجْلِي . »

صاح سير بيرسيغال مِنَ الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ لِلْمُنْضَدَةِ : « هَيَّا ،  
وَقَعِي . »

هَمَسْتُ فِي أُذُنِي : « أَوْقَعُ ؟ سَأَفْعَلُ إِنْ طَلَبْتَ مِنِّي ذَلِكَ . »  
أَجَبْتُ : « لَا ، لَا تُوَقِّعِي عَلَى شَيْءٍ مَا لَمْ تَقْرَأِيهِ أَوَّلًا . »

وَقَاطَعَ الْكُونْتِ الَّذِي كَانَ يَرْقُبُنِي أَنَا وَلُورَا بِاهْتِمَامٍ صَامِتٍ  
قَائِلًا : « بِيرْسِيغَال ، أَعْلَمُ أَنَّي فِي حَضْرَةِ سَيِّدَاتٍ مُحْتَرَمَاتٍ . كُنْ  
لَطِيفًا ، مِنْ فَضْلِكَ ، وَتَذَكَّرْ ذَلِكَ أَيْضًا . »

وَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ سِير بِيرْسِيغَال فِي صَمْتٍ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ غِظًا ، وَلَكِنْ  
الْكُونْتِ كَرَّرَ قَوْلَهُ فِي هُدُوءٍ : « كُنْ لَطِيفًا ، وَتَذَكَّرْ ذَلِكَ جَيِّدًا . »

وَنَظَرَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ فِي صَمْتٍ ، وَحَوَّلَ سِير بِيرْسِيغَال نَظْرَهُ





عَنْ عَيْنِي الْكَوْنَت ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عَلَى نَحْوِ يَتَسَمَّ بِطَاعَةِ حَيَوَانِ  
مُسْتَأْنَسٍ اسْتَبَدَّ بِهِ الْغَضَبُ .

قَالَ : « أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَغْضِبَ أَحَدًا . لَقَدْ قُلْتُ لَهَا إِنَّهَا مُجَرَّدُ  
عَمَلِيَّةٍ بَسِيطَةٍ . أَسْأَلُكَ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ، يَا لَيْدِي غَلَايِد . هَلْ  
سَتُوقَعِينَ أَمْ لَا ؟ »

وَتَنَاوَلَتْ لُورَا الْقَلَمَ وَأَجَابَتْ قَائِلَةً : « سَأَوْقَعُ بِكُلِّ سُرُورٍ إِنْ  
تَكَرَّمْتَ بِإِخْبَارِي عَمَّا سَأَوْقَعُهُ . لَقَدْ أَصْغَيْتِ إِلَى الْكَوْنَتِ حِينَ  
اعْتَرَضَ عَلَى شَهَادَةِ زَوْجَتِهِ ، فَلِمَ تُعَامِلُ اعْتِرَاضَهُ بِاحْتِرَامٍ أَكْثَرَ مِنْ  
اعْتِرَاضِي ؟ لَا أُرِيدُ سِوَى أَنْ تَتَصَرَّفَ بِشَرَفٍ . »

« بِشَرَفٍ ؟ وَهَلْ تَصَرَّفْتَ بِشَرَفٍ عِنْدَمَا تَزَوَّجْتَنِي ؟ »

مَا إِنْ تَفَوَّهَ بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ حَتَّى أَلْقَتْ بِالْقَلَمِ ، وَأَدَارَتْ ظَهْرَهَا  
إِلَيْهِ فِي صَمْتٍ مُطْبِقٍ . لَمْ أَرْ مِنْ قَبْلُ نَظْرَةَ احْتِقَارٍ كَتِلْكَ الَّتِي  
ارْتَسَمَتْ فِي عَيْنَيْهَا ، وَقَدْ لَاحَظَهَا الْكَوْنَتُ هُوَ أَيْضًا .

سَمِعَتْهُ يَهْمِسُ فِي أُذُنِ سِير بِيرْسِيْفَال ، وَلُورَا تَتَجَّهُ نَحْوَ الْبَابِ :  
« يَا لَكَ مِنْ أَيْلَةٍ ! »

قَالَ زَوْجُهَا بِصَوْتٍ يَنْمُ عَنْ إِدْرَاكِهِ أَنَّهُ قَدْ ارْتَكَبَ خَطَأً كَبِيرًا :  
« إِذَا أَنْتِ تَرْفُضِينَ . »

أَجَابَتْ بِحَزْمٍ : « بَعْدَمَا قُلْتَهُ لِي الْآنَ ، أَرْفُضُ التَّوْقِيعَ مَا لَمْ  
أَقْرَأْ كُلَّ سَطْرِ فِي الْوَرَقَةِ مِنْ أَوَّلِ كَلِمَةٍ إِلَى آخِرِهَا . هَيَّا بِنَا ، يَا  
مَارِيَان . »

وَقَاطَعَ الْكَوْنَتِ الْحَدِيثَ مَرَّةً أُخْرَى قَائِلًا : « لَيْدِي غَلَايِد ، هَلْ  
نَسْمَحِينَ لِي بِتَقْدِيمِ اقْتِرَاحٍ بَسِيطٍ ؟ » وَالتَفَتَتْ بِحِدَّةٍ إِلَى سِير  
بِيرْسِيْفَالِ وَسَأَلَتْهُ : « هَلْ مِنَ الضَّرُورِيِّ جِدًّا أَنْ تُوقَعَ هَذِهِ الْوَرَقَةُ  
الْيَوْمَ ؟ أَمْ لَا يُمَكِّنُ إِرْجَاؤُهَا إِلَى الْغَدِ ؟ »

« بَلَى ، مَا دُمْتُمْ مُصَمِّمِينَ . »

« إِذَا فَلْنَدْعِ التَّوْقِيعَ يَنْتَظِرُ حَتَّى الْغَدِ ، عِنْدَمَا تَعُودُ . »

وَبَدَأَ سِير بِيرْسِيْفَالُ غَاضِبًا ، غَايَةَ الْغَضَبِ ، وَهُوَ يَقُولُ : « طَرِيقَةُ  
كَلَامِكَ لَا تُعْجِبُنِي . »

« إِنِّي أَتَكَلَّمُ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَتِكَ . أَعْطِ نَفْسَكَ مُهَلَّةً ، وَأَعْطِ  
لَيْدِي غَلَايِدَ مُهَلَّةً . أُنَسِّيتُ أَنَّ مَرْكَبَتَكَ بِالْبَابِ ؟ كَمْ مِنْ مَرَّةٍ  
أُسَدِّيتُ إِلَيْكَ النُّصْحَ ؟ هَلْ أَخْطَأْتُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ؟ اذْهَبْ  
وَدَعْ التَّوْقِيعَ يَنْتَظِرُ . »

وَتَرَدَّدَ سِير بِيرْسِيْفَالُ وَنَظَرَ إِلَى سَاعَتِهِ ، ثُمَّ نَهَضَ مِنْ مَقْعَدِهِ وَقَالَ :  
« مِنَ السَّهْلِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَكَلَّمُوا عِنْدَمَا لَا يَكُونُ لَدَيَّ وَقْتُ . »



سَاعَمَلُ بِمَشُورَتِكَ ، يَا فُوسَكُو ، لَا لِأَنْتِي أَعْتَقِدُ فِي صِحَّتِهَا ، بَلْ  
لِأَنْتِي لَا أَسْتَطِيعُ الْإِنْتِظَارَ هُنَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .

وَتَوَقَّفَ وَرَمَقَ زَوْجَتَهُ بِنَظَرَةٍ حَاقِدَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنْ لَمْ تُوقَّعِي غَدًا  
عِنْدَمَا أَعُودُ ... »

وَضَاعَتْ بَقِيَّةُ كَلِمَاتِهِ حِينَ انْشَى عَلَى الْخِزَانَةِ لِيُغْلِقَ دُرْجَهَا  
عَلَى الْوَرَقَةِ ، ثُمَّ تَنَاوَلَ قُبْعَتَهُ وَاتَّجَهَ نَحْوَ الْبَابِ . قَائِلًا لِزَوْجَتِهِ :  
« تَذَكَّرِي . غَدًا ! » ثُمَّ خَرَجَ .

وَعِنْدَمَا سَمِعْنَا صَوْتَ انْطِلَاقِ الْعَجَلَاتِ ، تَكَلَّمْتُ الْكَوْنَتَ قَائِلًا :  
« لَقَدْ رَأَيْتُمْ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ فِي أَسْوَأِ حَالَاتِهِ . وَبِصِفَتِي صَدِيقًا قَدِيمًا  
لَهُ ، فَإِنِّي آسِفٌ مِنْ أَجْلِهِ وَأَشْعُرُ بِالْخِزْيِ مِنْهُ . وَبِصِفَتِي صَدِيقًا  
قَدِيمًا لَهُ أَعِدُّكُمْ بِأَنْ سُلُوكَهُ سَيَتَحَسَّنُ غَدًا . »

كَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى لُورَا أَنْ تَسْمَعَ رَجُلًا يَعْتَدِرُ عَنْ سُلُوكِ  
زَوْجِهَا فِي بَيْتِهَا ، وَلَكِنِّي شَكَرْتُ الْكَوْنَتَ بِأَدَبٍ إِذْ شَعَرْتُ أَنَّي مَا  
كُنْتُ أَمَلُ فِي الْبَقَاءِ لَوْلَا مُسَاعَدَتُهُ . وَكَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ الْبَقَاءُ مِنْ  
أَجْلِ لُورَا ؛ فَلَمْ يَكُنْ سُلُوكُ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ نَحْوِي كَمَا كَانَ فِي  
لِيمِيرِيدَج . وَهَآنَذَا أَذْكُرُ أَنْ صَرَاحَتَهُ ، وَتَوَاضُعَهُ ، وَرَقَّتَهُ هُنَاكَ كَانَتْ  
أَحَابِيلَ رَجُلٍ شَرِيرٍ مُخَادِعٍ عَقَدَ النِّيَّةَ عَلَى أَنْ يَنَالَ غَرْضَهُ وَيَتَزَوَّجَ

لُورَا . لَقَدْ تَلَاشَيْتُ صِفَاتِهِ الْحَمِيدَةَ . لَنْ أَقُولَ شَيْئًا عَنْ أَنْ تَعَاظِفِي  
مَعَ لُورَا وَلَيْدُ هَذَا الْاِكْتِشَافِ . كَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ تِلْكَ الْوَرَقَةَ كَانَ  
لَهَا عِلَاقَةٌ بِقَرَضٍ مَا ، وَلَكِنَّا لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ أَوْ الْخَبَرَةِ مَا  
يُعِينُنَا عَلَى مَا يَجِبُ عَمَلُهُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي .

لِذَا فَقَدْ وَطَدْتُ الْعِزْمَ عَلَى أَنْ أَكْتُبَ إِلَى السَّيِّدِ كَايِلَ ، شَرِيكَ  
السَّيِّدِ غِيلْمُورَ ، لِطَلْبِ مَشُورَتِهِ . وَعِنْدَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ ، طَلَبْتُ إِلَيْهِ  
أَنْ يُرْسِلَ رَدَّهُ إِلَيَّ عَنْ طَرِيقِ رَسُولٍ خَاصٍّ ، حَتَّى أَتَلْقَاهُ فِي الْوَقْتِ  
الْمُنَاسِبِ . وَبَيْنَمَا كُنْتُ أودِعُ خِطَابِي فِي حَقِيبةِ الْبَرِيدِ بِالْقَاعَةِ ،  
قَابَلْتُ الْكَوْنَتَ وَزَوْجَتَهُ ، وَدَهَشْتُ لِطَلْبِ الْكَوْنَتِيسَةِ حَدِيثًا خَاصًّا  
مَعِيَ لِيَضَعَ دَقَائِقُ . وَاصْطَحَبْتَنِي إِلَى الْحَدِيقَةِ ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ تَنْقُلَ  
إِلَيَّ خَبْرًا هَامًّا ، كَمَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُ ، مَضَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْ مَوْضُوعَاتٍ  
عَادِيَةٍ عَنْ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ وَلُورَا ، وَعَنْ سَعَادَتِهَا هِيَ ، وَعَنْ مَتَاعِبِ  
الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ ، مُبْعَدَةً يُبَايَ عَنِ الْبَيْتِ وَقْتًا طَوِيلًا .  
وَعِنْدَمَا عُدْتُ أَخِيرًا إِلَى الْبَيْتِ قَابَلْتُ الْكَوْنَتَ وَهُوَ يَضَعُ خِطَابًا فِي  
تِلْكَ الْحَقِيبَةِ . وَلَسِبَ لَمْ أَسْتَطِعْ تَفْسِيرَهُ ، أَخْرَجْتُ خِطَابِي ثَانِيَةً ،  
وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ . كَانَ الْمَكَانُ الَّذِي أَلْصَقْتُ فِيهِ الْخِطَابَ لَا يَزَالُ ، بَعْدَ  
ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِ السَّاعَةِ ، لَرَجًا وَمَبَلَلًا ، فَانْفَتَحَ بِسُهُولَةٍ فَوْرًا . لَنْ أَقُولَ  
شَيْئًا عَنْ شُكُوكِي ، وَلَكِنِّي قَرَّرْتُ أَنْ أَكُونَ شَدِيدَةً الْحَدَرِ فِي



اليوم التالي حين يصل رسول السيد كايل .

وبعد العشاء خرجت أنا ولورا للنزهة على شاطئ البحيرة في الأراضي المحيطة بالبيت ، فأحدثت تحدث بمزيد من الصراحة عن حياتها الزوجية . أوضحت أن سير بيرسيغال لم يكن يحبها ، وأن اكتشافها هذا قد دفع بأفكارها مرة ثانية ، نحو هارترايت . وأضافت : « كم من مرة سمعتك تسخرين من فقرك ، وتهنئيني على ثروتي . آه يا ماريان ! لا تسخري ثانية . شكراً لله على فقرك . لقد أنقذك من حياة كحياتي ! » وأصابني كلماتها التالية بصدمة شديدة حين أخبرتني أن زوجها قد اكتشف اسم الرجل الذي منحته حبها .

قالت : « لقد حدث هذا في روما . كنا في حفلة صغيرة ، واتجه الحديث إلى الفن والرسم ، وذكر أحدهم اسم هارترايت ونصحني به مدرساً ممتازاً . أيمكنك فهم مشاعري ، يا ماريان ؟ لقد فعلت كل ما يمكنني لضبط مشاعري . لم أقل شيئاً ، ونظرت إلى الأرض ، ولكن عندما رفعت بصري ثانية ، التفت عينا زوجي بعيني ، فأدركت أن وجهي قد أفصح له عن الحقيقة . كان في ذلك المساء في سورة الغضب ، فقال : « كنت أريد ، منذ مدة طويلة ، أن أكتشف اسم صاحبتنا ، وقد وجدته في وجهك الليلة . إن مدرس الرسم هذا كان مدرسك ، واسمها هارترايت . والآن

ألهي لمخدعك ، وأحلمي به إن شئت وآثار سوطي على كنفه . »

وضممتها إلى صدري . لقد كانت يداي هي التي فرقت بينهما ، يداي اللتان أرسلته إلى بلد ناء . دمرت حياته وحياتها . وكنت قد فعلت كل ذلك من أجل سير بيرسيغال غلايد . تصوروا ! من أجل سير بيرسيغال غلايد !



النافذة لِيَسْتَطْلِعَ الْأَمْرَ .

قُلْتُ : « مَعْدِرَةٌ ، وَلَكِنْ هَلْ يَصْدُقُ ظَنِّي فِي أَنَّكَ تَحْمِلُ خِطَابًا  
لِلْآنِسَةِ هَالِكُوم ؟ »

« نَعَمْ ، يَا سَيِّدَتِي . »

« أَنَا الْآنِسَةُ هَالِكُوم . هَلَّا أُعْطِيتَنِي الْخِطَابَ ؟ »

وَهَبَّطَ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْكَبَةِ وَنَاوَلَنِي إِيَّاهُ . وَقَرَأَنِي فِي التَّوَّ وَاللَّحْظَةَ .  
« سَيِّدَتِي الْعَزِيزَةُ ،

« لَقَدْ سَبَّبَ خِطَابُكَ الَّذِي تَلَقَّيْتَهُ الْيَوْمَ ، قَلَقًا كَبِيرًا . إِنَّ مَعْرِفَتِي  
بِمَوْقِفِ لَيْدِي غَلَايِدَ يَجْعَلُنِي أَظُنُّ - وَأَسْفُ إِذْ أَقُولُ هَذَا - أَنَّهُ قَدْ  
طَلَبَ مِنْهَا أَنْ تُوَافِقَ عَلَى إِقْرَاضِ جُزْءٍ مِنَ الْعِشْرِينَ أَلْفَ جِنِيهِ مِنْ  
مَالِهَا الْخَاصِّ لِسِيرِ بِيرْسِيْقَال . هَذَا الْمُبْلَغُ يَجِبُ أَنْ يُحْتَفَظَ بِهِ  
لِأَهْنَائِهَا ، فَإِذَا وَقَعَتْ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَتَلَقَّوْا كُلَّ مَا يَجِبُ أَنْ يَتَلَقَّوْهُ .  
الْمَوْضُوعُ كُلُّهُ مَوْضُوعٌ مُخَالِفٌ لِلْأَصُولِ الْمَرْعِيَّةِ ، وَلَكِنْ ، فِي  
وَضْعِهَا ، لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ يُمَكِّنُ أَنْ يُطْلَبَ مِنْهَا تَوْقِيعُهُ .

« لَذا أَقْتَرِحُ أَنْ تُصَرِّحَ لَيْدِي غَلَايِدَ بِرِعْيَتِهَا فِي أَنْ يَوْضَعَ الْأَمْرُ  
فِي يَدِي . وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُثَارَ اعْتِرَاضٌ مَعْقُولٌ عَلَى هَذَا ؛ لِأَنَّهُ ، إِنَّ  
كَانَتِ الْعَمَلِيَّةُ شَرِيفَةً مَائَةً فِي الْمَائَةِ ، فَإِنِّي سَأُوَافِقُ عَلَيْهَا .

## الفصل الحادي عشر

فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ اكْتَشَفَتْ لُورَا أَنَّهَا فَقَدَتْ دَبُوسًا ذَهَبِيًّا كَانَتْ  
تُزِينُ بِهِ رِداءَهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعَثَّرْ عَلَيْهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ بَحْثِهَا  
الدَّقِيقِ عَنْهُ . لَا بُدَّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي الْحَدِيقَةِ . وَقَرَّرْنَا إِنْ هِيَ خَرَجَتْ  
لِلْبَحْثِ عَنْهُ بِنَفْسِهَا ؛ فَسَيَكُونُ لَهَا عُذْرٌ وَجِيهٌ لِغِيَابِهَا عَنِ الْبَيْتِ  
حَتَّى يَصِلَ الرَّسُولُ الْمُرتَقِبُ ، وَحِينَئِذٍ لَنْ يَتِمَكَّنَ سِيرِ بِيرْسِيْقَالِ مِنْ  
طَلَبِ تَوْقِيعِهَا حَتَّى أَكُونَ قَدْ تَلَقَّيْتُ الرَّدَّ مِنَ السَّيِّدِ كَايِلِ .

كُنْتُ أَشْكُ فِي الْجَمِيعِ حَتَّى إِنِّي عَزَمْتُ عَلَى الذَّهَابِ بِنَفْسِي  
لِأَقَابِلِ رَسُولَ السَّيِّدِ كَايِلِ فِي الطَّرِيقِ . وَسُرَرْتُ وَأَنَا أَغَادِرُ الْبَيْتَ فِي  
هَدُوءٍ حِينَ رَأَيْتُ الْكَوْنَتَ مِنْهُمَا فِي مَلَاعِبَةِ طُيُورِهِ الصَّغِيرَةِ . وَبَعْدَ  
أَنْ انْتظَرْتُ مُدَّةَ عِشْرِينَ دَقِيقَةً سَمِعْتُ صَوْتَ عَجَلَاتٍ ؛ فَلَمَّا صَارَتْ  
الْمَرْكَبَةُ فِي مَجَالِ الْبَصَرِ عِنْدَ النَّاصِيَةِ ، أَشْرْتُ إِلَى السَّائِقِ أَنْ  
يَتَوَقَّفَ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا يُوحِي مَظْهَرُهُ بِالْاحْتِرَامِ يُخْرِجُ رَأْسَهُ مِنْ



« وَأَنْتِي عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَقْدِيمِ آيَةٍ مُسَاعِدَةٍ أَوْ نَصِيحَةٍ أُخْرَى قَدْ يَتَطَلَّبُهَا الْأَمْرُ .

خَادِمُكَ الْمُطِيعُ

وليم كايل »

وَقَرَأْتُ هَذَا الْخِطَابَ الْكَرِيمَ الْفَطِنَ بِكُلِّ امْتِنَانٍ . وَطَلَبْتُ مِنَ الرُّسُولِ أَنْ يُبَلِّغَهُ بِأَنْتِي فَهَمْتُ مَا جَاءَ فِيهِ ، مَعَ إِبْلَاغِهِ جَزِيلَ شُكْرِي . وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَتَكَلَّمُ وَالْخِطَابُ فِي يَدِي ، ظَهَرَ كَوْنُ فَوْسِكٍ فَجَاءَهُ ، وَكَأَنَّمَا انْشَقَّتِ الْأَرْضُ عَنْهُ .

سَأَلَ فِي لُطْفٍ لِحَظَةٍ مَا كَانَ الرُّسُولُ يَتَمَنَّى لِي صَبَاحًا سَعِيدًا : « سَتَعُودِينَ إِلَى الْبَيْتِ ؟ » وَأَوْمَأْتُ بِرَأْسِي عِلَامَةً الْإِيجَابِ .

قَالَ : « إِذَا ، دَعِينَا نَذْهَبُ مَعًا . هَلَا تَأْبِطُ ذِرَاعِي ؟ »

وَرَأَحَ يَتَحَدَّثُ بِأَدَبٍ وَكِيَّاسَةٍ فِي الطَّرِيقِ ، دُونَ أَنْ يَذْكُرَ كَلِمَةً وَاحِدَةً عَمَّا رَأَى . وَكَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ اكْتَشَفَ مَا كَانَ يُرِيدُهُ . وَكَانَ يُحَاوِلُ ، آنَذَاكَ ، أَنْ يُبَدِّدَ شُكُوكِي ، وَلَكِنِّي كُنْتُ مِنَ الْحِكْمَةِ . بِحَيْثُ لَمْ أُعْطِهِ أَيَّ إِضْاحٍ ، وَمِنَ الْأَنْوَةِ بِحَيْثُ إِنِّي كَرِهْتُ نَفْسِي لِتَأْبِطِي ذِرَاعَ رَجُلٍ مِثْلِهِ .

وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا إِلَى الْبَيْتِ ، وَجَدْنَا أَنَّ سِيرَ بِيرْسِيْفَالٍ قَدْ وَصَلَ هُوَ الْآخِرُ .

سَأَلَ : « أَيْنَ لُورَا ؟ »

قُلْتُ : « إِنَّهَا تَبْحَثُ عَنْ دَبُّوسٍ ذَهَبِي فَقَدْ مَنَاهَا فِي الْحَدِيقَةِ . »  
قَالَ مُحْتَدًّا : « ذَكَّرْتُهَا أَنَّ تَأْتِي إِلَى الْمَكْتَبَةِ فِي غُضُونِ نِصْفِ سَاعَةٍ . »

سَأَلَهُ الْكَوْنَتُ : « خَبِّرْنِي ، يَا بِيرْسِيْفَالُ ، هَلِ اسْتَمْتَعْتَ بِسَفَرَةٍ جَمِيلَةٍ ؟ »

« أُرِيدُ غَدَائِي . »

قَالَ الْكَوْنَتُ : « وَأَنَا أُرِيدُ التَّحَدُّثَ مَعَكَ خَمْسَ دَقَائِقَ أَوَّلًا . »

« عَمَّ ؟ »

« عَنْ شَيْءٍ هَامٍّ جِدًّا . »

« أَنْتَ دَائِمًا مُصْدِرُ إِزْعَاجٍ لِغَيْرِكَ ! أُرِيدُ غَدَائِي . »

أَجَابَ الْكَوْنَتُ بِلَهْجَةٍ مَنْ لَمْ يَتَضَاقَ مِنْ كَلِمَاتِ سِيرَ بِيرْسِيْفَالٍ الْوَقِحَةِ : « تَعَالِ هُنَا وَتَكَلِّمْ مَعِي . »

وَابْتَعَدَا ، وَلَكِنِّي أَدْرَكْتُ أَنَّهُمَا كَانَا يَتَحَدَّثَانِ عَنِ التَّوْقِيعِ وَعَنْ

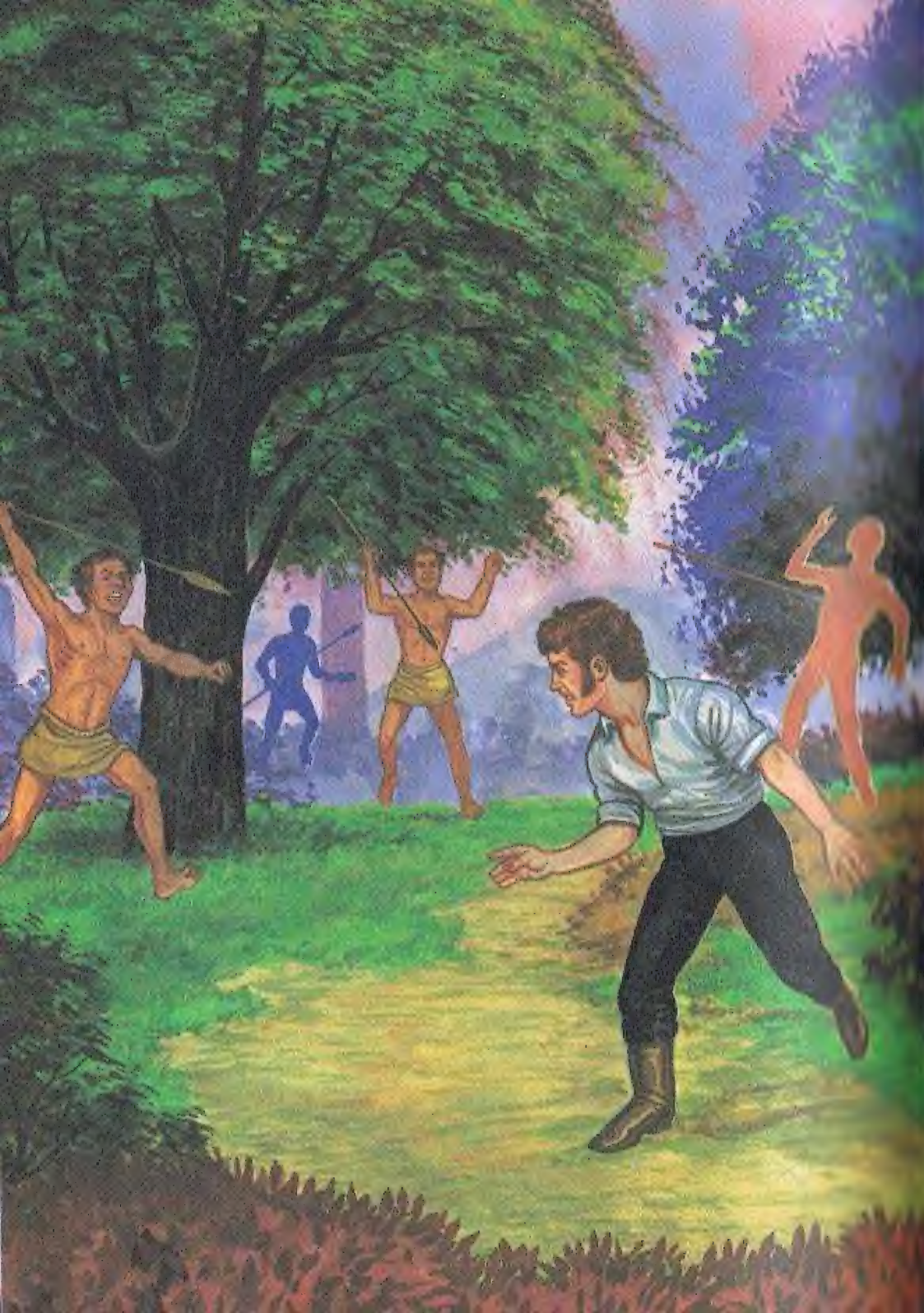


لُورَا وَعَنِّي . وَخَارَتْ قُورَايَ مِنَ الْقَلَقِ . لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يُنْبِئُ بِعُودَةِ  
لُورَا . وَاضْطَجَعْتُ فِي عُرْفَةِ الْاسْتِقْبَالِ فِي انْتِظَارِهَا .

وَفَجْأَةً فَتَحَ الْبَابَ بِرَفْقٍ وَدَخَلَ الْكَوْنَتِ . قَالَ : « أَلْفُ مَعْدِرَةٍ ،  
يَا آنِسَةُ هَالِكُوم . جِئْتُكَ بِأَخْبَارٍ سَارَةٍ . لَقَدْ قَرَّرَ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ ، فِي  
اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ ، أَلَّا يَطْلُبَ التَّوْقِيعَ فِي الْوَقْتِ الْحَالِيِّ ، وَفِي ذَلِكَ  
رَاحَةً لَنَا جَمِيعًا ، يَا آنِسَةُ هَالِكُوم ، وَهَذَا مَا أَرَاهُ عَلَى وَجْهِكَ .  
هَلَّا تَكْرُمْتَ بِتَبْلِغِ تَحِيَّاتِي لِلْيَدِيِّ غَلَايِدَ عِنْدَمَا تُخْبِرُنِيهَا بِذَلِكَ ؟ »

وَتَرَكْنِي قَبْلَ أَنْ أَفِيْقَ مِنْ دَهْشَتِي . لَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ اكْتَشَفَ مَا  
فَعَلْتُهُ ، وَأَنَّهُ قَدْ حَثَّ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ عَلَى أَنْ يُغَيِّرَ رَأْيَهُ . كُنْتُ مُسْرُورَةً ،  
وَلَكِنِّي قَلِقَةٌ مُضْطَرِبَةٌ . وَعَاوَدْتُ مُحَاوَلَةَ الْعُثُورِ عَلَى لُورَا ، وَلَكِنْ  
رُكِبْتِي كَانَتْ تَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِي ، فَاضْطَجَعْتُ ثَانِيَةً فِي هُدُوءِ الْبَيْتِ .  
وَإِذَا بِي أَدْخُلُ بِطُءٍ فِي حَالَةٍ غَرِيبَةٍ بَيْنَ النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ .

وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْغَرِيبَةِ رَأَيْتُ حُلْمًا عَجِيبًا - رَأَيْتُ هَارْتَرَايْتَ  
مُمَدَّدًا فِي مَعْبَدٍ مُهْدَمٍ وَسَطَ غَابَةِ ، وَكَانَ يُحِيطُ بِهِ رِجَالٌ يَمُوتُونَ مِنَ  
الْحُمَّى . ثُمَّ رَأَيْتُهُ ثَانِيَةً فِي غَابَةٍ أُخْرَى وَمَعَهُ نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنَ الرِّفَاقِ ،  
وَرَأَيْتُ أَنَا سَا مُتَوَحِّشِينَ يَحْمِلُونَ رِمَاحًا . ثُمَّ رَأَيْتُهُ مَرَّةً ثَالِثَةً فِي سَفِينَةٍ  
غَارِقَةٍ ، وَكَانَتْ الْقَوَارِبُ الْمَكْتَظَّةُ بِالرِّجَالِ تَبْتَعِدُ عَنْهَا ، وَلَكِنَّهُ بَقِيَ  
وَحِيدًا دُونَهُمْ . ثُمَّ رَأَيْتُهُ ، آخِرَ مَرَّةٍ ، كَانَ يَجْثُو أَمَامَ قَبْرِ ، وَنَهَضَ





خَيَالُ امْرَأَةٍ مِنَ الْقَبْرِ وَانْتَظَرِ بِجَانِبِهِ . كُنْتُ أَنَادِيهِ أَنْ يَعُودَ . كُنْتُ أَصِيحُ : « عُدْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ ! » وَلَكِنَّهُ كَانَ يُجِيبُ دَائِمًا : « انْتَظِرِي ، سَأَعُودُ . إِنِّي أَقْطَعُ الطَّرِيقَ الْمَجْهُولَ لِحَيَاتِي لِأَصِلَ إِلَى غَايَتِهَا الْمَرْسُومَةِ . لَنْ يَمْسُسَنِي سَوْءٌ . سَأَعُودُ . مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَنْتَظِرِي ! »

وَاکْتَنَفَ الظَّلَامُ الْمَشْهَدَ أَمَامِي ، فَلَمْ أَسْمَعْ شَيْئًا حَتَّى لَمَسْتُ يَدَ لُورَا كَتَفِي فَفَتَحَتْ عَيْنِي . كَانَتْ مَلَامِحُهَا تَنْطِقُ بِالْأَنْفِعَالِ .

سَأَلْتُهَا : « مَاذَا حَدَّثَ ؟ مَاذَا يُخِيفُكَ ؟ »

نَظَرَتْ حَوْلَهَا وَنَحَوَ الْبَابِ ، ثُمَّ قَالَتْ : « مَارِيَان ، لَقَدْ تَحَدَّثْتُ لِتُويَ مَعَ أَنَّ كَاتِيرِيكَ ! »

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْفُوهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ . نَظَرْتُ إِلَيْهَا فِي صَمْتٍ لَاهِتٍ ، وَلَكِنَّهَا أَمْسَكَتْ بِيَدِي ، وَقَادَتْنِي إِلَى حُجْرَتِهَا حَتَّى لَا يُزْعِجَنَا أَحَدٌ ؛ وَهُنَاكَ جَذَبَتْنِي إِلَى مَقْعَدٍ وَأَرْتَنِي دَبُوسَهَا الذَّهَبِيَّ الْمَفْقُودَ - كَانَ فِي مَوْضِعِهِ عَلَى رَدَائِهَا مَرَّةً أُخْرَى .

سَأَلْتُهَا : « أَيْنَ وَجَدْتِهِ ؟ »

« هِيَ الَّتِي وَجَدْتَهُ ، يَا مَارِيَان . »

« أَيْنَ ؟ »

« عَلَى أَرْضِيَّةِ حَظِيرَةِ الْقَوَارِبِ . كَيْفَ أَخْبِرُكَ بِمَا حَدَّثَ ؟ » كَانَتْ تَتَكَلَّمُ عَلَى نَحْوِ غَرِيبٍ . كَانَتْ تَبْدُو مَرِيضَةً جِدًّا . ثُمَّ تَرَكَتْنِي فَجَاءَتْ . كُنْتُ أَبْحَثُ عَنِ الدَّبُوسِ فِي أَرْضِيَّةِ حَظِيرَةِ الْقَوَارِبِ عِنْدَمَا سَمِعْتُ صَوْتًا يُنَادِي : « آنِسَةُ فِيرَلِي ! » نَعَمْ . اسْمِي الْقَدِيمُ ! وَحِينَ تَلَفْتُ حَوْلِي رَأَيْتُ شَابَةً غَرِيبَةً فِي رِدَاءٍ أَبْيَضٍ . كَانَتْ تَحْمِلُ دَبُوسًا فِي يَدِهَا . وَوَضَعَتْهُ فِي مَكَانِهِ عَلَى فُسْتَانِي ، ثُمَّ سَأَلَتْنِي إِنْ كُنْتُ أَذْكُرُ أَنَّ كَاتِيرِيكَ الصَّغِيرَةَ بِالْمَدْرَسَةِ .

« هَلْ تَذْكُرْتِ ، يَا لُورَا ؟ »

« لَاحَظْتُ أَنَّهَا تُشَبِّهُنِي كَثِيرًا ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ أَنْ تُشَبِّهُنِي ، وَلَكِنَّ وَجْهَهَا كَانَ شَاحِبًا وَنَحِيلًا وَمُجْهِدًا . سَأَلْتُهَا لِمَ نَادَتْنِي بِاسْمِ آنِسَةِ أَنْ فِيرَلِي ، فَأَجَابَتْ بِأَنَّهَا تُحِبُّ هَذَا الْاسْمَ وَتَكْرَهُ اسْمَ غِلَايْدِ . وَقَالَتْ إِنَّهَا ظَلَّتْ تَنْتَظِرُ أَيَّامًا لِتَسْجُدَ مَعِي عَلَى أَنْفِرَادِ . »

« كَانَتْ تَنْتَظِعُ مِنَ حَظِيرَةِ الْقَوَارِبِ وَهِيَ فِي غَايَةِ الْقَلَقِ ، وَكَانَهَا كَانَتْ تَخْشَى أَحَدَهُمْ . قَالَتْ إِنَّهَا كَانَتْ تَخْشَى أَنْ يُعِيدَهَا سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ ثَانِيَةً إِلَى مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ ، لَكِنَّهَا لَمْ تَعُدْ تَخَافُ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَمُوتُ رُوبِدًا رُوبِدًا . »

« سَأَلَتْنِي : « أَعْتَقِدِينَ أَنَّي سَأَقَابِلُ أَمْلِكُ فِي السَّمَاءِ ؟ » »



وَصَدُمْتُ صَدْمَةً كَبِيرَةً ، وَلَكِنَّهَا مَضَتْ تَحْدُثُ عَنْ سِرِّهِ . قَالَتْ :  
 « إِنَّ عَرَفْتُ سِرَّهُ ، فَسَيَخْشَاكَ ، وَسَيَضْطُرُّ إِلَى مُعَامَلَتِكَ مُعَامَلَةً  
 طَيِّبَةً . » وَلَكِنَّهَا تَوَقَّعَتْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ وَرَاحَتْ تَتَكَلَّمُ عَنْ أُمِّي .  
 إِنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تُدْفِنَ مَعَهَا . كُنْتُ أُرْتَعِدُ مِنْ قِمَّةِ الرَّأْسِ إِلَى أَخْمَصِ  
 الْقَدَمَيْنِ ؛ لَقَدْ كَانَ شَيْئًا مُرِيعًا . وَسَأَلْتُهَا ، ثَانِيَةً ، عَنْ ذَلِكَ السِّرِّ  
 فَقَالَتْ إِنَّ أُمَّهَا تَعْرِفُهُ ، وَلَكِنَّهَا ظَنَّتْ ، آنَ ذَاكَ أَنَّهَا سَمِعَتْ أَحَدَهُمْ  
 فَجَرَتْ إِلَى خَلْفِ حَظِيرَةِ الْقَوَارِبِ .

« بِالتَّأَكِيدِ تَتَّبَعْتُهَا ! »

« نَعَمْ ، وَلَكِنَّهَا قَالَتْ إِنَّ هُنَاكَ مَنْ يُرَاقِبُهَا ، وَإِنَّهَا سَتَعُودُ غَدًا  
 فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ أَكُونَ بِمُفْرَدِي ، ثُمَّ  
 تَرَكْتَنِي وَأَنْصَرَفَتْ . »

« آه يَا لُورَا ! لَقَدْ أَضَعْنَا فُرْصَةً أُخْرَى . »

« نَعَمْ . »

أَرَأَيْتِ أَحَدًا يُرَاقِبُكُمَا ؟

« لَا ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَبْدُو هَادِئًا . »

وَتَسَاءَلْتُ أَمْ كَانَ هُنَاكَ شَخْصٌ ثَالِثٌ ، أَمْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مُجَرَّدَ

خَيَالٍ أَنْ كَاتِيرِيكَ ؟ وَأَخْبَرْتُهَا أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَذْهَبَ إِلَى حَظِيرَةِ  
 الْقَوَارِبِ فِي الْيَوْمِ الْتَالِي ، وَأَنِّي سَأَتَّبَعُهُمَا عَلَى مَسَافَةٍ مَأْمُونَةٍ .  
 كُنْتُ مُصَمِّمَةً عَلَى أَلَّا تَهْرَبَ مِنِّي هَذِهِ الْفَتَاةُ كَمَا سَبَقَ أَنْ هَرَبَتْ  
 مِنْ هَارْتِرَايْت وَلُورَا . ثُمَّ أَرَيْتُهَا خِطَابَ السَّيِّدِ كَايِلِ .

سَأَلْتُ : « مَاذَا عَنْ التَّوَقُّعِ ؟ »

قُلْتُ : « أَجَلَ حَتَّى مَوْعِدٍ لَاحِقٍ . »

وَرَدَّدَتْ قَوْلِي : « أَجَلَ ؟ مُسْتَحِيلٌ ! كَيْفَ يُوجَلُّ إِنْ كَانَ سِير

بِيرْسِيْقَال يُرِيدُ النُّقُودَ الْآنَ ؟ »

« يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْخُذَ قَرْضًا لِمُدَّةِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ يُسَدِّدَ الدَّيْنَ

بِنُقُودِكَ أَنْتِ عِنْدَمَا تُوَقَّعِينَ فِيمَا بَعْدُ . »

وَأَقْتَرَفْنَا حَالَ سَمَاعِنَا جَرَسَ الْعِشَاءِ ، وَسَمِعْنَا رَبَّ الدَّارِ يَصِيحُ فِي

الْخَدَمِ - كَعَادَتِهِ - وَصَوْتَ الْكَوْنَتِ الرَّحِيمِ يَطْلُبُ - كَعَادَتِهِ -

الْهُدُوءَ .



لِفَصْلِهَا الْمَفَاجِئِ . لَقَدْ طَلَبَ مِنْهَا سِير بِيرسيْفَال أَنْ تَأْخُذَ أَجْرَ شَهْرٍ  
وَتَرْحَلَ ، وَمَنْعَهَا مِنْ رُؤْيَةِ سَيِّدَتِهَا ، بَلْ وَمِنْ وَدَاعِهَا .

حَاوَلْتُ مُوَاسَاةَ الْمُسْكِينَةِ ، وَسَأَلْتُهَا أَيْنَ سَتَمَضِي تِلْكَ اللَّيْلَةُ ؛  
أَجَابَتْ أَنَّهَا تَعْرِفُ فُنْدُقًا صَغِيرًا فِي الْقَرْيَةِ سَتَبِيتُ فِيهِ ، وَقَدْ تَذْهَبُ  
فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ التَّالِيِ إِلَى صَدِيقَاتِهَا فِي كَمْبِرْلَانْدِ .

أَنْرَكْتُ لِفَوْرِي أَنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِلَ بَعْضَ خِطَابَاتِ لَنَا ؛  
فَأَخْبَرْتُهَا أَنَّي سَأَرَاهَا ثَانِيَةً فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، ثُمَّ صَافَحْتُهَا ، وَصَعِدْتُ  
إِلَى الطَّابَقِ الْعُلَوِيِّ لِرُؤْيَةِ لُورَا .

وَطَرَقْتُ الْبَابَ ، فَفَتَحَتْهُ تِلْكَ الْفَتَاةُ الْغَيْبَةُ الَّتِي ضِيقْتُ بِهَا ذُرْعًا  
مُنْذُ الْيَوْمِ الَّذِي عَثَرْتُ فِيهِ عَلَى الْكَلْبِ الْجَرِيحِ . كَانَ اسْمُهَا  
مَارْغْرِيتُ بُورْتِشِرْ ، وَكَانَتْ أَقْدَرُ وَأَسْخَفَ فَتَاةٍ فِي الْبَيْتِ . وَقَفْتُ  
تَبْتَسِمُ لِي بِبِلَاهَةٍ فِي مَدْخَلِ الْبَابِ .

سَأَلْتُهَا : « لِمَ تَقْفِينَ هَكَذَا ؟ أَلَا تَرَيْنِ أَنَّي أُرِيدُ الدُّخُولَ ؟ »  
وَابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً وَقَالَتْ : « آهَ ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَلَا  
تَدْخُلِي . »

« كَيْفَ تَجْرئينَ عَلَى الْكَلَامِ مَعِي بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ ؟ تَنْحِي إِلَى  
الْخَلْفِ حَالًا . »

## الفصل الثاني عشر

خَرَجَ سِير بِيرسيْفَال فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ التَّالِيِ ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى  
الْعَدَاءِ . وَذَهَبَتْ لُورَا إِلَى حَظِيرَةِ الْقَوَارِبِ حِوَالِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ ،  
وَلَكِنِّي انْتَضَرْتُ حَتَّى يَرْفَعَ الْخَادِمُ الْأَطْبَاقَ مِنَ الْمَائِدَةِ . لَمْ تُرَدْ أَنْ  
نَخْتَفِيَ مَعًا فَنُشِيرَ بِذَلِكَ شُكُوكَ الْكُونَتِ . وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى  
الْأَشْجَارِ سِرْتُ بِبُطْءٍ وَحَذَرٍ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَرِ أَحَدًا ، حَتَّى وَلَا لُورَا .  
كَانَتْ حَظِيرَةُ الْقَوَارِبِ خَالِيَةً . لَمْ أَجِدْ وَأَنَا أَبْحَثُ بِقَلْبٍ خَافِقٍ سِوَى  
آثَارِ أَقْدَامٍ فِي الرَّمْلِ - آثَارِ أَقْدَامِ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ ، وَحُفْرَةٍ فِي الْأَرْضِ  
بِالْقُرْبِ مِنْ حَظِيرَةِ الْقَوَارِبِ . وَتَبَعْتُ آثَارَ الْأَقْدَامِ الَّتِي أَرْجَعْتَنِي  
أَخِيرًا إِلَى الْبَيْتِ . وَهُنَاكَ سَمِعْتُ خَبْرًا أَذْهَلَنِي . كَانَتْ لِيَدِي غَلَايِدُ  
تَبْكِي ، وَكَانَ سِير بِيرسيْفَالُ قَدْ أَمَرَ خَادِمَتَهَا « فَانِي » بِمُغَادَرَةِ  
الْبَيْتِ فِي خِلَالِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَوَجَدْتُ فَانِي ، وَلَكِنِّي لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُعْطِيَنِي أَيَّ تَفْسِيرٍ



وَبَسَطَتْ ذِرَاعَيْهَا عَبْرَ مَدْخَلِ الْبَابِ وَقَالَتْ وَهِيَ تُومِي بِرَأْسِهَا :  
« أُوَامِرُ سَيِّدِي » .

كَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيَّ أَنْ أُحْتَفِظَ بِهَدْوٍ أَغْصَابِي ، وَلَكِنِّي  
أَدْرَكْتُ أَنَّ لَا جَدْوَى مِنَ التَّحَدُّثِ مَعَهَا . وَنَزَلْتُ نَائِرَةً إِلَى الطَّابَقِ  
الْأَرْضِيِّ - إِلَى سِير بِيرْسِيْفَالِ وَمِنْ مَعَهُ .

سَأَلْتُهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَحِدِّةً : « هَلْ أَفْهَمُ أَنَّ زَوْجَكَ سَجِينَةٌ ؟ »

قَالَ : « نَعَمْ ، وَاحْدَرِي وَإِلَّا صِرْتَ مِثْلَهَا » .

« أَحْذَرِي ! كَيْفَ تُعَامِلُ زَوْجَكَ هَكَذَا ، وَكَيْفَ تُهْدِدُنِي ؟ هُنَاكَ  
قَوَانِينُ فِي إِنْجِلْتِرَا لِحِمَايَةِ النِّسَاءِ مِنْ سُوءِ الْمُعَامَلَةِ . »

نَظَرْتُ الْكُونْتِيسَةَ فَوْسَكُو إِلَى زَوْجِهَا ، ثُمَّ نَهَضَتْ وَاقِفَةً ، وَقَالَتْ  
يُرُودُ : « مِنْ فَضْلِكُمْ أَصْغُوا إِلَيَّ لِحِظَةً وَاحِدَةً . أَشْكُرُكَ ، يَا سِير  
بِيرْسِيْفَالِ ، عَلَى السَّمَاحِ بِاسْتِضَافَتِي ، وَلَكِنِّي لَنْ أَكُونَ ، بَعْدَ  
الْيَوْمِ ، مُضَيِّفَتِكَ ، لَنْ أَبْقَى فِي بَيْتٍ تُعَامِلُ فِيهِ السَّيِّدَاتُ كَمَا  
تُعَامِلُ الْيَوْمَ زَوْجَتَكَ وَالْآنِسَةَ هَالِكُومَ » .

وَتَرَجَعَ سِير بِيرْسِيْفَالِ خُطْوَةً ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا فِي صَمْتٍ مُطْبِقٍ .  
وَهَبَّ الْكُونْتُ وَاقِفًا وَاتَّجَهَ إِلَى جَانِبِ زَوْجَتِهِ وَقَالَ بِرُقَّةٍ : « أَنَا فِي  
خِدْمَتِكَ ، يَا إِلَيَانُورَ » .

صَاحَ سِير بِيرْسِيْفَالُ : « مَاذَا تُعْنِي ؟ »

« فِي الْمَرَّاتِ السَّابِقَةِ كُنْتُ أَعْنِي مَا أَقُولُ ، وَلَكِنِّي فِي هَذِهِ  
الْمَرَّةِ أَعْنِي مَا يَقُولُهُ زَوْجَتِي . لَقَدْ تَبَادَلْنَا الْأَدْوَارَ وَرَأَيْهَا هُوَ رَأْيِي » .

قَالَ سِير بِيرْسِيْفَالُ فِي هَمْسَةٍ شَرِسَةٍ : « أَفْعَلْ مَا شِئْتَ ! أَفْعَلْ مَا  
شِئْتَ وَانْتَظِرْ لِتَرَى النَّتِيجَةَ ! » وَسَارَ خَارِجَ الْحُجْرَةِ .

وَنَظَرَتْ الْكُونْتِيسَةُ فَوْسَكُو إِلَى الْكُونْتِ وَسَأَلَتْهُ : « مَا مَعْنَى  
هَذَا ؟ »

« مَعْنَاهُ أَنِّي وَأَنْتِ قَدْ أَعَدْنَا أَسْوَأَ رَجُلٍ عَصِيٍّ الْمِزَاجِ فِي إِنْجِلْتِرَا  
إِلَى صَوَابِهِ . مَعْنَاهُ إِطْلَاقُ سَرَاحٍ لِيَدِي غَلَايِدَ » .

هَذَانِ سَوْرَةٌ غَضَبِي ، فَحَاوَلْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهَدْوٍ إِلَى الْكُونْتِ ،  
وَلَكِنِّي كُنْتُ أَلْهَتْ ، وَكَانَتْ عَيْنَايَ مُثَبَّتَتَيْنِ عَلَى الْبَابِ . وَهَرَبْتُ ،  
بِمَجْرَدِ مَا اسْتَطَعْتُ ، مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَسِيرِ . وَأَسْرَعْتُ لِرُؤْيَةِ لُورَا ،  
فَرَأَيْتُهَا جَالِسَةً حَزِينَةً فِي رُكْنٍ قَصِيٍّ مِنْ عُرْفَتِهَا ، وَلَكِنِّي حِينَ  
دَخَلْتُ وَتَبْتُ مُبْتَهِجَةً ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا أَنْ أَخْبِرَهَا بِكُلِّ شَيْءٍ حَدَثَ فِي  
الطَّابَقِ الْأَرْضِيِّ . وَمَا إِنَّ أَخْبَرْتُهَا حَتَّى رَاحَتْ تَتَكَلَّمُ عَنِ الْكُونْتِ .

قَالَتْ : « لَقَدْ كَانَ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يُرَاقِبُنِي أَنَا وَأَنْ كَاثِيرِيكَ .  
لَقَدْ رَأَى وَأَخْبَرَ سِير بِيرْسِيْفَالُ ؛ إِنَّهُ جَاسُوسُ سِير بِيرْسِيْفَالِ . لَقَدْ جَعَلَ





وجدني سير بيرسيغال وأنا أقرأها ، فقال إنه سبق أن قرأها وأنه دفعها  
ثانية لي كي أعثر عليها ، ثم أخذها مني .

« وماذا فعل بعدئذ ؟ »

« قادني إلى خارج حظيرة القوارب وأمسك بذراعي بعنف ، ثم  
همس : « ماذا قالت لك آن كاثيريك بالأمس ؟ » »

« هل أخبرته ؟ »

« كنت بمفردي معه ، يا ماريان ، وكانت يده القاسية تؤلم  
ذراعي . »

سير بيرسيغال يرقبنا طوال الصباح عند حظيرة القوارب .

« هل رأى آن ؟ »

« لا ، لقد أنقذت نفسها بإبتعادها . وعندما وصلت هناك لم أر  
أحدًا . »

« ماذا ؟ »

« دخلت وانتظرت ، ثم خرجت فرأيت كلمة منقوشة على  
الرمل . كانت الكلمة : « أنظري ! » »

« وحفرت حفرة كي تنظري ؟ »

« نعم . كيف عرفت ؟ »

« لقد رأيت الحفرة بنفسي . استمري . »

« وجدت قصاصة ورق موقعة بالحرفين أ . ك . »

« آن كاثيريك . أين القصاصة ؟ »

« أخذها سير بيرسيغال مني . ولكنني أذكر ما جاء بها . »

كانت تقول إن رجلاً بديناً كان يراقبنا ويحاول أن يمسكها ، ولكنها  
لاذت بالفرار . وقالت إنها لا تجرؤ على المجيء اليوم ، ولكنها  
وعدت أن تراني في القريب العاجل لتخبرني عن ذلك السر . وقد



« أريني ذراعك . أ عليه كدمات ؟ »

كانت بالفعل ثمة كدمة على ذراعها حين رأيتهما ثارت ثائرتي .

قالت : « إنها لا تؤلمني الآن . لا تغضبي . »

قلت : « سأحاول أن أفكر بهدوء في هذه المسألة . استمري . هل قلت له كل ما قالته ؟ ماذا فعل عندما انتهيت من كلامك ؟ »

« ضحك ساخراً وقال لا بد أن أخبره بالباقي ، وإنه لا يصدق أنني قلت له كل شيء . وكان يطلب إلي المرة تلو المرة أن أستمري . وعندما انتهيت من كلامي ، اقتادني إلى الطابق العلوي ، وفصل فاني ، وأغلق الباب علي ، ووضع هذه البلهاء لمراقبتي . كان يتكلم ، يا ماريان ، كرجل مجنون ! ليس من السهل أن تتصوري ذلك . كان ، فعلاً ، يتكلم كرجل مجنون ! »

« بل أتصوره . إنه مجنون بفعل مخاوف رجل شرير . أنا واثقة أنك ، بالأمس ، كذبت تكشيفين سرا قد يدمر حياته ، وهو يعتقد أنك اكتشفته ! أنت في خطر ، يا لورا . سأكتب إلى السيد كايل ، وكذا لعمك . »

« عمي ! إن استطعت أن تقنعيه بأن يسمح لي بالعودة إلى

ليميريدج ، فسأكون سعيدة كما كنت قبل الزواج . »

ودفعتني تلك الكلمات إلى التفكير في فكرة جديدة . أ كان من الممكن أن تجعل سير بيرسيغال يوافق على ذهابنا إلى هناك ؟ على الأقل أستطيع أن أحاول .

وقلت وأنا أنهض للانصراف : « سأبلغ عمك برعبتك ، وسأطلب أيضاً مشورة المحامي . »

ذهبت إلى غرفتي وشرعت أكتب الخطابين . لم أذكر للمحامي شيئاً عن أن كاثيريك ، لأنه لم يكن بمقدورنا أن نشرح هذا الأمر له ، وأبدت رأيي في سلوك سير بيرسيغال وأنه كان نتيجة لمشكلته المالية ، وسألته إن كان القانون يستطيع أن يحمي لورا إن لم يسمح لها زوجها بمغادرة بلاكووتر بارك بعض الوقت والذهاب معي إلى ليميريدج ، كما ذكرت أنني سأكتب إلى السيد فيرلي ، وسألته أن يتصرف بسرعة لمساعدة لورا .

ثم كتبت إلى السيد فيرلي مرفقة صورة من خطابي إلى المحامي ، وأخبرته أنه ما لم نتقل إلى ليميريدج فسبحدث له الكثير من المتاعب فيما بعد . ثم ذهبت لأطلع لورا على هذين الخطابين .

وأخبرتني لورا أنها سمعت امرأة تذهب نحو غرفتي ، وعلى ما



يبدو أنها كانت الكونتيسة فوسكو . كُنتُ منهمكةً في كتابة خطائبي ، فربما تكون قد سمعتُ صريرَ قلَمي ، وربما - إن كان ثمة سبب آخر - لعدم إيداعي الخطابين في حقيبة البريد بالقاعة .

كانت الساعة السادسة إلا ربعاً ، وكان لا يزال ثمة وقت للوصول إلى فاني في الفندق والعودة قبل العشاء . وأنسلتُ بسرعة من البيت وأنطلقتُ بقدر ما استطعتُ من سرعة .

وفي طريقي لم أر شيئاً سوى عربة نقل ريفية تسير في الطريق خلفي . وخيل إليّ في إحدى اللحظات أنني رأيتُ ساقَي رجلٍ يمشي خلفها مباشرةً ، ولكنني عندما توقفتُ لأفسح لها الطريق لم أر أحداً .

ووصلتُ إلى الفندق دون أن تقع عيناَي على أي شيء آخر . وسلمتُ الخطابين لفاني ، وطلبتُ منها أن تودع أحدهما في لندن ، وأن تسلم الآخر للسيد فيرلي ، يداً بيدي ، بمجرد وصولها إلى كمبرلاند .

ووضعتُهما بين طيات ثوبها ، ووعدتُ بأنها ستفقد طلبتي ، وشكرتني على عطفِي عليها في محنتها .

وعدتُ في الوقت المناسب للعشاء ، ووجدتُ الكونت منفِعلاً

مُحتقِن الوجهِ . لم يكن متأنقاً في ملبسه كعادته . ترى أ كان هو أيضاً قد خرج قبل العشاء ؟ ترى هل تأخر في العودة ، أم أنه كان يعاني من الحر ليس إلا ؟ كان يبدو قلقاً على نحو غريب ، وكان طيلة العشاء صامتاً مثل سير بيرسيغال نفسه .

وعندما نهضتُ أنا والكونتيسة فوسكو من أمام المائدة ولم تكن لورا قد نزلت - نهض الكونت ليخرج معنا ، ولكن سير بيرسيغال استبقاه .

سأله : « لماذا تهتم بالانصراف ؟ »

« سأنصرف لأنني أخذتُ كفايتي من الطعام والشراب . »





« هراء ! لن يُضيرَكَ مزيدٌ مِنَ الشَّرَابِ . اجْلِسْ ثَانِيَةً . أريدُ  
حديثًا هادئًا مَعَكَ . »

« حَديثًا هادئًا ، يا سير بيرسيغال ؟ بِكُلِّ سُرُورٍ ، وَلَكِنْ لَيْسَ  
الآنَ . فِي الْمَسَاءِ ، لَوْ سَمَحْتَ ، فِي الْمَسَاءِ . »

وَذَهَبَ الْكَوْنَتُ دُونَ أَنْ يَتَأَثَّرَ أَذْنَى تَأَثَّرٍ مِنْ وَقَاحَةِ لَهْجَةِ سِير  
بيرسيغال . ذَهَبَ لِأَخْذِ حَقِيْبَةِ الْبَرِيدِ ، وَسَأَلَنِي : « أَلَدَيْكَ خِطَابٌ ،  
يَا آنِسَةُ هَالِكُوم ؟ »

« كَلَّا ، يَا كَوْنَتُ ، شُكْرًا . لَيْسَ لَدَيَّ خِطَابَاتُ الْيَوْمِ . »

وَأَعْطَى الْحَقِيْبَةَ لِلْخَادِمِ ، وَجَلَسَ إِلَى الْبَيَانُو . وَأَنْسَلَتْ زَوْجَتُهُ ،  
بِسُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ ، خَارِجَ الْغُرْفَةِ ، وَعِنْدَمَا نَهَضَتْ لِاتِّعَاقِهَا ، أَوْقَفَنِي  
وَأَخَذَ يَسْأَلُنِي عَنْ رَأْيِي فِي الْمَوْسِيقَى بِوَجْهِ عَامٍّ . كَانَ يَعْرِفُ ،  
وَيُنَاقِشُ مَا يَعْرِفُهُ ، مُسْتَبْقِيًا إِيَّايَ مُدَّةً طَوِيلَةً . ثُمَّ شَرَعَ يَعْرِفُ بِعُنْفٍ  
أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ حَتَّى رَاحَ الْبَيَانُو يَهْتَرُّ تَحْتَ يَدَيْهِ الْقَوِيَّتَيْنِ . ثُمَّ بَدَأَ يُغَنِّي  
أَثْنَاءَ عَرَفِهِ . كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ مُرِيعٌ فِي نَشْوَتِهِ بِصَوْتِهِ الْمَهُولِ الَّذِي  
مَلَأَ الْغُرْفَةَ . وَوَقَفْتُ مَذْعُورَةً . وَلَمْ أَفْلَحْ فِي الْإِفْلَاتِ مِنْهُ إِلَّا حِينَ  
فَتَحَ سِير بيرسيغال الْغُرْفَةَ وَصَاحَ يَسْأَلُ عَنْ مَعْنَى تِلْكَ الضُّوْضَاءِ .  
وَنَهَضَ الْكَوْنَتُ مِنْ أَمَامِ الْبَيَانُو وَقَالَ : « آه ! سِير بيرسيغال . انْتَهَى

عَرَفَ اللَّيْلَةَ ! » وَخَرَجَ إِلَى الْحَدِيقَةِ .

وَسَمِعْتُ سِير بيرسيغال يُنَادِيهِ لِيَعُودَ إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ لِيُصْغِيَ  
إِلَيْهِ . كَانَ عَلَى حَدِيثِهِمَا أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لَهُ .  
وَصَعِدْتُ إِلَى الطَّابَقِ الْعُلَوِيِّ لِأَرَى إِنْ كَانَتْ الْكَوْنَتِيْسَةُ فَوْسَكُو قَدْ  
حَاوَلَتْ الْإِقْتِرَابَ مِنْ أُخْتِي ، وَلَكِنْ أُخْتِي لَمْ تَكُنْ قَدْ سَمِعَتْ شَيْئًا .

وَعِنْدَمَا هَبَطْتُ إِلَى الطَّابَقِ الْأَرْضِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَجَدْتُ ثَلَاثَتَهُمْ  
يَجْلِسُونَ مَعًا ، وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنْ أَقُولَ إِنَّ الْكَوْنَتِيْسَةَ كَانَتْ هِيَ  
الْمُنْفَعِلَةُ هَذِهِ الْمَرَّةَ . كَانَ وَجْهُهَا مُحْتَقِنًا ، وَكَانَتْ تُرَوِّحُ عَنْ نَفْسِهَا  
بِمُرُوحَتِهَا . كَانَتْ ، وَهِيَ أَبْرَدُ النِّسَاءِ قَاطِبَةً ، تُعَانِي حَرَارَةَ الطُّقْسِ !



كَانَتْ خُطَّتِي هِيَ أَنْ أُخْرَجَ مِنْ نَافِذَةِ عُرْفَةِ جُلُوسِي وَأَصْعَدَ إِلَى  
سَطْحِ الشُّرْفَةِ ، فَإِنْ جَلَسَ الرَّجُلَانِ لِيَدْخُنَا بِالْقُرْبِ مِنْ بَابِ الشُّرْفَةِ  
بِالطَّابِقِ الْأَرْضِيِّ ، فَسَيَمَكِنُنِي أَنْ أَسْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ . وَغَيَّرْتُ  
مَلَابِسِي ، وَأَطْفَأْتُ الشَّمْعَةَ ، وَأَوْصَدْتُ أَبْوَابَ عُرْفَتِي ، وَصَعِدْتُ  
إِلَى سَطْحِ الشُّرْفَةِ ، وَبَقَلْبٍ يَخْفِقُ مِنْ شِدَّةِ الْقَلْقِ ، زَحَفْتُ مِنْ أَمَامِ  
نَافِذَةِ الْكَوْنَتِي الَّتِي كَانَ الضَّوُّ لَا يَزَالُ يَنْبَعِثُ مِنْهَا ، ثُمَّ اتَّخَذْتُ  
مَا بَدَأَ لِي أَحْسَنَ مَوْقِعٍ لِلْإِنْصَاتِ .

سَمِعْتُ الْكَوْنَتِ ، بِالطَّابِقِ الْأَرْضِيِّ ، يَشْكُو مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ ، ثُمَّ  
جَاءَ صَوْتُ مَقْعَدَيْنِ يَوْضَعَانِ بِالْقُرْبِ مِنْ بَابِ الشُّرْفَةِ . كُنْتُ سَعِيدَةً  
الْحَظُّ ، إِذْ كَانَا سَيَجْلِسَانِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ ؛ إِذَا لَنْ أَجِدَ صُعُوبَةً فِي  
سَمَاعِهِمَا .

قَالَ سِير بِيرْسِيْفَالُ : « إِلَيْكَ بَعْضُ الشَّرَابِ . »

أَجَابَ الْكَوْنَتُ : « شُكْرًا . أَفْضَلُ الْمَاءِ وَالسُّكَّرِ . وَالْآنَ ، اسْتَمِعْ  
إِلَيَّ . سَأَصِفُ وَضْعَنَا كَمَا أَفْهَمُهُ . أَنْتَ تُرِيدُ عِدَّةَ آلَافٍ مِنَ  
الْجَنِيَّهَاتِ ، وَأَنَا أُرِيدُ بَضْعَ مِائَاتٍ مِنْهَا . وَطَرِيقَةُ الْحُصُولِ عَلَى النُّقُودِ  
لَنْ تَكُونَ إِلَّا بِمَعُونَةِ زَوْجَتِكَ . وَالْآنَ ، هُنَاكَ طَرِيقَانِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا  
لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى آيَةِ امْرَأَةٍ ؛ إِمَّا أَنْ تَضْرِبَهَا وَتَطْرَحَهَا أَرْضًا ، وَهَذَا لَيْسَ  
سُلُوكًا حَضَارِيًّا ، وَإِمَّا أَنْ تَضْبِطَ أَعْصَابَكَ مَعَهَا مَهْمَا حَدَثَ ، وَأَنْ

## الفصل الثالث عشر

كُنْتُ مُتَكَيِّفَةً عَلَى نَافِذَةِ عُرْفَةِ جُلُوسِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ حِينَ سَمِعْتُ  
وَقَعَ أَقْدَامِ وَأَصْوَاتًا فِي الْحَدِيقَةِ .

سَمِعْتُ صَوْتَ سِير بِيرْسِيْفَالِ يَقُولُ : « تَعَالَ وَاجْلِسْ . »

قَالَ الْكَوْنَتُ : « أُرِيدُ أَوَّلًا أَنْ أَرَى النُّورَ يَنْطَفِئُ فِي عُرْفَةِ نَوْمِ  
الْآنِسَةِ هَالِكُومِ . إِنَّهَا لَمْ تَأْوِ إِلَى الْفِرَاشِ بَعْدَ صَبْرٍ ،  
يَا بِيرْسِيْفَالُ ، صَبْرًا . »

« كَلَامَ فَارِعَ ! دَائِمًا تَتَكَلَّمُ عَنِ الصَّبْرِ . »

وَابْتَعَدَا بِيْطَءٍ ، فَلَمْ أَعُدْ أَسْمَعْ شَيْئًا ، وَلَكِنِّي قَرَّرْتُ أَنْ أَنْصِتَ  
لِحَدِيثِهِمَا ؛ فَقَدْ تَتَوَقَّفُ كَرَامَةُ لُورَا وَسَعَادَتُهَا عَلَى أُذُنَيَّ الْحَادَتَيْنِ  
وَذَاكَرْتِي الَّتِي لَا تَخُونُنِي . لَمْ أَرَ أَنَّهُ مِنَ الْخَطَا أَنْ أَنْصِتَ عَلَى مَا  
سَيَقُولَانِهِ .



تَحْفِظَ ، فِي هُدًى ، بِقُوَّةِ إِرَادَتِكَ . هَلْ تَذَكَّرُ أَنَّ حِدَّةَ طَبْعِكَ فِي  
الْمَرَّةِ الْأُولَى أَفْقَدْتِكَ تَوْقِيعَ زَوْجَتِكَ ، وَدَفَعَ الْإِنْسَةَ هَالِكُومَ إِلَى  
الْكِتَابَةِ لِلْمُحَامِي .

« فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ؟ أَمْ كَتَبْتَ ثَانِيَةً ؟ »

« نَعَمْ ، كَتَبْتَ الْيَوْمَ . »

تُرَى هَلْ تَعْقِبُنِي الْكُونَتُ إِلَى الْفُنْدُقِ ؟ هَلْ تَكْهَنُ بِأَنِّي  
أَعْطَيْتُ الْخِطَابِينَ لِفَانِي ؟

وَمَضَى الْكُونَتُ يَقُولُ : « مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنَّنِي مَوْجُودٌ فِي بَيْتِكَ  
كَيْ أَبْطِلَ مَا يُحْدِثُهُ مِنْ ضَرَرٍ بِمِثْلِ السَّرْعَةِ الَّتِي تُحْدِثُهُ . كُنْتُ  
تُرِيدُ أَنْ تَحْسِبَ الْإِنْسَةَ هَالِكُومَ . أَيْنَ عَيْنَاكَ ؟ أَمْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهَا  
وَلَا تَرَى أَنَّ لَدَيْهَا عَزَمَ الرِّجَالِ ؟ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ بِجَانِبِي ، لَمَا  
كُنْتُ لِأَبَالِي بِالْعَالَمِ أَجْمَعَ ، وَلَكِنْ أَنْ تَكُونَ عَدُوَّتِي ، فَإِنِّي أَنَا  
فَوْسِكُو ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ذِكَاثِي وَخَبَرَتِي ، أَكُونُ فِي وَضْعٍ  
يَفْرِضُ عَلَيَّ أَنْ أُسِيرَ بِكُلِّ حَدَرٍ وَتَوَجُّسٍ . إِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ رَائِعَةٌ ، وَقَدْ  
جَعَلْتَهَا أَنْتَ عَدُوَّةً لَنَا . إِنَّكَ تَسْتَحِقُّ الْفُشْلَ ، يَا سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ ، وَقَدْ  
فَشِلْتَ فِعْلًا . »

« نَعَمْ ، نَعَمْ ، إِنَّكَ تَتَكَلَّمُ كَمُعَلِّمِ الْمَدْرَسَةِ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَعْرِفُ

كُلَّ شَيْءٍ . الْمَالُ لَيْسَ هُوَ الْمَشْكِلَةُ الْوَحِيدَةُ . »

« سَنُعَالِجُ الْمَشْكِلَةَ الثَّانِيَةَ بَعْدَ مُعَالَجَةِ الْمَشْكِلَةِ الْأُولَى . وَالْآنَ ،  
هَلْ تُوَافِقُ عَلَيَّ أَنْ تَتْرَكَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدَيَّ ؟ حَسَنًا . لَقَدْ اقْتَرَضْتُ  
وَعَلَيْكَ أَنْ تُسَدِّدَ دَيْنَكَ فِي خِلَالِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ . أَلَدَيْكَ أَيْ نَقُودٍ فِي  
الْمَصْرَفِ ؟ »

« بِضْعُ مِثَالٍ ، عَلَى حِينٍ يَلْزِمُنِي الْآلَافُ . »

« مَاذَا تَتَوَقَّعُ مِنْ زَوْجَتِكَ ؟ »

« ثَلَاثَةُ آلَافٍ جِنِيهِ سَنَوِيًّا بَعْدَ مَوْتِ عَمِّهَا . »

« مَبْلَغٌ مُحْتَرَمٌ . مَا صِفَةُ هَذَا الرَّجُلِ ؟ عَجُوزٌ ؟ شَابٌّ ؟  
مُتَزَوِّجٌ ؟ »

« لَا هُوَ عَجُوزٌ وَلَا شَابٌّ . أُعْزَبٌ . لَوْ تَزَوَّجَ وَأَنْجَبَ أَبْنَاءَ فَلَنْ  
نَحْصُلَ لِيَدَيَّ غَلَايِدَ عَلَى الثَّلَاثَةِ آلَافِ جِنِيهِ سَنَوِيًّا بَعْدَ مَوْتِهِ . إِنَّهُ أَبْلَهُ  
أَنَانِي دَائِمُ الثَّرَثَةِ بِتَفَاهَاتٍ عَنْ حَالَتِهِ الصَّحِيَّةِ . »

« هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الرِّجَالِ ، يَا بِيرْسِيْفَالِ ، يَعِيشُ طَوِيلًا ، ثُمَّ  
يَتَزَوَّجُ حِينَ لَا تَتَوَقَّعُ مِنْهُ ذَلِكَ . إِنَّ فُرْصَتَكَ فِي الْحُصُولِ عَلَى هَذَا  
الْمَبْلَغِ ضَمِيلَةٌ جِدًّا . أَلَدَيْكَ أَمَالٌ أُخْرَى ؟ »



« لا ، ما لم تَمُتْ زَوْجَتِي . »

« آه ، ما لم تَمُتْ . »

وَسَادَتْ فَتْرَةٌ صَمَتْ طَوِيلَةٌ ، وَنَهَضَ الْكَوْنَتُ لِيَتَمَشَّى خَارِجَ الشُّرْفَةِ . وَسَمِعَتْهُ يَقُولُ : « أَخِيرًا سَقَطَ الْمَطَرُ . » وَكَانَ الْمَطَرُ قَدْ سَقَطَ فِعْلًا ، وَرَاحَ يِلَّلُنِي .

وَعَاوَدَ الْجُلُوسَ

وَاسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا : « حَسَنًا ، يَا بِيرْسِيْقَال ، وَإِذَا مَاتَ عَلَامُ تَحْصُلُ ؟ »

« إِنَّ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا أَبْنَاءٌ ، فَإِنِّي أَحْصُلُ عَلَى عِشْرِينَ أَلْفَ جَنِيَّةٍ . »

« نَقْدًا ؟ »

« نَقْدًا . »

وَرَأَى عَلَيْهِمَا الصَّمْتَ ثَانِيَةً . وَأَلْقَى ظِلُّ مَدَامِ فَوْسَكُو بِعَتَمَةٍ عَلَى النَّافِذَةِ خَلْفِي ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَرْنِي .

قَالَ الْكَوْنَتُ : « بِيرْسِيْقَال ، أَتُهْمُكَ زَوْجَتَكَ ؟ »

« لِمَ تَنْظُرُ إِلَيَّ هَكَذَا ؟ »

« لَا تُرِيدُ أَنْ تُجِيبَنِي ؟ حَسَنًا . إِذَا ، لِنَقُلْ إِنَّهَا سَتَمُوتُ هَذَا الصَّيْفَ . »

« كَفَّ عَنْ هَذَا الْكَلَامِ ، يَا فَوْسَكُو ! أَقُولُ لَكَ كَفَّ عَنْهُ ! »  
« فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، سَتَحْصُلُ عَلَى عِشْرِينَ أَلْفَ جَنِيَّةٍ ، وَسَتَفْقِدُ فُرْصَتَكَ الضَّئِيلَةَ فِي الْحُصُولِ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ جَنِيَّةٍ سَنَوِيًّا . الْمَكْسَبُ أَكْبَرُ ، وَالْخَسَارَةُ مَشْكُوكٌ فِيهَا . »

« إِنَّ هَذَا يَعْنِيكَ ، يَا فَوْسَكُو ، مِثْلَمَا يَعْنِينِي . إِنَّ مَوْتَ زَوْجَتِي سَيَعُودُ عَلَى زَوْجَتِكَ بِعَشْرَةِ آلَافِ جَنِيَّةٍ ، وَيَبْدُو أَنَّكَ نَسِيتَ هَذَا . لَا تَنْظُرْ إِلَيَّ هَكَذَا ! لَنْ أَحْصُلَ عَلَيْهَا أَنَا . فِيمَ تُفَكِّرُ ؟ »  
« إِنِّي أَذْكُرُ مَوْتَ زَوْجَتِكَ كَمُجَرَّدِ احْتِمَالٍ . لِمَ لَا ؟ كُلُّ شَيْءٍ جَائِزٌ . »

وَانْطَفَأَ نُورُ غُرْفَةِ السَّيِّدَةِ فَوْسَكُو وَهُوَ يَتَحَدَّثُ ، فَازْدَادَتْ حُلْكَةُ الظُّلَامِ .

وَاسْتَرْسَلَ فَوْسَكُو قَائِلًا : « لَا تَقُلْ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا . أَتَرُكُ كُلَّ شَيْءٍ لِي . وَالْآنَ مَا هِيَ الْمَشْكِلَةُ الثَّانِيَّةُ ؟ أَمْ هِيَ عَنْ أَنَّ كَاتِيرِيكَ ؟ »

« أَصْغِ إِلَيَّ ، يَا فَوْسَكُو . لَقَدْ سَاعَدَ أَحَدُنَا الْآخَرَ فِي الْمَاضِي ،



وَلَكِنْ ، بِالطَّبَعِ ، كَانَ كُلُّ مَنَا يَحْتَفِظُ بِأَسْرَارِهِ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟  
« إِنَّكَ تَكْتُمُ سِرًّا عَنِّي ، وَلَكِنِّي لَمْ وَلَنْ أَحَاوِلْ أَنْ أَكْشِفَهُ .  
وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي فُضُولِي . أَلَا تُرِيدُ أَنْ تَقُولَهُ لِي ؟  
« نَعَمْ .

« إِذَا فَقَدْ تَخَلَّيْتُ عَنْ فُضُولِي . إِنِّي أَقْدَسُ الصَّدَاقَةِ ،  
يَا بِيرْسِيغَال ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْشِفَ سِرَّكَ ، وَلَكِنِّي لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ .  
إِنِّي صَدِيقُكَ . هَيَّا تَتَصَافَحْ . إِنِّي أَسَامِحُكَ . » وَبَدَأَ صَوْتُهُ وَكَانَهُ  
يَنْتَحِبُ كَامْرَأَةٍ .

« أَنْبِئْنِي فَقَطْ بِمَا تَسْتَطِيعُهُ ، وَسَأُسَاعِدُكَ . »

« حَسَنًا ، لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ الْيَوْمَ أَنَّنِي بَدَلْتُ مَا فِي وَسْعِي لِلْعُثُورِ  
عَلَى أَنْ كَاثِيرِيك ، وَلَكِنِّي فَشِلْتُ . فَوْسَكُو ، سَأُضِيعُ إِنْ لَمْ أَحْجِذْهَا !  
إِنَّهُ أَمْرٌ خَطِيرٌ جِدًّا ! لَقَدْ أَرَيْتُكَ تِلْكَ الرِّسَالَةَ الَّتِي وَجَدْتَهَا فِي الرَّمَالِ ،  
وَمَا تَقُولُهُ صَحِيحٌ . إِنَّهَا ، فِعْلًا ، تَعْرِفُ السِّرَّ . »

« هَلْ عَرَفْتَهُ مِنْكَ ؟ »

« لَا ، مِنْ أُمِّهَا . »

« امْرَأَتَانِ تَعْرِفَانِهِ ! شَنِيعٌ ! شَنِيعٌ ! شَنِيعٌ ، يَا صَدِيقِي . لَقَدْ

فَهَمْتُ لِمَ أَوْدَعْتُهَا مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَلَكِنَّهَا هَرَبَتْ .  
« نَعَمْ ، وَهِيَ الْآنَ بِالْقُرْبِ مِنْ بِلَا كُووتر . أَنَا وَاثِقٌ أَنَّهَا قَدْ  
بَاَحَتْ بِالسِّرِّ لِرُزُوجَتِي . »

« وَلَكِنْ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ لِيْدِي غَلَايِدَ لَنْ تَقُولَهُ لِأَحَدٍ . »

« يَا عَزِيزِي فَوْسَكُو ، أَنَا لَا أَهْمِيَّةَ لِي عِنْدَهَا . إِنَّهَا تُحِبُّ رَجُلًا  
آخَرَ ، رَجُلًا اسْمُهُ هَارْتَرَايت ، سَاعَدَ أَنْ كَاثِيرِيكَ عِنْدَمَا هَرَبَتْ .  
كَمَا رَأَاهَا فِي كِمْبِرْلَانْد ، وَتَحَدَّثَ إِلَيْهَا عَلَى انْفِرَادٍ فِي كِلْتَا  
الْمَرَّتَيْنِ . إِنَّهُ يُحِبُّ زَوْجَتِي ، وَيَعْرِفُ السِّرَّ ، وَكَذَلِكَ هِيَ ؛ فَإِنْ هُمَا  
تَقَابَلَا مَرَّةً ثَانِيَةً ، فَسَيَسْتَخْدِمَانِهِ ضِدِّي . زَوْجَتِي وَحْدَهَا لَنْ تَفْعَلَ  
شَيْئًا . وَلَكِنْ إِنْ تَقَابَلَا ... »

« نَعَمْ ، نَعَمْ . أَيْنَ هَارْتَرَايت الْآنَ ؟ »

« خَارِجَ الْقَطْرِ . لَقَدْ كَلَّفْتُ مَنْ يُرَاقِبُهُ . وَلَكِنِّي كُنْتُ حَرِيصًا ،  
يَا فَوْسَكُو ؛ فَقَدْ أَعْطَيْتُ السَّيِّدَةَ كَاثِيرِيكَ خِطَابًا لِنَتَسَخُّهُ وَتُرْسِلَهُ إِلَى  
الْأَنَسَةِ هَالْكُومِ ، تَقُولُ فِيهِ إِنِّي تَصَرَّفْتُ بِشَرَفٍ حِينَ أَوْدَعْتُ ابْنَتَهَا  
مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ . لَقَدْ حَاوَلْتُ الْعُثُورَ عَلَيْهَا وَفَشِلْتُ .  
وَالْآنَ هَا هِيَ ذِي تَأْتِي إِلَيَّ هُنَا ، وَقَدْ تُخْبِرُ أَيَّ شَخْصٍ ، وَقَدْ يَعُودُ  
هَارْتَرَايت وَيُقَابِلُهَا . »



« لا ، يا بيرسيغال ، سأجدها قبل أن يعود هارترايت ويقابلها . لا بد لي من ذلك . ما شكلها ؟ »

« أستطيع أن أقول باختصار إنها تشبه زوجتي بعد مرض طويل . »

وتحرك المقعد فجأة ، وهب فوسكو واقفاً وصاح : « ماذا ؟ »

« تصور زوجتي بعد مرض خطير ، فتكون هي أن كاثيريك . »

وأخذ الكونت يقهقه ضاحكاً .

قال : « حسن ، حسن . سأعرفها عندما أراها . هون عليك . نم جيداً ، ثم انظر ما سأفعله من أجلك صباح الغد . هيا نتصافح ثانية . نعمت مساء . »

لم يتفوهها بكلمة أخرى . وسمعت الكونت يغلق بابه . وكان المطر ينهمر طوال الوقت . وكنت أشعر ببرودة قارسة وبلل بملابسي حتى إنني وجدت مشقة في حركتي . وزحفت بصعوبة عائدة إلى نافذتي والساعة تدق الواحدة إلا ربعا ، وأنا أحمد الله على أنني لم أر أو أسمع شيئا يجعلني أشك في أن أحداً كان يراقبني .

وهويت في الظلام ، على أرض عرقتي وأنا ارتعد من البرد ، وقد بللني المطر من قمة الرأس إلى أخمص القدمين . كنت نهبا

للخوف والفزع . ثم ... بطريقة ما ، نهضت ، وأشعلت شمعة ، وبحشت عن بعض ملابس جافة أتدثر بها لتدفئني . وزال البرد عني ، وبدأت أشعر بحرارة شديدة .

كنت مصممة على كتابة كلمات هذين الرجلين وأنا لا أزال أتذكرها ؛ فحديثهما سيهيئ لنا سببا وجيها لمغادرة البيت ، كما أنه سيكون سلاح دفاع ضدهما . كان علي أن أسجل حديثهما فورا قبل أن أنساه ، وهذا ما فعلته . وقضت الساعة تلو الساعة ، وأنا جالسة إلى جوار النافذة المفتوحة ؛ لاستنشاق ما أستطيع من هواء لعله يخفف من حرارتي . ورحت أكتب على نحو أسرع وأسرع وأنا أشعر بحرارتي ترتفع أكثر وأكثر ؛ حتى أنبلج نور الصباح . وبدأت أشعر بالقلق . كنت أريد أن اضطجع في فراشي . وكانت حرارتي مزعجة ، ولكنني حين اضطجعت ما كنت لأدري إن كنت سأستطيع النهوض ثانية أم لا . آه . المطر ! المطر ! أ كنت سأقع فريسة للمرض في وقت كهذا ؟

أعرف الآن أنني كنت مريضة ، وأنني كنت مصابة بحمى خطيرة ، وأن الكونت رأى كل ما كتبت . كما أعرف الآن أشياء أخرى كثيرة . أعرف أن الكونت ذهب لزيارة السيد فيرلي بعد أن سلمته فاني خطابي ، وأقنعه أن يكتب إلى لورا يدعوها للمجيء



إلى ليميريدج. وأَعْرِفُ أَنَّ الكونتيسة ذَهَبَتْ إِلَى الفَنْدُقِ لِرُؤْيَةِ فاني ،  
وَأَنَّهَا حَدَّثَتْهَا ، وَغَيَّرَتْ خِطَابِي لِلْمُحَامِي بِوَرَقَةٍ بَيْضَاءَ .

وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا ، عَلَى الإِطْلَاقِ ، فِي ذَلِكَ  
الصَّبَاحِ عِنْدَمَا دَاهَمَتْنِي الْحُمَى .

## إليزا ميتشلسن ، مديرة البيت في بلاكووتر بارك ، تواصل القصة الفصل الرابع عشر

لَقَدْ طُلِبَ مِنِّي أَنْ أَقُولَ مَا أَعْرِفُهُ عَنْ مَرَضِ الْآنِسَةِ هَالْكُومِ ،  
وَعَنِ الْأَيَّامِ السَّابِقَةِ لِمُغَادَرَتِي بِلاكووتر بارك . لَمْ أَكُنْ أَكْتُبُ أَيَّ  
مَذْكُرَاتٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ؛ لِذَا فَإِنِّي لَسْتُ وَاثِقَةً مِنْ تَوَارِيخِ  
الْأَحْدَاثِ ، وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ الْآنِسَةَ هَالْكُومِ مَرَضَتْ فِي نِهَآيَةِ شَهْرِ  
يُونِيَةِ تَقْرِيْبًا .

لَمْ تَأْتِ لِنَتَنَاوُلِ إِفْطَارَهَا ، وَنَزَلَ الْخَادِمُ الَّذِي أُرْسِلَ لِنَادِيهَا وَهُوَ  
يَرْتَجِفُ خَوْفًا ، فَصَعِدْتُ إِلَى الطَّابَقِ الْعُلَوِيِّ ، وَإِذْ بِي أَجْدُ الْمِسْكِينَةَ  
تَتَجَوَّلُ مَحْمُومَةً فِي عُرْفَتِهَا وَتُمْسِكُ بِقَلَمٍ فِي يَدِهَا . وَجَاءَتْ لِيَدِي  
غَلَايِدَ ، وَلَكِنْ مَظْهَرَ أَخْتِهَا الْمَحْمُومِ أَصَابَهَا بِاضْطِرَابٍ شَدِيدٍ جَعَلَهَا  
عَدِيمَةً الْفَائِدَةِ تَمَامًا ، عَلَى أَنَّ كُنتِ فُوسْكُو وَزَوْجَتُهُ كَانَا نَافِعَيْنِ  
وَكَرِيمَيْنِ . سَاعَدَتْنِي الْكُوتَيْسَةُ عَلَى أَنْ أَرْقُدَ الْآنِسَةَ هَالْكُومِ فِي  
فِرَاشِهَا ، وَاسْتَدْعَيْنَا أَقْرَبَ طَبِيبٍ لَنَا وَهُوَ السَّيِّدُ دُوسَنُ قُورًا .



وَصَلَ السَّيِّدُ دوسن فِي أَقَلِّ مِنْ سَاعَةٍ . كَانَ رَجُلًا مُحْتَرَمًا وَمَعْرُوفًا . وَأَسَفْنَا جَمِيعًا حِينَ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ إِنَّ حَالَهَا كَانَتْ جِدَّ خَطِيرَةً . وَأَبْدَى لَهُ الْكَوْنَتَ ، بِأَدَبٍ ، رَأْيَهُ فِي مَرَضِهَا ، وَلَكِنَّ السَّيِّدَ دوسن رَفُضَ - بِوَقَاحَةٍ - أَنْ يُنَاقِشَ الْأَمْرَ مَعَهُ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنَا بَدَلْنَا كُلَّ وَصْفِنَا ، فَقَدْ قُضِيَ الْآنَسَةُ هَالِكُومَ لَيْلَةً مُزَعِجَةً . وَفِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ التَّالِيِ كَانَ سِير بِيرسيغال فِي غَايَةِ الْقَلَقِ ، لَمْ يُعَامِلْنِي بِأَدَبٍ كَمَا كَانَ يُعَامِلُنِي الْكَوْنَتُ الَّذِي كَانَ يَمْتَازُ بِسُلُوكِ النَّبَلَاءِ الْخُلَصِ ، وَيَبْدُو هَادِنًا دَائِمًا . وَقُمْتُ أَنَا وَالْكَوْنَتِيسَةُ بِتَمْرِضِ الْآنَسَةِ هَالِكُومَ . وَجَلَسْتُ لِيَدِي غَلَايِدَ مَعَنَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنَا تَوَسَّلْنَا إِلَيْهَا أَنْ تَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ . وَلَمْ تَزِدْ عَلَى تَرْدِيدِ قَوْلِهَا : « إِنَّ مَكَانِي بِجَانِبِ أُخْتِي » .

وَذَاتَ يَوْمٍ وَجَدْتُ الْكَوْنَتَ فِي أَحْسَنِ حَالَتِهِ الْمِزَاجِيَّةِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمَرِيضَةَ لَمْ تَكُنْ قَدْ تَحَسَّنَتْ . وَلَمَّا سَمِعَهُ سِير بِيرسيغال فِي الْقَاعَةِ أَطْلَ بِرَأْسِهِ مِنْ بَابِ الْمَكْتَبَةِ ، وَسَأَلَهُ مُتَلَهِّفًا : « هَلْ وَجَدْتَهَا ؟ »

وَرَأَيْتُ وَجْهَهُ يَتَهَلَّلُ بِشَرًّا . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ حَقِّي ، بِحُكْمِ وَظِيفَتِي ، أَنْ أَنْصِتَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي تَسَاءَلْتُ ، تُرَى مَاذَا تَعْنِي هَذِهِ الْكَلِمَاتُ ؟

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ رَحَلَتِ الْكَوْنَتِيسَةُ إِلَى لُنْدَنِ ، وَبَقِيَتْ وَحْدِي لِرِعَايَةِ الْآنَسَةِ هَالِكُومَ . كَانَ يَبْدُو أَنَّهَا تَتَحَسَّنُ بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخْشَى أَنَّهُ سَيَتَعَيَّنُ عَلَيَّ أَنْ أَقُومَ بِتَمْرِضِ لِيَدِي غَلَايِدَ هِيَ الْأُخْرَى ؛ فَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهَا الْمَرَضُ ، وَكَانَتْ تَرْفُضُ الْخُلُودَ إِلَى الرَّاحَةِ .

وَمَرَّةً ثَانِيَةً اخْتَلَفَ الْكَوْنَتُ وَالطَّبِيبُ حَوْلَ الْعِلَاجِ الْمُسْتَعْدَمِ . ذَكَرَ الْكَوْنَتُ الطَّبِيبَ بِأَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ بَعِيدًا عَنْ مَرَاكِزِ التَّعْلِيمِ الطَّبِيِّ - لُنْدَنِ وَبَارِيسَ ، وَرَدَّ عَلَيْهِ الطَّبِيبُ بِكُلِّ وَقَاحَةٍ وَشَرَاسَةٍ . وَلَكِنَّ الْكَوْنَتَ ظَلَّ مُحْتَفِظًا بِهَدُوءِهِ الْمَعْهُودِ ، وَانْصَرَفَ بَعْدَ أَنْ حَيَّاهُ بِالطَّفِ قَائِلًا : « نَعِمْتُ صَبَاحًا » .

كَانَ أَحَدَ الْأَسْبَابِ الَّتِي اسْتَدْعَتْ سَفَرَ الْكَوْنَتِيسَةِ إِلَى لُنْدَنِ أَنْ تُحْضِرَ مَعَهَا مُمْرِضَةً لِلْمَرِيضَةِ . وَعَادَتْ وَمَعَهَا سَيِّدَةٌ تُدْعَى السَّيِّدَةُ رِيوبَلُ ، وَكَانَتْ امْرَأَةً أَجْنَبِيَّةً .

يَجِبُ أَلَّا أَقْسُو عَلَيْهَا ، لِذَا لَنْ أَقُولَ إِنَّ السَّيِّدَةَ رِيوبَلُ كَانَتْ تَبْدُو امْرَأَةً خَبِيثَةً خَسِيسَةً ، تُنَاهِزُ الْخَمْسِينَ مِنْ عُمْرِهَا . كَانَتْ ذَاتَ بَشَرَةٍ سَمَاءٍ وَعَيْنَيْنِ رَمَادِيَّتَيْنِ مَتِيقِظَتَيْنِ . وَلَكِنْ أَذْكَرُ أَنَّي ظَنَنْتُ أَنَّ مَلَابِسَهَا كَانَتْ غَالِيَةَ الثَّمَنِ عَلَى نَحْوِ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ امْرَأَةٍ فِي وَضْعِهَا الْاجْتِمَاعِيِّ . كُلُّ مَا سَأَذْكُرُهُ هُوَ أَنَّ سُلُوكَهَا كَانَ فِي غَايَةِ



الهدوء . تَلَقَّتْ حَوْلَهَا كَثِيرًا ثُمَّ تَكَلَّمَتْ بِضَعِ كَلِمَاتٍ لِتُخْبِرَنِي  
أَنَّهُ لَنْ تَتَنَاوَلَ الْعِشَاءَ مَعِي فِي عُرْفَتِي .

وَأَقْتَرَحَتْ الْكَوْنَتِيْسَةُ أَنْ تَبْدَأَ الْمُرْضَةُ مُهِمَّتَهَا بَعْدَ أَنْ يَرَاهَا  
الطَّيِّبُ صَبَاحَ الْيَوْمِ التَّالِي . وَلَكِنْ كَانَ يَبْدُو أَنَّ لِيَدِي غَلَايِدَ لَمْ  
تَكُنْ تَرَعِبُ فِي أَنْ تَدْعَاهَا تَقُومُ بِتَمْرِیْضِ الْآنِسَةِ هَالِكُومَ ، وَأَخَذَتْ  
تَتَنَهَّدُ بِحَزْنٍ ، وَتَقْبَلُ يَدَ الْمَرْیِضَةِ وَهِيَ رَاقِدَةٌ فِي سَرِيرِهَا . لَمْ يَكُنْ  
هَذَا مِنَ الْحِكْمَةِ فِي شَيْءٍ فِي عُرْفَةِ التَّمْرِیْضِ ، وَلَكِنْ يُؤَسِّفُنِي أَنْ  
أَقُولَ إِنَّ لِيَدِي غَلَايِدَ لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ التَّمْرِیْضِ .

وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِي ، اسْتَدْعَانِي الطَّيِّبُ وَقَالَ : « بِخُصُوصِ هَذِهِ  
الْمُرْضَةِ الْجَدِيدَةِ ، يَا سَيِّدَةَ مِيتْسَلْسَن ، أَعْلَمُ أَنَّ زَوْجَةَ ذَلِكَ الْأَجْنَبِيِّ  
الْعَجُوزِ الْبَدِينِ ، الَّذِي يُحَاوِلُ دَائِمًا أَنْ يَتَدَخَّلَ فِي عَمَلِي ، هِيَ الَّتِي  
أَحْضَرْتَهَا إِلَى هُنَا مِنْ لُنْدَن . »

كَانَ هَذَا فِي مُنْتَهَى الْوَقَاحَةِ ، فَصُدِمْتُ .

قُلْتُ : « أَتَعْرِفُ ، يَا سَيِّدِي ، أَنَّهُ يَحْمِلُ لَقَبَ نَيْبِل ؟ »

« وَلَوْ ! إِنَّهُمْ كُلُّهُمْ نُبْلَاءُ ، هَؤُلَاءِ الْأَجَانِبُ ، وَأَعْتَرِضُ عَلَى أَنْ  
تَكُونَ السَّيِّدَةُ رِيُوبَلُ مُرْضَةٍ لِلْآنِسَةِ هَالِكُومَ . قَدْ تَكُونُ مُرْضَةً  
مَاهِرَةً وَلَكِنْ لَمْ آتِ أَنَا بِهَا . لَقَدْ أَخْبَرْتُ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ بِذَلِكَ ،

وَلَكِنَّهُ رَدَّ بِأَنَّ الْمُرْضَةَ الَّتِي سَاجِيءُ بِهَا مِنْ لُنْدَنَ سَتَكُونُ غَرِيبَةً هِيَ  
الْأُخْرَى . إِنَّهُ يَقُولُ : « فَلَنَجْرِبْهَا . » لِذَا أُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تُسَلِّطِي  
نَظْرَكَ عَلَيْهَا . هَذَا الْأَجْنَبِيُّ الْبَدِينُ يُرِيدُ أَنْ يُجَرِّبَ أَدْوِيَّتَهُ هُوَ عَلَى  
الْمَرْیِضَةِ ، وَقَدْ تَكُونُ مُرْضَةُ زَوْجَتِهِ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِمُسَاعَدَتِهِ . يَجِبُ  
أَلَّا تَأْخُذَ الْآنِسَةُ هَالِكُومَ دَوَاءً غَيْرَ دَوَائِي . أَتَفْهَمِينَ ؟ »

أَجَبْتُ : « نَعَمْ ، يَا سَيِّدَ دُوسَن . »

وَأَقْتَدْنَا السَّيِّدَةَ رِيُوبَلَ إِلَى عُرْفَةِ النَّوْمِ حَيْثُ جَلَسْتُ فِي هُدُوءٍ فِي  
النَّظَارِ طَلَبْنَا لَهَا . وَكَانَ يَبْدُو أَنَّهَا تَفْهَمُ عَمَلَهَا جَيِّدًا ، فَقَدْ كَانَتْ  
مِثْلِي ، تُحَسِّنُ السَّهْرَ عَلَى خِدْمَةِ الْمَرْضَى .

وَأَخَذْتُ طَوَالَ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ أَوْ الْأَرْبَعَةِ التَّالِيَةِ أَرَاقِبُهَا بِاهْتِمَامٍ  
كَبِيرٍ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَرِ شَيْئًا يَدْعُو لِلرَّيَّةِ . كَانَتْ حَقًّا مُرْضَةً مَاهِرَةً ،  
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قِلَّةِ كَلَامِهَا ، وَعَدَمِ إِصْغَائِهَا إِلَى النَّصَحِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ تَغَيَّبَ الْكَوْنَتُ فِي بَعْضِ أَعْمَالِهِ ، وَلَكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ  
يَرْحَلَ تَحَدَّثَ بِكُلِّ جَدِّيَّةٍ إِلَى لِيَدِي غَلَايِدَ فِي حُضُورِي عَنْ  
الْمَرْیِضَةِ ، قَالَ : « ثَقِي بِالسَّيِّدِ دُوسَنَ بِضَعَةِ أَيَّامٍ أُخْرَى ، وَلَكِنْ إِنْ  
لَمْ تَتَحَسَّنْ فَابْعَثِي فِي طَلَبِ طَيِّبٍ آخَرَ مِنْ لُنْدَن . »

وَبَدَا الدُّعْرُ عَلَى لِيَدِي غَلَايِدَ . وَبَعْدَ أَنْ انْصَرَفَ التَّمَتُّ إِلَى



وَسَأَلْتَنِي : « أَ تَظُنِّينَ أَنَّ السَّيِّدَ دُوسَنَ مُخْطِئٌ ؟ لَقَدْ أَخْبَرَنِي صَبَاحَ الْيَوْمِ أَنَّ لَيْسَ ثَمَّةَ خَطَرٍ ، وَلَا دَاعِيٍّ لاسْتِدْعَاءِ طَبِيبٍ آخَرَ . »

أَجَبْتُ : « لَوْ أَنَّنِي كُنْتُ فِي مَكَانِ سَيَادَتِكَ ، لَتَذَكَّرْتُ نَصِيحَةَ الْكَوْنَتِ . »

وَكُرَّرْتُ تَقُولَ لِنَفْسِهَا : « نَصِيحَتَهُ ! نَصِيحَتَهُ ! كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِنَا ! »

وَتَغَيَّبَ الْكَوْنَتِ حَوْلِي أَسْبُوعٌ ، وَكَانَ سِيرُ بِيرْسِفَالِ ، طَوَالَ الْوَقْتِ ، قَلِقًا مَكْتِئِبًا ، يَذَرُغُ الْمُنْطَقَةَ الْمُحِيطَةَ بِالْبَيْتِ جِيئَةً وَذَهَابًا . أَظُنُّ أَنَّ قَلْبَهُ قَدْ رَقَّ كَثِيرًا ؛ فَقَدْ كَانَ دَائِمَ السُّؤَالِ عَنِ الْآنِسَةِ هَالِكُومِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ ، لَاحِظْنَا تَدَهُورَ صِحَّتِهَا ، وَرَأَى السَّيِّدُ دُوسَنَ ذَلِكَ قَوْرَ مَجِيئِهِ . وَبِنَاءً عَلَى نَصِيحَتِهِ ، أُرْسِلَ أَحَدُ الْخَدَمِ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ إِلَى لَنْدَنَ لِإِحْضَارِ طَبِيبٍ آخَرَ ، بِأَوَّلِ قِطَارٍ قَادِمٍ ، وَبَعْدَ رَحِيلِ الْخَادِمِ بِنِصْفِ سَاعَةٍ ، عَادَ الْكَوْنَتِ ، وَجَاءَتْ بِهِ الْكَوْنَتِيسَةُ فِي الْحَالِ لِرُؤْيَةِ الْمَرِيضَةِ ، وَلَكِنَّهُ حِينَ اقْتَرَبَ مِنْ سَرِيرِهَا تَعَلَّقَتْ عَيْنَا الْآنِسَةِ هَالِكُومِ بِوَجْهِهِ فِي فَرْعٍ . وَكَانَ يَبْدُو أَنَّهَا غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلَى التَّعَرُّفِ عَلَى أَصْدِقَائِهَا .

وَسَأَلَ الْكَوْنَتِ أَسْئَلَةً كَثِيرَةً ، وَدَخَلَ هُوَ وَالسَّيِّدُ دُوسَنُ فِي نِقَاشٍ جَدِيدٍ حَوْلَ مَرَضِهَا ، ثُمَّ وَصَلَ الطَّبِيبُ مِنْ لَنْدَنَ ، وَابْتَدَأَ آرَاءَ الْكَوْنَتِ وَابْتَدَى رَأْيًا خَطِيرًا عَنْ حَالَتِهَا .

وَمَضَتْ عَشْرَةُ أَيَّامٍ قَبْلَ أَنْ تَتَحَسَّنَ حَالَةُ الْمَرِيضَةِ ، وَهُنَا فَقَطُ قَرَّرَ الطَّبِيبُ أَنَّهَا جَاوَزَتْ مَرَحَلَةَ الْخَطَرِ ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّهَا لَمْ تَعُدْ بِحَاجَةٍ إِلَى خِدْمَاتِ طَبِيبٍ . لَمْ يَكُنِ الْمَطْلُوبُ سِوَى التَّمْرِيطِ الْجَيِّدِ .

وَكَانَ الْخَبَرُ السَّارُّ أَكْثَرَ مِمَّا اسْتَطَاعَتْ لِيَدِي غَلَايِدُ أَنْ تَتَحَمَّلَهُ ، فَاهْتَزَّتْ أَعْصَابُهَا . وَقَرَّرَ دُوسَنُ أَنَّهَا كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى الرَّاحَةِ وَتَغْيِيرِ الْهَوَاءِ . وَمِنْ حُسْنِ الْحِظِّ أَنَّ حَالَتَهَا لَمْ تَسُوءْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ نَشِبَ فِي نَفْسِ الْيَوْمِ شَجَارٌ عَنيفٌ بَيْنَ الطَّبِيبِ وَالْكَوْنَتِ ، وَكَانَ هَذِهِ الْمَرَّةَ ، فِي غَايَةِ الْعُنْفِ حَتَّى إِنَّ السَّيِّدَ دُوسَنَ غَادَرَ الْبَيْتَ ، وَأُرْسِلَ فَانْتَوَرَةً أَتْعَابِهِ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ ، فَصَرْنَا بِدُونِ طَبِيبٍ يُقَدِّمُ لَنَا النُّصَحَ وَالْمَشُورَةَ .

وَوَقَعَ حَدَثٌ هَامٌّ آخَرَ فِي الْيَوْمِ نَفْسِهِ ؛ اسْتَدْعَانِي سِيرُ بِيرْسِفَالِ وَأَمَرَنِي أَنْ أَفْصِلَ كُلَّ الْخَدَمِ فَوْرًا مَا عَدَا مَارْغَرِتَ بُورْتَشِرَ ، وَتَمَلَّكْتَنِي الدَّهْشَةُ ؛ فَقَالَ لِي إِنَّهُ مُضْطَرٌّ لِأَنْ يَخْفِضَ نَفَقَاتِهِ ، وَإِنَّهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَى بَيْعِ كُلِّ جِيَادِهِ مَا عَدَا وَاحِدًا ، وَالتَّخَلُّصِ مِمَّا أَسْمَاهُ مَجْمُوعَةً « كَسُولَةً » مِنَ الْخَدَمِ الَّذِينَ كَانُوا يَأْكُلُونَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي .



وَضَبَطْتُ مَشَاعِرِي وَنَفَذْتُ طَلِبَاتِهِ . وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي ، رَحَلُوا جَمِيعُهُمْ ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ الْأُسْرَةِ سِوَايَ وَالْمَرْمُضَةِ وَمَارْغَرِيتِ بورتشر وَالبُسْتَانِي . وَكَانَ ظَرْفًا غَرِيبًا بِالنِّسْبَةِ لِي ؛ فَرَبَّةُ الْبَيْتِ مَرِيضَةٌ فِي سَرِيرِهَا ، وَالْآنِسَةُ هَالْكُومُ عَاجِزَةٌ كَطِفْلَةٍ ، وَلَا طَبِيبَ لَدَيْنَا . كُنْتُ قَلِقَةً وَمُكْتَئِبَةً ، وَتَمَنَيْتُ أَوْ أَنَّي كُنْتُ بَعِيدَةً عَنْ بِلَا كُووتر بَارَك .

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي أَرْسَلَنِي سِير بيرسيغال إِلَى توركاي لِلْبَحْثِ عَنْ مَنْزِلٍ مُنَاسِبٍ لِلْيَدِي غَلَايِدِ وَالْآنِسَةِ هَالْكُومِ ، لِيُقِيمَا فِيهِ لِبَعْضِ الْوَقْتِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُرِيدُ بَيْتًا كَبِيرًا عَلَى حِينٍ كَانَ مَا خَصَّصَهُ مِنْ إِيحَارٍ لَهُ قَلِيلًا جِدًّا ، حَتَّى إِنِّي أَدْرَكْتُ مِنَ الْبِدَايَةِ أَنَّ لَيْسَ ثَمَّةَ أَمَلٍ فِي الْعُثُورِ عَلَى مَا يُرِيدُهُ ، وَاضْطُرَرْتُ إِلَى الْعُودَةِ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ لِأَقُولَ لَهُ إِنِّي فَشِلْتُ فِي مُهِمَّتِي ، وَلَكِنَّهُ بَدَأَ مَشْغُولًا بِأَمْرِ آخَرَ ؛ فَلَمْ يُعِرْ فُشْلِي أَيَّاهُ أَهْتِمَامًا . كَانَتْ أُولَى كَلِمَاتِهِ لِي أَنَّ الْكُونْتَ وَالْكُونْتِيسَةَ قَدْ رَحَلَا لِيُقِيمَا فِي لَنْدَن . وَسَأَلْتُ إِنْ كَانَ لَدَى لِيَدِي غَلَايِدِ أَحَدٌ لِيُعْنَى بِهَا بَعْدَ رَحِيلِ الْكُونْتِيسَةِ ، فَقَالَ إِنْ مَارْغَرِيتِ بورتشر تَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهَا .

وَصَدَمْتَنِي الْإِجَابَةُ حَقًّا ، وَصَعِدْتُ إِلَى الطَّابَقِ الْعُلَوِيِّ لِتَوَي ، فَوَجَدْتُ - وَكَانَ هَذَا أَمْرًا طَبِيعِيًّا أَنَّ لِيَدِي غَلَايِدِ قَدْ طَرَدَتِ الْفَتَاةَ . كَانَتْ أَحْسَنَ حَالًا ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِبَعْضِ الْقَلْقِ عَلَى الْآنِسَةِ

هَالْكُومِ ، إِذْ لَمْ يَصِلْهَا أَخْبَارُ عَنْهَا ، لِذَا سَاعَدَتْهَا عَلَى ارْتِدَاءِ مَلَابِسِهَا ، وَمَضَيْنَا فِي طَرِيقِنَا إِلَى غُرْفَةِ الْآنِسَةِ هَالْكُومِ .

وَاسْتَوْقَفْنَا سِير بيرسيغال فِي الْمَمَرِ ، وَسَأَلَ لِيَدِي غَلَايِدِ : « إِلَى أَيْنَ أَنْتِ ذَاهِبَةٌ ؟ »

« إِلَى غُرْفَةِ مَارِيَان . »

« لَنْ تَجِدِيهَا . لَقَدْ غَادَرَتِ الْبَيْتَ بِالْأَمْسِ مَعَ فُوسْكَو وَزَوْجَتِهِ . »

لَمْ تَكُنْ لِيَدِي غَلَايِدِ مِنَ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ تَتَحَمَّلُ مُفَاجَأَةَ هَذَا النَّبَأِ ؛ أَمْتَقَعَ لَوْثُهَا ، وَاسْتَنْدَتْ فِي وَهْنٍ إِلَى الْحَائِطِ وَرَاءَهَا وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى زَوْجِهَا فِي صَمْتٍ مُطْبِقٍ ، ثُمَّ أَفَاقَتْ مِنْ صَدَمَتِهَا .

وَقَالَتْ : « مُسْتَحِيلٌ . أَيْنَ كَانَ الطَّبِيبُ ؟ »

« لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا . لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ حَاجَةٍ إِلَيْهِ . رَحَلَ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ ، وَهَذَا يُثَبِّتُ أَنَّ حَالَتَهَا كَانَتْ تُمَكِّنُهَا مِنَ السَّفَرِ . إِنْ كُنْتُ لَا تُصَدِّقِينَنِي ، فَأَبْحَثِي عَنْهَا بِنَفْسِكَ . »

وَبَحَثْنَا عَنْهَا فِي غُرْفَتِهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ ، وَلَا فِي آيَةِ غُرْفَةٍ بِالْقُرْبِ مِنْهَا . وَعِنْدَمَا خَرَجْنَا مِنَ الْغُرْفَةِ الْآخِرَةِ ، سَأَلْتُ لِيَدِي غَلَايِدِ زَوْجَهَا : « أَيْنَ ذَهَبَتْ أَخْتِي ؟ »



« إلى لندن ، في طريقها إلى ليميريدج . إن معها ثلاثة أشخاص يُعْنَوْنَ بها : فوسكو وعمتك والسيدة ريوبل . وستذهب اليوم إلى ليميريدج . »

« لم تذهب إلى ليميريدج وتركتني هنا وحدي ؟ »

« لأن عمك لن يستقبلك حتى يراها أولاً . »

واعتروقت عينا ليدي غلايد بالدموع ، وقالت : « إنها لم تفرق عني ، في يوم من الأيام ، دون وداعي . »

وتركتنا سير بيرسيغال فجأة . كان في غاية الغرابة وهو يكلمنا . كان يبدو في مثل قلق زوجته وعصبيتها .

قالت لي : « لقد حدث شيء ما لأختي . يجب أن ألحق بها ، وأرى بعيني رأسي أنها على قيد الحياة ، وأنها بخير . تعالي معي إلى الطابق الأرضي لرؤية سير بيرسيغال . »

ووجدناه يجلس أمام المائدة ، وأمامه قَدَح من الشراب . وحاولت أن اعتذر عن وجودي هناك .

سأل على نحو غريب : « أظن أن هناك أسراراً ؟ ليس ثمة أسرار . لا شيء أخفيه عنك أو عن أي أحد آخر . » ثم ملاً قَدَحَهُ ثانية ، وسأل ليدي غلايد عما تريد .

قالت : « إن كانت أختي قادرة على السفر ، فإنني قادرة عليه كذلك . دعني ألحق بها فوراً بقطار عصر اليوم . »

أجاب : « عليك أن تنتظري حتى الغد . سأكتب الليلة لفوسكو . »

سألت مستغربة : « ولم تكتب إلى كونت فوسكو ؟ »

« لأطلب إليه أن ينتظرك . سيقابلك بالمحطة ، وتستطيعين أن تبتي بيت عمك . »

وراحت ليدي غلايد ترتجف وهي تقول : « لست في حاجة إلى ذلك . أفضل ألا أبيت في لندن . »

« بل لا بد لك من ذلك ، فأنت لا تستطيعين السفر طوال الطريق إلى كمبرلاند في يوم واحد . ثم إنها رغبة عمك . انظري ، ها هو ذا خطابه . »

ونظرت ليدي غلايد إلى الخطاب لحظة ، ثم ناولتني إياه .

وقالت في وهن : « اقْرئيه . لا أعرف ماذا حدث لي . لا أستطيع أن أقرأه بنفسي . »

كان - إن لم تكن ذاكرتي قد خائنتني - كما يلي :



« عَزَيْزَتِي لورا - أَرْجُو أَنْ تَأْتِي إِلَيْنَا فِي أَيِّ وَقْتٍ تَشَاءِينَ .  
خَفَّفِي مِنْ مَتَاعِبِ الرِّحْلَةِ بِالمَبِيتِ فِي بَيْتِ عَمَّتِكَ . آسِفٌ لِمَرَضِ  
العَزِيزَةِ مَارِيَان . »

عَمُّكَ المَحَبُّ

فريدريك فيرلي

قَالَتْ : « أَفْضَلُ أَلَا أَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ . أَفْضَلُ أَلَا آيَتِ اللَّيْلِ  
فِي لَنْدَن . أَرْجُوكَ أَلَا تَكْتُبَ إِلَيَّ كَوْنْتُ فَوْسَكُو . أَرْجُوكَ لَا تَكْتُبَ  
إِلَيْهِ . »

كَانَ سِير بِيرْسِيْفَال لَا يَزَالُ عَصِيْبًا ، فَعِنْدَمَا أَخَذَ يَصُبُّ المَزِيدَ مِنَ  
الشَّرَابِ ، أَرَأَى بَعْضًا مِنْهُ عَلَى المَائِدَةِ .

وَسَأَلَ : « وَلَمْ لَا ؟ فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ يُمَكِّنُكَ المَبِيتُ ؟ لَا  
تُجَادِلِي فِي هَذَا . لَقَدْ تَمَّ اتِّخَاذُ اللَّازِمِ . لَا نَطْلُبُ مِنْكَ سِوَى مَا  
فَعَلْتَهُ الْآنِسَةُ هَالِكُومَ قَبْلَكَ . »

« مَارِيَان ؟ أَتَبِيتُ مَارِيَان فِي بَيْتِ كَوْنْتُ فَوْسَكُو ؟ »

« نَعَمْ ، فِي بَيْتِهِ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَحْذِي حَدَّوْهَا ، وَتَفْعَلِي مَا يَطْلُبُهُ  
مِنْكَ عَمُّكَ . »

وَاسْتَمَرَّتْ تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ أَلَا يَكْتُبَ لِلْكَوْنْتُ حَتَّى هَبَّ وَاقِفًا وَقَدْ نَفَذَ

صَبْرَهُ ، وَتَرَكَ الغُرْفَةَ .

كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ الشَّرَابُ قَدْ لَعِبَ بِعَقْلِهِ ، فَأَخَذْتُهَا إِلَى  
الطَّابِقِ العُلُويِّ ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أُشْرَحَ لَهَا سَبَبَ رَحِيلِ السَّيِّدِ دُوسَن .

قَالَتْ : « هَذَا أَسْوَأُ وَأَسْوَأُ ! لَقَدْ كَانَ الْكَوْنْتُ يَعْرِفُ أَنَّ السَّيِّدَ  
دُوسَن مَا كَانَ لِيُؤَافِقَ ، أَبَدًا ، عَلَى السَّمَاكِ بِسَفَرِ أَخْتِي ، فَتَشَاجَرَ  
مَعَهُ حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِنْهُ . إِنِّي أَكْرَهُ هَذَا الرَّجُلَ ، وَلَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ  
مِنْ خَوْفِي وَكَرْهِي ، يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَلْحَقَ بِمَارِيَان حَتَّى فِي بَيْتِهِ . »

وَدَكَرْتُ لَهَا أَنَّهَا رُبَّمَا تَكُونُ قَدْ سَافَرَتْ إِلَى كَمْبِرْلَانْد .

قَالَتْ : « يُؤَسِّفُنِي أَنْ أَصْدُقَ ذَلِكَ . وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ ،  
فَسَأَيْتُ بَيْتَ السَّيِّدَةِ فِيرِي . »

وَكَتَبْتُ إِلَى السَّيِّدَةِ فِيرِي . وَقُمْتُ بِنَفْسِي بِإِيدَاعِ الخِطَابِ فِي  
صُنْدُوقِ بَرِيدِ القَرْيَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَلَمْ نَرِ سِير بِيرْسِيْفَالَ بَقِيَّةَ  
اليَوْمِ .

وَفِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي ، جَاءَ لِيَقُولَ إِنَّهُ مُضْطَرٌّ لِلْخُرُوجِ قَبْلَ  
رَحِيلِ لِيدِي غَلَايْد . وَظَلَّ يَتَجَوَّلُ فِي قَلْعِي فِي الغُرْفَةِ . لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا  
وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ تَرْمُقُهُ بِنَظَرَاتِهَا .

قَالَتْ : « لَنْ أَرَاكَ بَعْدَ اليَوْمِ . هَذَا فِرَاقٌ بَيْنَنَا ، رُبَّمَا لِلْأَبَدِ . هَلَا



حاولت أن تصفح عني كما أصفح عنك ؟

وَأَمْتَقَعَ وَجْهَهُ ، وَأَنْدَفَعَ نَحْوَ الْبَابِ وَكَأَنَّ وَدَاعَ زَوْجَتِهِ قَدْ دَفَعَ بِهِ  
دَفْعًا خَارِجَ الْغُرْفَةِ . وَسَرَّعَانَ مَا ذَهَبَتْ مَعَ لَيْدِي غَلَايِدَ إِلَى  
الْمَحْطَةِ ، وَوَدَّعَتْهَا فِي عَرَبَتِهَا . وَأَنْطَلَقَتْ صَفَارَةُ الْقِطَارِ ، فَلَوْحَتْ  
بِيَدِهَا فِي حُزْنٍ ، ثُمَّ غَابَتْ عَنْ نَاضِرِي .

## الفصل الخامس عشر

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، بَيْنَمَا كُنْتُ أَمْشِي فِي الْحَدِيقَةِ ، تَلَقَّيْتُ  
صَدْمَةً عَنِيفَةً ؛ فَقَدْ رَأَيْتُ السَّيِّدَةَ رِيوبِلَ وَهِيَ تَجْمَعُ ، فِي هُدُوءٍ ،  
بَعْضَ الْأَزْهَارِ . وَتَسَمَّرْتُ فِي مَكَانِي وَلَمْ أُسْتَطِعِ الْكَلَامَ ، وَلَكِنَّهَا  
فَلَّتْ عَلَى هُدُوءِهَا كَعَهْدِهَا دَائِمًا أَبَدًا .

سَأَلْتَنِي فِي رَقَّةٍ : « مَاذَا جَرَى ، يَا سَيِّدَتِي ؟ »

هَمَسْتُ قَائِلَةً : « أَنْتِ هُنَا ! لَمْ تُسَافِرِي إِلَى لَنْدُنْ ؟ لَمْ تُسَافِرِي  
إِلَى كِمْبِرْلَانْد ؟ »

وَتَنَسَّمْتُ عَبِيرَ الْأَزْهَارِ بِابْتِسَامَةٍ مُشْفِقَةٍ ، ثُمَّ قَالَتْ : « لَا ،  
بِالتَّأَكِيدِ . لَمْ أَغَادِرْ بِلَا كُووتر بَارِك قَطُّ . »

سَأَلْتُهَا : « أَيْنَ الْآنِسَةُ هَالِكُوم ؟ »

« الْآنِسَةُ هَالِكُوم ، هِيَ الْأُخْرَى ، لَمْ تُغَادِرْ بِلَا كُووتر بَارِك . »



مَا إِنْ سَمِعْتُ هَذِهِ الْإِجَابَةَ الْمُرِيعَةَ حَتَّى فَكَّرْتُ فِي لَيْدِي غَلَايِدَ .  
فَكَّرْتُ فِي صِحَّتِهَا الْوَاهِنَةِ ، وَارْتَجَفْتُ عِنْدَمَا خَطَرَ بِيَالِي لِحِظَةٌ أَنْ  
تُكْتَشَفَ الْحَقِيقَةُ . وَأَبْقَيْتَنِي مَخَافِي عَلَى الْمُسْكِينَتَيْنِ صَامِتَةً هَنِيئَةً ،  
ثُمَّ رَأَيْتُ سِرَ بِيرْسِيْفَالِ وَهُوَ يَسِيرُ نَحْوَنَا وَيَضْحَكُ لِرُؤْيَا وَجْهِهِ وَقَدْ  
عَلَتْهُ أَمَارَاتُ الصَّدْمَةِ .

قَالَ : « حَسَنًا ، يَا سَيِّدَةُ مَيْتَشْلَسَن . لَقَدْ اكْتَشَفْتُ الْأَمْرَ ؛ أَلَيْسَ  
كَذَلِكَ ؟ »

لَمْ أَجِرْ جَوَابًا ، فَالْتَفَتَ إِلَى السَّيِّدَةِ رِيوبِل سَائِلًا : « مَتَى جِئْتَ  
إِلَى الْحَدِيقَةِ ؟ »

« مِنْذُ نِصْفِ سَاعَةٍ تَقْرِيْبًا ، يَا سَيِّدِي . لَقَدْ قُلْتُ لِي إِنَّنِي أَسْتَطِيعُ  
أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ سَفَرِ لَيْدِي غَلَايِدَ . »

« هَذَا صَحِيحٌ . لَا لَوْمْ عَلَيْكَ . » ثُمَّ تَحَدَّثَ إِلَيَّ ثَانِيَةً قَائِلًا : « طَبْعًا  
لَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُصَدَّقِي ذَلِكَ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ تَعَالِي وَانْظُرِي  
بِنَفْسِكَ . » وَتَقَدَّمَ مِنِّي وَأَشَارَ إِلَى الْجُزْءِ الْقَدِيمِ الْمَهْجُورِ مِنَ الْبَيْتِ ،  
وَقَالَ : « إِنَّهَا هُنَا ! انْظُرِي . الْآنَسَةُ هَالِكُومَ فِي إِحْدَى تِلْكَ الْغُرُفِ .  
أَدْخِلِي السَّيِّدَةَ مَيْتَشْلَسَن ، يَا سَيِّدَةُ رِيوبِل . أَدْخِلِيهَا لِتَرَاهَا بِعَيْنَيْهَا . »  
كُنْتُ قَدْ أَفْقُتُ مِنْ دَهْشَتِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ ،

وَأَبْدَيْتُ لَهُ رَغْبَتِي فِي أَنْ أَتْرَكَ خِدْمَتَهُ . وَحَدَجَنِي بِنَظَرَةٍ شَرِسَةٍ ،  
وَسَأَلَ عَنِ السَّبَبِ .

قُلْتُ : « وَضَعِي لَا يَسْمَحُ لِي بِأَنْ أَبْدِيَ رَأْيِي فِيَمَا حَدَثَ فِي  
هَذَا الْبَيْتِ . أَنَا لَا أَقُولُ سِوَى إِنَّنِي لَا أَرْغَبُ فِي الْبَقَاءِ بِخِدْمَتِكَ . »

قَالَ : « فَهَمُّتُ . لَقَدْ كَوْنْتُ فِكْرَتُكَ عَنْ خُدْعَةٍ بَرِيئَةٍ مِئَةً فِي  
الْمِئَةِ احْتَلْنَا بِهَا عَلَى لَيْدِي غَلَايِدَ لِصَالِحِهَا . كَانَتْ صِحَّتُهَا تَتَطَلَّبُ  
تَغْيِيرَ جَوٍّ ، وَأَنْتِ ، مِثْلِي ، تَعْرِفِينَ أَنَّهَا مَا كَانَتْ لِتَرْحَلَ لَوْ أَنَّهَا  
عَرَفَتْ أَنَّ الْآنَسَةَ هَالِكُومَ لَا تَزَالُ هُنَا . وَلَكِنْ أَذْهَبِي إِنْ شِئْتَ ؛ فَتَمَّةٌ  
كَثِيرٌ مِنْ مُدَبِّرَاتِ الْمَنَازِلِ . وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَقُولِي كَلِمَةً وَاحِدَةً ضِدِّي  
بَعْدَ رَحِيلِكَ . »

وَلَمْ يُؤْثَرِ شَيْءٌ مِمَّا قَالَهُ فِي رَأْيِي عَنِ الْأَكَاذِيبِ الْمُخْرِجَةِ الَّتِي  
أَمَلْتُ أَمَامِي ، وَالَّتِي فَرَّقَتْ بَيْنَ لَيْدِي غَلَايِدَ وَأَخْتِهَا . وَعَادَ يَقُولُ  
لِأَنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرْحَلَ وَقَتَّمَا أَشَاءُ ، وَإِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ سَيَغَادِرُ الْبَيْتَ فِي  
الْيَوْمِ التَّالِي ، ثُمَّ أَضَافَ قَائِلًا : « السَّيِّدَةُ رِيوبِل سَتَرْحَلُ اللَّيْلَةَ ، وَإِذَا  
رَحَلَتِ الْآنَ ، فَلَنْ يَكُونَ مَعَ الْآنَسَةِ هَالِكُومَ أَحَدٌ يَرْعَاهَا . »

أَرْجُو أَلَّا يَكُونَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ أَقُولَ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بُوْسَعِي أَنْ  
أَتْرَكَ الْآنَسَةَ هَالِكُومَ الْمُسْكِينَةَ بِمُفْرَدِهَا فِي ضَعْفِهَا . وَوَاقَفْتُ عَلَى



البقاء بعد أن وجدت أنني أستطيع أن استدعي السيد دوسن حتى  
تنتهي حاجة الأنسة هالكوم إلى خدماته . وناقشنا الأمر باقتضاب .  
وعندما انتهينا من ذلك ، استدار سير بيرسفال على عقبه بحدة  
وانصرف .

وأخبرتني السيدة ريوبل أنها سترحل في خلال ساعة ، ودلتني  
إلى باب غرفة الأنسة هالكوم وهي تناولني المفتاح ، ثم انصرفت .  
إنني أقول بكل الشكر والامتنان أن تلك كانت آخر مرة أرى فيها  
تلك المرأة .

ووجدت الأنسة هالكوم نائمة ، ونظرت إليها في قلبي . لم تكن  
أسوأ حالا مما كانت عليه عندما رأيتهما آخر مرة ، ولكن الغرفة  
كانت موحشة ومظلمة ، بيد أن النافذة كانت مفتوحة كي تسمح  
بدخول الهواء النقي . وكان كل شيء لتوفير الراحة للمريضة  
موجودا .

وتركتها نائمة ، وذهبت في هدوء لإعطاء التعليمات إلى  
البستاني بخصوص استدعاء الطبيب . كنت أعرف أنه سيجيء  
إرضاء لي ، وأنه سيقبل البقاء عندما يجد أن الكونت لم يعد  
موجودا في البيت .

وأرسل إلي يقول إنه لم يكن هو نفسه ، بخير ، ولكنه سيأتي .

إن أمكن ، صباح اليوم التالي . وطلبت من البستاني أن يسهر في  
تلك الليلة في إحدى الغرف المجاورة ، حتى يكون قريبا مني إن  
احتجت إليه . ووافق مرحبا بهذه الفكرة ، وجاء بين الثامنة  
والناسعة مساء . وكنت مسرورة إذ فعلت ذلك ، فقد ثارت ، بعد  
ذلك - فجأة - ضوضاء مريعة في الحديقة هزت سكون الليل .  
وسمعت سير بيرسفال يصيح بغضب في الجزء الجديد من البيت .  
وجرى البستاني ليستطلع الأمر ، وعندما عاد أخبرني أنه وجد سيده  
في حالة مخيفة ، وهو يصيح بأعلى صوته بعصية عذبة . صاح أنه  
لن يبقى لحظة أخرى في سجن مثل بيته ، وأمر البستاني بأن يأتيه  
بالمركبة فوراً ، وقفز سير بيرسفال إليها ، وأنهال على الحصان  
بالسوط بقسوة ، وانطلق في ضوء القمر وجهه شاحب شحوب  
الموتى .

وفي اليوم التالي ، أعيدت المركبة من نولزبيري - أقرب مدينة  
لنا ، أعادها رجل يعمل بالفندق هناك . وكان سير بيرسفال قد  
توقف عند الفندق ، ثم رحل بعد ذلك بالقطار . ولم أسمع عنه  
ثانية قط ، ولا أعرف إن كان موجودا الآن في إنجلترا أو لا . ولم  
لتقابل أنا وهو منذ أن انطلق بمركبته كمحرم هارب من بيته .  
وأمل ألا نتقابل أبداً .



ثُمَّ عَلِمْتُ أَنَّ الْآنِسَةَ هَالِكُومَ كَانَتْ قَدْ نُقِلَتْ إِلَى الْجَزْءِ  
 الْمَهْجُورِ مِنَ الْبَيْتِ وَأَنَا مُتَغَيِّبَةٌ فِي تَوْرُكَايَ . وَبَعْدَ رَحِيلِ جَمِيعِ الْخَدَمِ  
 بِاسْتِثْنَاءِ مَارْغَرِيتَ بورتشرِ الَّتِي كَانَ هَمُّهَا الْأَوْحَدُ أَنْ تَأْكُلَ وَتَشْرَبَ  
 وَتَنَامَ عِنْدَمَا تَفْرُغُ مِنْ عَمَلِهَا . لَنْ أَصِفَ تَأْثِيرَ خَبَرِ رَحِيلَ لِيَدِي  
 غَلَايِدَ عَلَى الْآنِسَةِ هَالِكُومَ أَوْ الْخَبَرَ الْأَسْوَأَ الَّذِي سَرَّعَانَ مَا وَصَلْنَا  
 بَعْدَ ذَلِكَ . لَنْ أَقُولَ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَتْرُكْهَا الْبَتَّةَ حَتَّى اسْتَرَدْتُ عَافِيَتَهَا ،  
 وَأَنَّ الْقِطَارَ الَّذِي رَحَلْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ الْمَشْتُومِ هُوَ نَفْسُ الْقِطَارِ  
 الَّذِي رَحَلْتُ بِهِ أَنَا أَيْضًا . وَافْتَرَقْنَا فِي حُزْنٍ فِي لَنْدَنَ ، وَأَقَمْتُ مَعَ  
 قَرِيبَةٍ لِي هُنَاكَ . أَمَا هِيَ فَقَدْ وَاصَلَتْ السَّفَرَ إِلَى عَمِّهَا السَّيِّدِ فِيرْلِي  
 فِي كمبرلاند .

لَمْ يَبْقَ أَمَامِي سِوَى شَيْئَيْنِ أَقُولُهُمَا : أَوْلَهُمَا أَنِّي مَوْقِفَةٌ مِنْ أَنَّ  
 الْكُونَتَ كَانَ بَرِيئًا مِثْلَمَا كَانَ نَبِيلاً ، مَهْمَا قِيلَ عَنْ تَصَرُّفَاتِهِ .  
 وَثَانِيَهُمَا ، أَنِّي لَا أَتَذَكَّرُ تَارِيخَ مُغَادَرَةِ لِيَدِي غَلَايِدَ لِبَلَاكُووتر بَارَكْ  
 عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ . لَقَدْ فَعَلْتُ مَا فِي وَسْعِي . كَيْ أَتَذَكَّرَهُ ، وَلَكِنْ  
 دُونَ جَدْوَى . كُلُّ مَا أَعْرِفُهُ أَنَّ كَانَ ذَلِكَ فِي النِّصْفِ الْأَخِيرِ مِنْ  
 يُولْيَةِ . كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ أَنِّي دَوَنْتُ ذَلِكَ التَّارِيخَ حَتَّى أَتَذَكَّرَهُ كَمَا  
 أَتَذَكَّرُ وَجْهَ سَيِّدَتِي الْمُسْكِينَةِ ، وَهِيَ تَنْطَلِعُ إِلَيَّ فِي لَوْعَةٍ لِلْمَرَّةِ  
 الْأَخِيرَةِ مِنْ نَافِذَةِ الْقِطَارِ .

هَيْسْتَرُ بِيْنِهَوْرِن ، طَاهِيَّةٌ كُونَتُ فَوْسَكُو ، تُوَاصِلُ  
 سَرْدَ الْأَحْدَاثِ ، مُدَوَّنَةٌ حَسَبَ أَقْوَالِهَا

## الفصل السادس عشر

يُؤَسِّفُنِي أَنْ أَقُولَ إِنِّي لَمْ أَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ . كُنْتُ دَائِمًا ،  
 امْرَأَةً مُجِدَّةً فِي عَمَلِي طِيلَةَ حَيَاتِي ، وَذَاتَ سُمْعَةٍ طَيِّبَةٍ . أَعْرِفُ أَنَّهُ  
 ذَنْبٌ كَبِيرٌ أَنْ أُرْوِيَ كَذِبًا ، لِذَا سَأَحْرِصُ عَلَى أَلَّا أَكْذِبَ هُنَا .  
 سَأَقُولُ كُلَّ مَا أَعْرِفُهُ ، وَأَرْجُو مِنَ السَّيِّدِ الْفَاضِلِ الَّذِي يَكْتُبُ أَقْوَالِي  
 هَذِهِ أَنْ يُصَحِّحَ لُغَتِي وَهُوَ يَكْتُبُهَا ، أَخِذًا فِي الْاعتِبَارِ أَنِّي لَسْتُ  
 مُتَعَلِّمَةً .

كُنْتُ أَعْمَلُ طَاهِيَّةً فِي الْبَيْتِ رَقْمَ ٥ شارعِ فُورست بِحَيِّ سَانْتِ  
 جُون وُود بِلَنْدَنَ ، فِي خِدْمَةِ الْكُونَتِ وَالْكَوْنَتِيْسَةِ فَوْسَكُو ، وَذَلِكَ  
 عِنْدَمَا أَتَتْ لِيَدِي غَلَايِدَ إِلَى الْبَيْتِ . وَكَانَتْ سَيِّدَتِي قَدْ ذَكَرَتْ أَنَّهَا  
 فِي حَالَةٍ صَحِيحَةٍ سَيِّئَةٍ ، لِذَا كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَدْفُقَ فِيمَا أَطْهَوْهُ . مَعْدِرَةٌ  
 أَنْ أَقُولَ إِنِّي لَا أَتَذَكَّرُ التَّارِيخَ ، فَأَنَا لَا أَعْلَمُ شَيْئًا عَنِ التَّوَارِيخِ ،  
 وَذَا كَرْتِي ضَعِيفَةٌ . كُلُّ مَا أَعْرِفُهُ أَنَّ لِيَدِي غَلَايِدَ جَاءَتْ إِلَيْنَا فِي  
 حَالَةٍ أَصَابَتْهَا جَمِيعًا بِالْفَزَعِ ، فَمَا إِنْ وَصَلَتْ حَتَّى سَمِعْتُ وَقَعَ



أَقْدَامُ تَهْرُولُ فِي الطَّابِقِ الْعُلَوِيِّ ، وَدُقَّ الْجَرَسُ وَطَلَبَتْ سَيِّدَتِي  
المُسَاعَدَةَ .

وَهَرَعْتُ إِلَيْهَا ، وَهُنَاكَ رَأَيْتُ اللَّيْدي رَاقِدَةً عَلَى جَنْبِهَا فِي  
الْفِرَاشِ وَوَجْهَهَا شَاخِبٌ عَلَى نَحْوِ مُخِيفٍ ، وَأَنْدَفَعْتُ إِلَى الْخَارِجِ ؛  
إِذْ كُنْتُ أَعْرِفُ الْمَنْطِقَةَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، لَأَسْتَدْعِيَ أَقْرَبَ طَبِيبٍ .

وَأَرْقَدْنَا السَّيِّدَةَ الْمُسْكِينَةَ فِي فِرَاشِهَا ، وَفَحَصَهَا السَّيِّدُ جُودْرِيكُ ،  
ثُمَّ قَالَ لَهَا : « هَذِهِ حَالَةٌ خَطِيرَةٌ جِدًّا . أَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكْتُبُوا  
إِلَى أَقْرَبِ لَيْدِي غَلَايِدَ فِي الْحَالِ . »

سَأَلْتُهُ : « أَهُوَ مَرَضُ الْقَلْبِ ؟ »

قَالَ : « نَعَمْ ، وَمِنْ نَوْعِ خَطِيرٍ جِدًّا . »

وَأَخْبَرَهَا بِرَأْيِهِ فِي الْحَالَةِ ، وَالَّذِي لَمْ أَكُنْ مِنَ الذِّكَاةِ لِفَهْمِهِ ،  
وَلَكِنِّي أَعْرِفُ أَنَّهُ أَنْهَى كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ لَنْ تَسْتَطِيعَ مُسَاعَدَتَهُ وَلَا  
مُسَاعَدَةَ أَيِّ طَبِيبٍ آخَرَ فِي إِنْقَاذِ حَيَاتِهَا .

وَتَلَقَّتُ سَيِّدَتِي هَذَا الْخَبَرَ فِي هُدُوءٍ ، وَلَكِنِ سَيِّدِي ، وَكَانَ رَجُلًا  
عَجُوزًا ، بَدِينًا ضَخْمًا ، بَدَأَ مُضْطَرِبًا لِلْغَايَةِ ؛ رَاحَ يَذْرَعُ الْمَكَانَ قَائِلًا :  
« آه ! يَا لِلْمُسْكِينَةِ لَيْدِي غَلَايِدَ ! يَا لِلْمُسْكِينَةِ الْعَزِيزَةِ لَيْدِي غَلَايِدَ ! »  
كَمَا أَخَذَ يَسْأَلُ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ أَيْضًا .

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي جَاءَ الطَّبِيبُ وَمَعَهُ زَمِيلٌ لَهُ . وَعِنْدَمَا رَأَىٰهَا نَظَرَ  
كُلَّ مِنْهُمَا إِلَى الْآخِرِ ثُمَّ هَذَا رَأْسُهُمَا . كَانَتِ الْمُسْكِينَةُ فِي غَايَةِ  
الضَّعْفِ - بَقَايَا إِنْسَانٍ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ .

وَبَعْدَ أَنْ طَلَبَ مِنَّا الطَّبِيبَانِ أَنْ نَدْعِهَا فِي هُدُوءٍ ، انْصَرَفَا وَلَكِنِ مَا  
هِيَ إِلَّا فِتْرَةٌ وَجِيزَةٌ حَتَّى دُقَّ الْجَرَسُ بِعُنْفٍ فِي حُجْرَةِ نَوْمِهَا .  
وَهَرَوَلْتُ سَيِّدَتِي خَارِجَهَا ، وَأَمَرْتَنِي بِالذَّهَابِ إِلَى الطَّبِيبِ لِأَخْبِرَهُ أَنَّ  
السَّيِّدَةَ قَدْ أَعْمِيَ عَلَيْهَا ، وَعِنْدَمَا رَأَىٰهَا تَجَهَّمُ وَجْهَهُ فَجَاءَتْ . وَظَلَّتْ  
سَيِّدَتِي تَنْتَظِرُ فِي قَلْقٍ .

قَالَتْ : « أَلَمْ تَمُتْ ؟ »

أَجَابَ الطَّبِيبُ بِهَدُوءٍ شَدِيدٍ : « بَلَى . مَاتَتْ . كُنْتُ أَخْشَى أَنْ  
يَحْدُثَ ذَلِكَ فَجَاءَتْ . »

وَهَمَسَتْ إِلَى نَفْسِهَا : « مَاتَتْ ! مَاتَتْ فَجَاءَتْ ! هَكَذَا مَاتَتْ بِهِذِهِ  
السَّرْعَةَ ! مَاذَا سَيَقُولُ الْكَوْنَتُ ؟ يَجِبُ أَنْ أَهْيَيْ الْكَوْنَتَ لِهَذَا  
الْخَبَرِ . يَجِبُ أَنْ أَهْيَيْ الْكَوْنَتَ بِمُنْتَهَى الْحَذَرِ . » وَهَبَطَتْ إِلَى  
الطَّابِقِ الْأَرْضِيِّ .

قَالَ لِي الطَّبِيبُ : « سَيِّدُكَ رَجُلٌ أَجْنَبِيٌّ . أَعْرِفُ كَيْفَ يُسْجَلُ  
حَالَةُ وَفَاةٍ ؟ »



« لا أدري ، يا سيدي . أظنه لا يعرف . »

وَفَكَرَ هَنِيهَةً ، ثُمَّ قَالَ : « مِنْ فَضْلِكَ أَخْبِرِي الْأُسْرَةَ أَنِّي سَأَفْعَلُ ذَلِكَ . »

## قصة ولتر هارتررايت

### الفصل السابع عشر

في بداية صيف عام ١٨٥٠ ، فارقت ، أنا ومن بقي من أصدقائي على قيد الحياة ، غابات أمريكا الوسطى إلى إنجلترا . ركبنا سفينة لم تستطع مواجهة الأمواج العاتية فغرقت ، ولكنني أفلت من الموت . وكان هذا هو ثالث إقلاص لي من الموت : الموت من الحمى ، والموت على يد الهنود ، والموت غرقاً . تخطاني هذا كله . وأخيراً وصلت إلى بلدي على متن سفينة أخرى . وعندما وصلت إلى ليفربول في ١٣ أكتوبر ١٨٥٠ ، توجهت لتوِّي إلى لندن . كنت قد غادرت إنجلترا هرباً من مستقبلتي ، وهانذا أعود لمواجهة كما ينبغي لرجل أن يواجهه .

ودهمت لرؤية أمي وأختي اللتين أفضنا إلي بخبر وفاة لورا . وبذلت أمي كل ما في وسعها لمواساتي في فجعتي . وحاولت أن

وشكرته ، وتركتني بجوار ليدي غلايد حتى جاءت امرأة لتجهيز الجثة للدفن . كان اسمها جانيت جولد ، وقد قامت بعملها على أكمل وجه . وأعدت سيدي ترتيبات الجنازة التي لا بد أنها تكلفت الكثير من المال . وسمعنا أن زوج السيدة كان مسافراً للخارج ، ولكن سيدي ، بصفتها عممتها ، قررت هي وأقاربها في الريف وأظنه ريف كامبرلاند -- أن تدفن في نفس قبر أمها .

ورداً على تلك الأسئلة ، أود أن أقول إنني لم أر سيدي يعطي ليدي غلايد أي دواء بنفسه قط ، وإنه لم يكن يجلس إطلاقاً بمفرده في الغرفة معها .

قرئت علي تلك الأقوال ، وأقر بصحتها .

هيوستن بينهورن

( بصفة )



أَتَغَلَّبَ عَلَى تِلْكَ الصَّدْمَةِ ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى . وَبَقَلِبٍ كَسِيرٍ ،  
 ذَهَبْتُ إِلَى كمبرلاند لزيارة قَبْرِ لورا فيرلي . وَتَرَكْتُ المَحْطَّةَ  
 الصَّغِيرَةَ وَمَشَيْتُ فِي الطَّرِيقِ ، الَّذِي كُنْتُ أَتَذَكَّرُهُ جَيِّدًا ، تَحْتَ  
 شَمْسٍ غَارِبَةٍ . كَانَ كُلُّ شَيْءٍ كَمَا هُوَ . وَنَسِيتُ مَخَاطِرَ حَيَاتِي فِي  
 الخَارِجِ وَتَقَلُّبَاتِهَا عِنْدَمَا نَظَرْتُ إِلَى القَبْرِ بِمَا نُقِشَ عَلَيْهِ مِنْ حُرُوفٍ  
 سَوْدَاءَ حَزِينَةٍ :

فِي ذِكْرِي لورا - لِيدي غلايد ، زَوْجَةُ سِير بيرسيغال غلايد  
 هامبشير - بلاكووتر بارك . ابْنَةُ المَرْحُومِ السَّيِّدِ فِيلِيپ فيرلي -  
 ليميريدج هاوس . المَوْلُودَةُ فِي ٢٧ مَارَس ١٨٢٩ ، وَالمُتَزَوِّجَةُ فِي  
 ٢٢ دِيسَمْبَر ١٨٤٩ ، وَالمُتَوَفَاةُ فِي ٢٥ يُولْيَةِ ١٨٥٠ .

وَجَثَوْتُ أَمَامَ القَبْرِ ، وَأَسْنَدْتُ رَأْسِي عَلَى شَاهِدِهِ الأَبْيَضِ  
 العَرِيضِ وَأَغْمَضْتُ عَيْنِي الكَلِيلَتَيْنِ ، وَاسْتَرْجَعْتُ ذِكْرَهَا . أَوَاهُ  
 يَا حَبِيبَتِي ! يَا حَبِيبَتِي !

وَمَرَّ الوَقْتُ . وَكَانَ أَوَّلُ صَوْتٍ يَجِيءُ إِلَيَّ ، بَعْدَ أَنْ غَمَرَنِي  
 سَلَامٌ سَمَاوِيٌّ ، قَدْ أَنْسَابَ فَوْقَ عُشْبِ المَدَافِنِ كَنَسْمَةِ هَوَاءٍ ،  
 سَمِعْتُهُ يَأْتِي بِالقُرْبِ مِنِّي كَوَقْعِ أَقْدَامٍ تَمْضِي إِلَى الأَمَامِ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ  
 الصَّوْتُ .



نَظَرْتُ أَمَامِي فَإِذَا بِي أَرَى امْرَأَتَيْنِ تَنْظُرَانِ نَحْوَ القَبْرِ ثُمَّ تَنْظُرَانِ  
 نَحْوِي ، وَرَفَعَتْ إِحْدَاهُمَا نِقَابَهَا . وَفِي ضَوْءِ المَسَاءِ الهَادِي رَأَيْتُ  
 وَجْهَ مَارِيَانِ هَالِكُومِ .

كَانَ مُتَغَيِّرًا ، وَكَأَنَّ السَّنِينَ قَدْ وَطِئَتْهُ بِلا شَفَقَةٍ وَلَا رَحْمَةٍ ،  
 وَغَيْرَهُ الأَلَمُ وَالخَوْفُ وَالأَسَى .

وَأَقْبَلَتِ المَرْأَةُ الأُخْرَى فِي صَمْتٍ وَبُطْءٍ ، وَوَقَفَتْ عَلَى جَانِبِ  
 القَبْرِ . كُنَّا نَقِفُ وَشَاهِدُ القَبْرِ بَيْنَنَا .

وَرَفَعَتِ المَرْأَةُ نِقَابَهَا .



يا لهول المفاجأة ! ماذا أرى ؟! لقد كانت لورا - ليدي غلايد !  
وكانت تقف بجوار القبر تنظر إلي من فوقه .

يجب أن أجتاز الأسبوع القادم في صمت . إنني أشعر بانقباض  
مقيت عندما أفكر فيما حدث ، ولكن علي ألا أضعف أو أهين .  
علي أن أكون هادئاً رائق البال كي أروي بقية هذه الحكاية كثيرة  
المنعطفات والتعاريج .

تغيرت حياتي فجأة . تحول هدفي في الحياة كلها متخذاً مساراً  
جديداً . اصطحبت لورا وماريان لنعيش في حي فقير في لندن يتعدى  
فيه العثور علينا ، وغيرنا أسماءنا فعرّفهما الناس بأنهما أختان لي .  
واستأجرت طابقين فوق محل تجاري ، وأقمت في الطابق العلوي  
وكان به غرفة لعملي وغرفة لنومي . وأقامت الأختان في الطابق  
السفلي . كنت أحصل على قوتنا بممارسة الرسم ، وكانت ماريان  
تقوم بعمل المنزل . وكانت ليدي غلايد في نظر القانون متوفاة ،  
ولكنها كانت حية ترزق : امرأة فقيرة تعيش مخبئة مع مدرس رسم  
فقير كي يحارب معركتها ، وكي يعيدها إلى وضعها الحقيقي في  
الحياة . أخبرتني أن أعداءنا حاولوا أن ينسوها كل شيء ، ولكنها  
تذكرتني أنا وماريان . تذكرتني أنا ! لقد أنقذني القدر من  
المتوحشين والغابات والبحر ، وها هي الآن فتاتي لأعولها ، فتاتي

لأحميها ، فتاتي لأحبها .

وأخبرتني ماريان عن الشجارب التي مرت بها مؤخراً . لقد  
أعجزها نبأ وفاة لورا عن السفر لمدة ثلاثة أسابيع التالية . وعندما  
وصلت إلى لندن كان يساورها شك كبير في طريقة موت أختها  
حتى إنها سألت السيد كايل المحامي أن يتحرى الأمر ، ولكن  
جهدته ذهبت أدراج الرياح ، فشك في أن تكون صدمة الأحداث  
قد أثرت على عقل الأنيسة هالكوم .

وعادت إلى ليميريدج حيث دفن الجثمان في ٣٠ يولييه . وشيع  
كونت فوسكو الجنازة ، وأقام بليميريدج هاوس ، ولكنه لم ير السيد  
فيرلي شخصياً ، بل بعث إليه برسالة يبين فيها تفاصيل الوفاة .  
كما جاء بالرسالة أيضاً أن كاثيريك قد تم العثور عليها ، وأنها  
أعيدت إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وأنها تتخيل نفسها ليدي  
غلايد - دليل آخر على اختلال قواها العقلية . وكانت ماريان قد  
اطلعت على هذه الرسالة ، وسلمت لها كل ملابس ليدي غلايد  
ومقتنياتها الشخصية .

ولكن شكوكها ظلت تساورها ، فقامت بالمزيد من التحريات ،  
ولكنها لم تكتشف سوى شيء واحد - أن سير بيرسيغال كان يعيش  
في باريس ، فقررت ، بعدئذ ، أن تزور مستشفى الأمراض العقلية ،



وَهُنَاكَ قَابَلْتُ أُخْتَهَا لورا وَتَذَكَّرْتُهَا .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ صَدَمَةِ اللِّقَاءِ وَمَا وَاجَهَتْهُ مِنْ صُعُوبَاتٍ ، فَقَدَّ صَمَمَتْ ، لِتَوَّهَا ، عَلَى أَنْ تُطْلِقَ سَرَّاحَهَا . كَانَتْ تَحْتَفِظُ بِسَبْعِمِئَةٍ جُنْيَةٍ فِي الْمَصْرَفِ ، فَعَرَضَتْ عَلَى الْمَرَضَةِ أَرْبَعِمِئَةٍ جُنْيَةٍ إِنْ هِيَ أَطْلَقَتْ سَرَّاحَ لورا خَارِجَ أَسْوَارِ الْمُسْتَشْفَى . وَنَفَّذَتْ الْخُطَّةَ ، وَتَسَلَّمَتِ الْمَرَضَةُ النُّقُودَ ، وَهَرَبَتْ لورا سِرًّا - وَسَافَرَتْ الْاِثْنَتَانِ إِلَى لِيْمِيرِيْدَجِ بِالْقِطَارِ . وَخِلَالَ الشُّوْطِ الثَّانِي مِنْ سَفَرْتَهُمَا ، تَمَكَّنَتْ مَارِيَانُ مِنْ جَمْعِ بَعْضِ مَعْلُومَاتٍ عَنِ الْحِيلَةِ الْبَشَعَةِ الَّتِي تَمَّ بِهَا خِدَاعُ أُخْتِهَا ، وَكَانَتْ رَوَايَةُ مَا حَدَثَ مُضْطَرِبَةً مُشَوَّشَةً بِسَبَبِ مَا انْتَابَ عَقْلَ لورا الَّذِي جَرَى إِضْعَافُهُ . وَلَكِنْ مَا تَذَكَّرْتُهُ كَانَ كَمَا يَلِي :

عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى لَنْدَنْ مِنْ بَلَاكُوْتَرِ بَارَك ، قَابَلَهَا الْكُونْتُ ، وَأَخَذَتْ إِلَى بَيْتٍ مَجْهُولٍ حَيْثُ أَعْمِي عَلَيْهَا بَعْدَ شَرْبِ قَدَحٍ مِنَ الْمَاءِ . ثُمَّ نَقَلْتُ إِلَى مَبْنَى كَبِيرٍ لَا بُدَّ أَنْ كَانَ مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ . وَهُنَا ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، سَمِعْتُهُمْ يُنَادُونَهَا بِاسْمِ أَنْ كَاثِيرِيْك . وَهُنَا أَيْضًا ، أَخْبَرْتَهَا عَيْنَاهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَلْبِسُ مَلَابِسَ أَنْ كَاثِيرِيْك . وَعِنْدَمَا أَخْبَرْتَهُمْ مَنْ هِيَ ، غَضِبَتِ الْمَرَضَةُ ، وَأَرْتَهَا الْاسْمَ عَلَى مَلَابِسِهَا ، وَنَصَحَتْهَا أَلَّا تَكُونَ حَمَقَاءَ . كَانَ هَذَا هُوَ كُلُّ مَا

اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَتَذَكَّرَهُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ . وَلَمْ تُلَحَّ عَلَيْهَا مَارِيَانُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؛ خَشِيَّةٌ إِزْعَاجُهَا وَهِيَ فِي حَالَتِهَا الْوَاهِيَةِ .

وَعِنْدَمَا وَصَلَا إِلَى لِيْمِيرِيْدَجِ هَاوَس . ذَهَبَتْ مَارِيَانُ إِلَى عَمِّهَا ، بَلْ وَأَدْخَلَتْ أُخْتَهَا فِي عَرْفَتِهِ كَيْ يَرَاهَا وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ ضِدَّ رَغْبَتِهِ . وَرَفَضَ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَيْهَا . قَالَ إِنَّ ابْنَةَ أَخِيهِ مَاتَتْ وَدُفِنَتْ ، وَإِنَّ تِلْكَ الْفَتَاةَ أَنْ كَاثِيرِيْكُ كَانَتْ تَقُومُ بِإِحْدَى حِيلِهَا الْمَجْنُونَةِ . حَتَّى الْخَدْمُ - وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ شَهِدُوا دَفْنَهَا - لَمْ يُمْكِنَ إِقْنَاعُهُمْ بِالتَّعَرُّفِ عَلَيْهَا . وَهَدَّدَ السَّيِّدُ فِيرْلِي بِاسْتِدْعَاءِ الشَّرْطَةِ إِنْ لَمْ تَبْتَعِدْ فُورًا عَنِ الْبَيْتِ . لَا بُدَّ لَنَا أَنْ تَتَذَكَّرَ أَنَّ مَظْهَرَ لورا كَانَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرًا بِإِقَامَتِهَا فِي مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَبِفِعْلِ الْمَتَاعِبِ الْمُرِيعَةِ الَّتِي وَاجَهَتْهَا .

كَانَ مِنَ الْوَاضِحِ فِي تِلْكَ الظُّرُوفِ أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَى الْأَخْتَيْنِ أَنْ يُغَادِرَا لِيْمِيرِيْدَجَ فِي الْحَالِ ، قَبْلَ أَنْ يَنْطَلِقَ بَعْضُ الْعَامِلِينَ بِالْمُسْتَشْفَى لِلْبَحْثِ عَنْ لورا . وَاسْتَقَرَّ رَأْيُ مَارِيَانُ عَلَى أَنْ تَصْطَحِبَهَا إِلَى لَنْدَنْ لِصُعُوبَةِ الْعُثُورِ عَلَيْهِمَا فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ . وَلَكِنْ عِنْدَمَا كَانَا فِي طَرِيقَهُمَا إِلَى الْمَحْطَةِ صَمَمَتْ لورا عَلَى أَنْ تُلْقِيَ نَظْرَةً أُخْرَى عَلَى قَبْرِ أُمِّهَا ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ اعْتِرَاضِ مَارِيَانُ ، اتَّجَهَا نَحْوَهُ .



وهكذا كانت يد القدر هي التي وجهت مسارهما ، وكانت هي التي أعادتتهما إلي .

هذه هي حكاية الماضي التي عرفناها إلى هذا المدى ، وقد اكتملت علمت كيف نُفذت جريمة بشعة باستغلال الشبه بين الشابتين ؛ فقد جيء بأن كاثيريك إلى بيت الكونت فوسكو على أنها ليدي غلايد ، على حين أخذت لورا مكان الفتاة المتوفاة ، في مستشفى الأمراض العقلية . وكان من الواضح ، أننا لن نتوقع شفقة ولا رحمة من الكونت أو سير بيرسيغال ، فقد جلب نجاح خطتهما للكونت ثروة مقدارها عشرة آلاف جنيه ، ولسير بيرسيغال عشرون ألفاً . كانا على استعداد أن يفعلوا أي شيء للحفاظ على سرهما ، وأن يبدلا كل ما في وسعهما للعثور على لورا حين علما بهروبها . كنا جميعاً في خطر ، وكان هذا هو سبب اختياري حياً فقيراً من أحياء لندن لنسكن فيه ، فالتناس عندما يعملون بجِد ليكسبوا عيشهم ، لا يكون لديهم وقت لملاحظة الغرباء .

لم تكن لورا وأختها تخرجان ، إطلاقاً بدوني ، وما كانا لئسمحا لأحد أن يدخل غرفتيهما مهما كان السبب . وبغض النظر عن المبالغ الصغيرة التي كنتُ أحصلُ عليها من عملي اليومي ، كان معي أنا وماريان ما يقرب من أربعمئة جنيه في البنك حاولنا ألا

نمسيها ، فقد نحتاج إليها في جهودنا لإعادة لورا إلى مكانها الطبيعي في الحياة .

لم يكن ثمة فائدة في الاعتماد على التعرف عليها ، أو على ذاكرتها . كانت بعد كل ما صادفته من أهوال ، عاجزة عن وصف الأحداث الماضية التي كانت كفيلة بأن تظهر من هي ، فكان علي أن أتصرف دون معونتها .

ذهبت إلى السيد كايل لأخبره بما كنت أعرفه ، وأطلب مشورته ، وأسأله عما إذا كان ثمة أمل لنا . وعند انصرافي من البيت حرصت على التأكد من أن ليس هناك أحد يراقبني ، ولكنني نسيت أن سير بيرسيغال سيتوقع مني أن أذهب إلى مكتب المحامي ، وأنه سيبحث بجواسيسه لمراقبتي . لم أتذكر ذلك إلا عندما كانت يدي على الباب ، وكان أوان تراجعني قد فات . لم أجد تشجيعاً كبيراً من السيد كايل ، بل أظن أنه شك في صحة اعتقادي ؛ فقد ناقش النقاط معي ثم قال إننا إذا لجأنا للقضاء ، فإننا سنخسر قضيتنا ، ولكنه أضاف نقطة هامة .

قال : « إن أبسط وأضمن الأدلة هو المقارنة بين التواريخ . إن كنت تستطيع أن تثبت أن الفتاة التي كانت في بيت الكونت توفيت قبل أن تغادر ليدي غلايد ليميريدج ، فإنك تكون في مركز



قَوِيٌّ ، وَإِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ .

قُلْتُ : « إِنَّا نَعْرِفُ مِنْ شَهَادَةِ الطَّبِيبِ مَتَى حَدَثَتِ الْوَفَاةُ . أَمَّا التَّارِيخُ الْآخَرُ فَقَدْ يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهِ فِيمَا بَعْدُ . »

وَكُنْتُ قَدْ بَدَلْتُ قُصَارَى جَهْدِي لِأَكْتَشِفَ ذَلِكَ التَّارِيخَ ، وَلَكِنِّي أَخْفَقْتُ فِي ذَلِكَ . لَمْ تَسْتَطِعْ مُدَبَّرَةُ الْبَيْتِ أَنْ تُخْبِرَنِي بِهِ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ مَارِيَانُ أَوْ لُورَا أَنْ تُسَاعِدَانِي . رُبَّمَا كَانَ الشَّخْصَانِ الْوَحِيدَانِ اللَّذَانِ يَعْرِفَانِ مَتَى غَادَرَتْ لِيَدَيِ غَلَايِدِ الْبَيْتِ هُمَا سِير بِيرْسِيْفَالُ وَالْكُونْتُ ، وَلَكِنَّهُمَا مَا كَانَا لِنُسَاعِدَانَا مَا لَمْ أُرْغِمَهُمَا عَلَى ذَلِكَ .

وَعِنْدَمَا نَهَضْتُ لِلانْصِرَافِ ، وَضَعَ السَّيِّدُ كَايِلُ فِي يَدَيِ رِسَالَةً مُوجَّهَةً لِلْآنِسَةِ هَالْكُومِ . وَوَعَدْتُهُ بِأَنْ أَسْلَمَهَا لَهَا ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ إِنْ كَانَ سِير بِيرْسِيْفَالُ لَا يَزَالُ فِي بَارِيسَ .

قَالَ السَّيِّدُ كَايِلُ : « لَقَدْ عَادَ إِلَى لَنْدُنَ . »

وَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ ، وَفِي الشَّارِعِ لَاحِظْتُ رَجُلَيْنِ يَتَّبِعَانِي ، فَاسْتَدْرْتُ فَجْأَةً ، وَمَرَرْتُ مِنْ أَمَامِهِمَا وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى وَجْهَيْهِمَا لِحِظَةٍ اقْتِرَابِي مِنْهُمَا ، فَإِذَا بِي أُنْعَرَفُ عَلَى أَحَدِهِمَا ، وَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي يُرَاقِبُنِي قَبْلَ أَنْ أَغَادِرَ إِنْجِلْتَرَا . وَنَظَرْتُ مَلِيًّا إِلَى الرَّجُلِ الثَّانِي





حَتَّى اسْتَطِيعَ أَنْ اتَّعَرَّفَ عَلَيْهِ ثَانِيَةً ، ثُمَّ قَفَزَتْ إِلَى عَرَبَةٍ تَصَادَفَ  
مُرُورُهَا ، وَهَكَذَا أَفَلَتْ مِنْهُمَا . وَعِنْدَمَا تَأَكَّدَتْ تَمَامًا أَنَّهُمَا قَدْ قَفَدَا  
أَثَرِي ، عُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ وَأَعْطَيْتُ مَارِيَانَ الرِّسَالَةَ ، فَفَتَحَتْهَا لِتَوَّهَا .  
كَانَتْ مِنَ الْكُونَتِ :

« أَكْتُبُ إِلَيْكَ ، يَا مَارِيَانُ الرَّائِعَةَ ، لَأَقُولَ لَكَ كَلِمَتَيْنِ :

لَا تَخَافِي شَيْئًا . اسْتَخْدِمِي فِطْنَتَكَ وَاسْتَمْرِي فِي عَزْلَتِكَ . أَقْبَلِي  
مَا حَدَّثَ وَأَنْعَمِي بِرَاحَتِكَ . إِنْ فَعَلْتِ هَذَا ، فَلَا خَوْفَ عَلَيْكَ ، وَلَكِنْ  
يُلَاحِقُ رَفِيقُكَ اللَّطِيفُ . وَلَكِنْ أَرْجُوكِ أَلَّا تَضْطَرِّبِي - أَنَا الرَّجُلَ  
الْعَمَلِيَّ - إِلَى اتِّخَاذِ عَمَلٍ مُضَادٍّ . إِذَا عَادَ السَّيِّدُ هَارْتَرَايتَ إِلَى  
إِنْجِلْتِرَا ، فَلَا تُحَاوِلِي رُؤْيَتَهُ . إِنِّي أُسِيرُ فِي طَرِيقِي الْخَاصِّ ، وَفِي  
الْيَوْمِ الَّذِي يَعْتَرِضُ فِيهِ هَذَا الطَّرِيقُ ، اِعْتَبِرِيهِ رَجُلًا مَفْقُودًا .

ف .

قَالَتْ مَارِيَانُ مُغْضِبَةً : « وَلْتَر ، لَوْ حَدَّثَ وَوَقَعَ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ  
وَالْكُونَتِ تَحْتَ رَحْمَتِكَ ، وَكَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْفُوَ عَنْ أَحَدِهِمَا فَلَا  
تَعْفُ عَنْ الْكُونَتِ . » وَنَظَرَتْ إِلَيَّ وَحِدَةً طَبَعَهَا الْقَدِيمُ يَشْعُ فِي  
عَيْنَيْهَا .

أُجِبْتُ : « سَأَحْفِظُ بِهِدِهِ الرِّسَالَةَ لِتُسَعِّفَ ذَاكِرَتِي فِي الْوَقْتِ

الْمُنَاسِبِ . غَدًا سَابِدًا فِي التَّصَرُّفِ مِنْ جَانِبِي . سَأَذْهَبُ إِلَى  
بَلَا كُووتر . عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَ كُلُّ مَا نَسْتَطِيعُ لِمَعْرِفَةِ هَذَا التَّارِيخِ . لَقَدْ  
اسْتَقْبَلَتْ لُورَا فِي مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ فِي السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ  
مِنْ يُولِيهِ ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ كُونَتَ فُوسْكَو كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْقِيَهَا فِي  
لُنْدُنَ سِرًّا لِأَكْثَرِ مِنْ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لِذَا لَا بُدَّ أَنَّهَا بَدَأَتْ سَفَرَهَا فِي  
السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ ، وَتَارِيخُ وِفَاتِهَا الْمُقَيَّدُ فِي شَهَادَةِ الطَّبِيبِ هُوَ  
الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ . فَإِنْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نُنْشِئَ أَنَّهَا غَادَرَتْ بَلَا كُووتر بَعْدَ  
التَّارِيخِ الْمُفْتَرَضِ لَوِفَاتِهَا يَوْمَ وَاحِدٍ ، فَقَدْ كَسَبْنَا الْقَضِيَّةَ . »

« حَسَنٌ ، وَلَكِنْ كَيْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْصُلَ عَلَى الدَّلِيلِ ؟ »

« سَأَسْأَلُ السَّيِّدَ دُوسَنَ مَتَى رَجَعَ إِلَى بَلَا كُووتر ، حَتَّى يُسَاعِدَنَا .  
لَا بُدَّ لِي أَيْضًا ، أَنْ أَزُورَ الْفُنْدُقَ الَّذِي أَقَامَ فِيهِ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ بَعْدَ أَنْ  
انْطَلَقَ فِي جُنُونٍ بِمَرَكَبَتِهِ فِي الظُّلَامِ ، يَوْمَ أَنْ غَادَرَتْ لُورَا لِيْمِيرِيدِجَ  
فَإِنْ قَسِيلَ هَذَانِ الْإِحْتِمَالَانِ ، فَسَأَتَّجِهَ ، بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ  
وَالْكُونَتِ . لَا تَنْسَيَ سِرَّ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ ، وَسَاحَاوُلُ مِنْ جَانِبِي أَنْ  
أَعْرِفَ ذَلِكَ السِّرَّ . »

وَلَمْ أَجِدْ عَوْنًا مِنَ السَّيِّدِ دُوسَنَ لِأَنَّهُ ، بِسَبَبِ مَرَضِهِ ، لَمْ يَذْهَبْ  
فَوْرًا إِلَى بَلَا كُووتر حِينَ بَعَثَتِ السَّيِّدَةُ مَيْتَشْلِسَنَ فِي طَلَبِهِ . وَكَانَ  
الْفُنْدُقُ ، عِنْدَمَا ذَهَبْتُ إِلَيْهِ ، مُغْلَقًا لِرَحِيلِ صَاحِبِهِ . لَمْ يَكُنِ الْقَدَرُ



في صَفِي . إِذَا عَلَيَّ أَنْ أَتَجَّهَ إِلَى السِّرِّ ، فَصَمَّمْتُ ، بَعْدَ حَدِيثٍ  
مَعَ مَارِيَان ، عَلَى أَنْ أَبْحَثَ عَنِ السَّيِّدَةِ كَلِيمَنْتِس ، كَخُطْوَةٍ أُولَى ،  
فِي هَذَا الطَّرِيقِ الشَّاقِّ الْوَعْرِ .

## الفصل الثامن عشر

بَعْدَ أَنْ كَتَبْتُ إِلَى مَزْرَعَةِ تود فِي طَلَبِ عُنْوَانِ السَّيِّدَةِ  
كَلِيمَنْتِس ، رَوْتُ لِي مَارِيَان النَّزْرَ الْيَسِيرَ الَّذِي كَانَتْ تَعْرِفُهُ عَنْ  
حَيَاةِ سِير بِيرسيغال . قَالَتْ إِنَّ أَبَاهُ ، سِير فيلكس غلايد كَانَ دَمِيمَ  
الْخِلْقَةِ مُشَوَّهًا ، وَإِنَّهُ لَا هُوَ وَلَا زَوْجَتُهُ كَانَا يَنْشُدَانِ الْأَلْفَةَ أَوْ  
الْأَصْدِقَاءَ ، بَلْ كَانَا يَعِيشَانِ وَحْدَهُمَا ، وَسَرَّعَانَ مَا سَافَرَا إِلَى  
الخَارِجِ . كَانَ هَذَا كُلُّ مَا تَعْرِفُهُ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهِ شَيْئًا يُفِيدُنِي  
كَثِيرًا .

وَعِنْدَمَا تَلَقَّيْتُ الْعُنْوَانَ مِنَ السَّيِّدَةِ تود ، ذَهَبْتُ لِرِيزَارَةِ السَّيِّدَةِ  
كَلِيمَنْتِس ، الَّتِي سَأَلْتَنِي لِتَوْهَا إِنَّ كُنْتُ قَدْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَعُثِّرَ عَلَى  
آن كاثيريك ، فَأَجَبْتُهَا بِأَنِّي أَظُنُّ أَنَّ لَنْ نَرَاهَا أَبَدًا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ .  
وَلَكِنِّي لَمْ أَقُلْ كُلَّ مَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ .



وَاضْطَرَبَتِ الْمِسْكِينَةُ اضْطِرَابًا شَدِيدًا فِي بَادِي الْأَمْرِ ، وَلَكِنَّهَا  
وَأَفَقَتْ عَلَى أَنْ تُخَيِّرَنِي بِكُلِّ مَا كُنْتُ أَرِيدُ مَعْرِفَتَهُ عِرْفَانًا مِنْهَا بِمَا  
أُولِيَّتُهُ مِنْ عَطْفٍ لَأَنْ فِيمَا مَضَى . قَالَتْ إِنَّهُمَا بَعْدَ رَحِيلِهِمَا مِنْ  
لِيمِيرِيدَج ، ذَهَبَا إِلَى لَنْدَنْ ، ثُمَّ إِلَى جَرْمَزِي خَشِيَةً أَنْ يَعَثَّرَ عَلَيْهِمَا  
رِجَالُ الْمُسْتَشْفَى إِنْ هُمَا ذَهَبَا إِلَى الْبَيْتِ ، وَفِي جَرْمَزِي وَقَعَتْ  
أَنْ ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، فَرِيَسَةً مَرَضِ الْقَلْبِ . وَتَرَكَهَا الْمَرَضُ فِي حَالَةٍ  
ضَعْفٍ شَدِيدٍ ، وَلَكِنَّهَا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ ، قَرَّرَتْ أَنْ تَعُودَ إِلَى  
هَامْبُشِيرَ لِرُؤْيَةِ لَيْدِي غَلَايْدَ . وَكَانَتْ عَوْدَتُهُمَا إِلَى هُنَاكَ تُفَسَّرُ  
كَيْفِيَّةً مَجِيئَهَا إِلَى حَظِيرَةِ الْقَوَارِبِ وَرُؤْيِهَا لُورَا ، ذَاتَ يَوْمٍ . وَلَكِنْ  
الْمَرَضُ الْقَدِيمَ عَاوَدَهَا ، فَاضْطَرَّتْ إِلَى مُلَازِمَةِ الْفِرَاشِ . ثُمَّ ذَهَبَتْ  
السَّيِّدَةُ كَلِيمَنْتِسَ لِلْبَحِيرَةِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي لَعَلَّهَا تَجِدُ لَيْدِي غَلَايْدَ  
فَتُتَنَاشِدُهَا الْعَوْنَ ، وَلَكِنَّهَا لِسُوءِ الْحَظِّ ، قَابَلَتْ كَوْنَتَ فُوسْكَو بَدَلًا  
مِنْهَا ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّ لَيْدِي غَلَايْدَ كَانَتْ تُرِيدُ مِنْ أَنْ تَعُودَ إِلَى لَنْدَنْ  
فِي الْحَالِ . وَعِنْدَمَا أَوْضَحَتْ لَهُ السَّيِّدَةُ كَلِيمَنْتِسَ أَنَّ الْفَتَاةَ كَانَتْ  
مَرِيضَةً ، ذَكَرَ أَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ كَانَ طَبِيبًا ، وَأَنَّهُ سَيَأْتِي وَيَرَى مَا يُمْكِنُهُ  
عَمَلُهُ لِإِعْلَاجِ الْمَرِيضَةِ .

وَأَعْطَاهَا دَوَاءً مَنَحَهَا مِنْ الْقُوَّةِ مَا مَكَّنَهَا مِنَ الْقِيَامِ  
بِالسَّفَرَةِ الْمُطْلُوبَةِ . وَذَهَبَتْ أَنْ وَالسَّيِّدَةُ كَلِيمَنْتِسَ إِلَى لَنْدَنْ ،

وَأَسْتَأْجَرْنَا حَجَرَتَيْنِ لِسُكْنَاهُمَا ، وَأَرْسَلَا عَنْوَانَهُمَا إِلَى الْكَوْنَتِ حَسَبِ  
طَلِبِهِ ؛ حَتَّى تَسْتَطِيعَ لَيْدِي غَلَايْدَ أَنْ تَزُورَ أَنْ .

وَبَعْدَ أُسْبُوعَيْنِ جَاءَتْ امْرَأَةٌ - لَا بُدَّ أَنَّهَا كَانَتْ الْكَوْنَتِيَسَةُ  
فُوسْكَو - إِلَى الْبَيْتِ ، وَقَالَتْ إِنَّهَا كَانَتْ مُرْسَلَةً مِنْ قِبَلِ لَيْدِي  
غَلَايْدَ الَّتِي كَانَتْ تَرْغَبُ فِي رُؤْيَةِ السَّيِّدَةِ كَلِيمَنْتِسَ لِتَرْتِيبِ مُقَابَلَةٍ  
مَعَهَا ؛ لِذَا فَقَدْ ذَهَبَتْ السَّيِّدَةُ كَلِيمَنْتِسَ مَعَهَا فِي الْعَرَبَةِ ، وَلَكِنْ  
السَّيِّدَةُ أَوْقَفَتْ الْعَرَبَةَ عِنْدَ أَحَدِ الْمُتَاجِرِ وَهَبَطَتْ مِنْهَا ، وَلَمْ تَظْهَرْ بَعْدَ  
ذَلِكَ قَطُّ . وَانْتَظَرَتِ السَّيِّدَةُ كَلِيمَنْتِسَ بَعْضًا مِنَ الْوَقْتِ ، وَلَكِنْ  
دُونَ جَدْوَى ، فَعَادَتْ إِلَى الْبَيْتِ ، وَهِيَ نَهَبٌ لِلْقَلْقَلِ ، لِتَكْتَشِفَ أَنَّ  
أَنْ قَدْ اخْتَفَتْ ، وَلَمْ تَرَهَا مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ .

سَأَلَتْهَا : « هَلْ كُنْتُ وَالسَّيِّدَةُ كَاتِيرِيكُ جَارَتَيْنِ ؟ »

« نَعَمْ ، كُنَّا جَارَتَيْنِ فِي أَوْلَدَ وَلَمْنَعُهُمَا ، فِي الْحَيِّ الْقَدِيمِ مِنَ  
الْمَدِينَةِ . كَانَتْ امْرَأَةٌ مُشَاكِسَةً ، يَا سَيِّدِي ، وَكَانَ زَوْجُهَا كَاتِبًا  
لِلسَّجَلَاتِ . وَقَدْ تَوَقَّعَ زَوْجِي أَنَّ الْأُمُورَ سَتَسُوءُ عِنْدَمَا يَأْتِيَانِ لِلسَّكَنِ .  
وَكَانَ حُكْمُهُ صَائِبًا ، فَقَبْلَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عَلَى إِقَامَتِهِمَا فِي  
مَكَانِهِمَا الْجَدِيدِ ، ثَارَتْ مَشَاكِلُ جَدِيدَةٍ مَعَ أَحَدِ الرِّجَالِ . أَنْتَ  
تَعْرِفُهُ جَيِّدًا . إِنَّهُ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ غَلَايْدَ . »



وَأَزْدَادَتْ ضَرَبَاتُ قَلْبِي . تَرَى هَلْ كُنْتُ فِي سَبِيلِي إِلَى السَّرِّ ؟  
سَأَلْتُهَا : « أَمْ كَانَ مِنْ سُكَّانِ تِلْكَ الْمُنْطَقَةِ ؟ »

« لَا ، يَا سَيِّدِي . جَاءَ بَيْنَنَا كَغَرِيبٍ . وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ مَاتَ مِنْذُ  
وَقْتُ قَصِيرٍ فِي بَلَدٍ أَعْجَنِي . إِنِّي لَا أَرَأَى أَنْ أَذْكَرَ تِلْكَ الْمَشْكَلَةَ جَيِّدًا ،  
فَقَدْ وَجَدَ كَاثِيرِيكَ زَوْجَتَهُ وَفِي حَيَاظَتِهَا خَوَاتِمَ وَسَاعَةَ ذَهَبِيَّةٍ مَا كَانَتْ  
تَسْتَطِيعُ سِوَى سَيِّدَةٍ مِنَ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ أَنْ تَمْلِكَهَا . كَانَتْ هَدَايَا مِنْ  
سِير بيرسيغال . وَجَاءَ كَاثِيرِيكَ ، ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَهُوَ فِي حَالَةٍ هِيَاجٍ  
شَدِيدٍ لِيُخْبِرَ زَوْجِي بِذَلِكَ ؛ ثُمَّ إِذْ بِهِ ، بَعْدَ يَوْمَيْنِ ، يَجِدُ زَوْجَتَهُ وَسِير  
بيرسيغال يَتَهَامَسَانِ . وَتَشَاجَرَ الرَّجُلَانِ . وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ رَحَلَ  
كَاثِيرِيكَ مِنَ الْقَرْيَةِ ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ قَطُّ . قِيلَ إِنَّ كَرَامَتَهُ  
كَانَتْ تَأْبَى عَلَيْهِ أَنْ يُوَاجِهَ جِيرَانَهُ بَعْدَ تِلْكَ الْفَضِيحَةِ . وَرَحَلَ سِير  
بيرسيغال هُوَ الْآخِرُ . »

« وَالسَّيِّدَةُ كَاثِيرِيكَ ؟ »

« بَقِيَتْ فِي مَكَانِهَا ، يَا سَيِّدِي . قَالَتْ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ  
سِوَى سُوءِ ظَنٍّ فَاحِشٍ لَمْ يَكُنْ لِيُخْرِجْهَا مِنْ بَيْتِهَا كَامْرَأَةً مُدْنِيَةً .  
بَقِيَتْ هُنَاكَ وَأُظُنُّ أَنَّ سِير بيرسيغال كَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهَا نَقُودًا تُنْفَقُ  
مِنْهَا . »

وَفَكَّرْتُ هُنَيْهَةً . كَانَ يَدُو أَنْ لَيْسَ هُنَاكَ - فِيمَا قِيلَ - أَمَلٌ فِي  
الرُّصُولِ إِلَى ذَلِكَ السَّرِّ . وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ تَبْقَى السَّيِّدَةُ  
كَاثِيرِيكَ فِي مَكَانِهَا . تَرَى لِمَ فَعَلْتُ ذَلِكَ ؟ هَلْ دَفَعَهَا سِير  
بيرسيغال إِلَى الْبَقَاءِ هُنَاكَ ؟ أَيْنَ أَجِدُ مِفْتَاحَ ذَلِكَ اللَّغْزِ الْغَامِضِ ؟  
هَلْ كَانَتْ السَّيِّدَةُ كَاثِيرِيكَ عَلَى حَقٍّ حِينَ قَالَتْ أَنَّهُ كَانَ ثَمَّةَ سُوءِ  
ظَنٍّ فَاحِشٍ ؟ وَبَدَأْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ اللِّقَاءَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَتِمُّ فِي الْخَفَاءِ  
لَا صِلَةَ لَهَا بِشَرَفِ السَّيِّدِ كَاثِيرِيكَ بِصِفَتِهِ زَوْجِهَا . كَانَ ثَمَّةَ شَيْءٍ  
خَفِيٍّ فِي حَالَتِنَا هَذِهِ .

سَأَلْتُ : « أَمْ تُعْرِفِينَ لِمَ احْتَجَزَ سِير بيرسيغال أَنْ ؟ »

« لَا أَعْرِفُ سِوَى مَا أَخْبَرْتَنِي هِيَ بِهِ ، يَا سَيِّدِي . كَانَ عَقْلُهَا  
يَشْرُدُ فِي اكْتِثَابٍ ، وَلَمْ تَكُنْ صَافِيَةَ الذَّهْنِ تَمَامًا . كَانَتْ تَقُولُ إِنَّ  
أُمَّهَا تَعْرِفُ سِرًّا مَا لِسِير بيرسيغال ، وَأَنَّهَا أَفْضَتْ إِلَيْهَا بِهِ . وَعِنْدَمَا  
اكتُشِفَ سِير بيرسيغال هَذَا الْأَمْرُ ، احْتَجَزَهَا . كُلُّ مَا قَالَتْهُ لِي أَنَّ  
أُمَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُدْمِرَ حَيَاةَ سِير بيرسيغال ، إِنَّ هِيَ أَرَادَتْ . لَا أَظُنُّ  
أَنَّهَا كَانَتْ تَعْرِفُ فِعْلًا كُلَّ الْحَقِيقَةِ ، وَلَا لِأَخْبَرْتَنِي بِهَا . »

كُنْتُ ، مِنْ قَبْلُ ، أَظُنُّ أَنَّ قَدْ لَا تَعْرِفُ كُنْهَ هَذَا السَّرِّ ،  
وَلَكِنْ مِنَ الْجَائِزِ أَنَّهَا كَانَتْ تَتَظَاهَرُ بِمَعْرِفَتِهَا لَهُ . وَكَانَ هَذَا يَكْفِي  
لِتَصَرُّفِ سِير بيرسيغال نَحْوَهَا .



وَرَدًا عَلَى الْأَسْئَلَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ لِلْمَرْأَةِ الْمِسْكِينَةِ ، اضْطَرَّرْتُ أَنْ  
أَعْتَرِفَ لَهَا بِوَفَاةِ أَنْ ، فَسَأَلْتَنِي فِي حُزْنٍ وَأَسَى إِنَّ كَانَتْ الْفَتَاةُ قَدْ  
أَقِيَمَتْ لَهَا جِنَازَةً لَائِقَةً . وَكَانَ بِاسْطِطَاعَتِي أَنْ أَرُدَّ بِالْإِجَابِ . ثُمَّ  
طَلَبْتُ مِنْهَا خِدْمَةً آخِرَةً .

« هَلْ تَسْمَحِينَ بِإِعْطَائِي عُنْوَانَ السَّيِّدَةِ كَاثِيرِيك فِي نِيَوِ  
وَلْمَنْغَهَام ؟ »

سَأَلْتُ بِقَلْبِي بِالْبَلْغِ : « لِمَ تُرِيدُ رُؤْيَيْهَا ؟ لَا تَذْهَبُ إِلَيْهَا ، يَا سَيِّدِي !  
لَا تَذْهَبُ . إِنَّهَا امْرَأَةٌ رَهِيْبَةٌ ! أَنْتَ لَا تَعْرِفُهَا مِثْلَمَا أَعْرِفُهَا . »

قُلْتُ فِي رَفْقٍ : « أَنَا وَاثِقٌ أَنْ تَحْذِيرُكَ صَادِرٌ عَنْ نِيَّةٍ طَيِّبَةٍ ،  
وَلَكِنِّي مُصَمِّمٌ عَلَى رُؤْيَيْهَا . هُنَاكَ سِرٌّ دَفِينٌ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ لَا يَعْرِفُهُ  
أَحَدٌ مِنَّا ، وَلَسَوْفَ أَكْتَشِفُهُ . »

وَأَدْرَكْتُ أَنَّي مُصَمِّمٌ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَأَعْطَيْتُي الْعُنْوَانَ .  
وَوَدَّعْتُهَا قَائِلًا : « سَأَكْتُبُ إِلَيْكَ قَرِيبًا . » ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَمَضَيْتُ  
لِحَالِ سَبِيلِي .

## الفصل التاسع عشر

أَخْبَرْتُ مَارِيَان بِخُطْبَتِي الْخَاصَّةِ بِالذَّهَابِ إِلَى وَلْمَنْغَهَام . وَاتَّفَقْنَا  
عَلَى أَنْ نَتَرَاوَعَلْ يَوْمِيًّا طَيِّلَةً غِيَابِي ، وَسَأَعْرِفُ ، مَا دَامَتْ تَكْتُبُ إِلَيَّ  
بِالنِّتِظَامِ ، أَنَّ الْأُمُورَ تَسِيرُ عَلَى مَا يُرَامُ . أَمَّا إِذَا حَدَّثَ وَجَاءَ صَبَاحُ  
يَوْمٍ لَمْ أَتَلَقُ فِيهِ خِطَابًا مِنْهَا ، فَعَلَيَّ أَنْ أَعُودَ ، فَوْرًا ، بِأَوَّلِ قِطَارٍ .

وَأَسْرَعْتُ الْخُطَى إِلَى الْمَحْطَّةِ وَأَنَا مُفْعَمٌ بِالْأَمَلِ . كُنْتُ وَاثِقًا أَنَّ  
سَفَرِي لَنْ يَكُونَ عَقِيمًا . وَكَانَ صَبَاحًا جَمِيلًا صَافِيًا ، مُنْعَشًا ،  
شَعَرْتُ فِيهِ بِقُوَّةٍ تَسْرِي فِي جَمِيعِ أَوْصَالِي .

وَمَا إِنَّ وَصَلْتُ إِلَى وَلْمَنْغَهَام حَتَّى سَأَلْتُ عَنْ الْحَيِّ الَّذِي كَانَتْ  
تَسْكُنُهُ السَّيِّدَةُ كَاثِيرِيك . وَوَجَدْتُ الْبَيْتَ دُونَ عَنَاءٍ . كَانَتْ تُجَاوِرُهُ  
رُقْعَةٌ مِنَ الْعُشْبِ بِسِيَاحٍ مِنَ السَّلَكِ الرَّخِيسِ . وَهُنَاكَ وَقَفَتْ امْرَأَةٌ  
وَطِفْلَانِ يَنْظُرُونَ إِلَى عَنَزَةٍ عَجَفَاءَ عَلَى الْعُشْبِ . كَانَ الْمَنْظَرُ كُلُّهُ



مَنْظَرًا فَقِيرًا بَائِسًا .

وَمَشَيْتُ إِلَى الْبَابِ وَطَرَقْتُهُ ، فَفَتَحَتْ خَادِمَةٌ يعلو وَجْهَهَا حُزْنٌ  
وَإِكْتِنَابٌ ، وَقَادَتْنِي إِلَى الدَّاحِلِ .

دَخَلْتُ حَجْرَةً تَكْنُظُ بِأَثَاثٍ رَخِيسٍ ، وَكَانَتْ تَجْلِسُ فِيهَا امْرَأَةٌ  
عَجُوزٌ ذَاتُ شَعْرٍ أَشْيَبَ يَتَدَلَّى عَلَى صُدْغَيْهَا ، وَعَيْنَيْنِ صَارِمَتَيْنِ ،  
بَادَرْتَنِي بِقَوْلِهَا : « لَا تُثْقِلْ عَلَيَّ ، وَادْكُرْ بِسُرْعَةٍ مَا تُرِيدُ قَوْلَهُ . »

كَانَتْ نَعْمَةً صَوْتُهَا صَارِمَةً كَعَيْنَيْهَا . وَأَشَارَتْ إِلَى مَقْعَدٍ ، ثُمَّ  
تَفَحَّصْتَنِي مِنْ قِمَّةِ رَأْسِي إِلَى أُخْمَصِ قَدَمَيَّ . وَرَأَيْتُ أَنَّ فُرْصَتِي  
الْوَحِيدَةَ مَعَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ هِيَ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْهَا بِنَفْسٍ نَعْمَتِهَا ، وَأَنْ

أَكُونَ فِي مِثْلِ صِرَامَتِهَا .

قُلْتُ : « أَتَعْرِفِينَ أَنَّ ابْنَتَكَ مَفْقُودَةٌ ؟ »

« أَعْرِفُ . »

« أَمَا خَشِيتِ اخْتِمَالَ مَوْتِهَا ؟ »

« بَلَى . أَجِئْتُ إِلَى هُنَا لِتُخْبِرَنِي بِمَوْتِهَا ؟ »

« نَعَمْ . »

« لِمَ ؟ »

سَأَلْتُ هَذَا السُّؤَالَ الْغَرِيبَ دُونَ أَيِّ تَغْيِيرٍ فِي صَوْنِهَا أَوْ وَجْهِهَا أَوْ  
طَرِيقَتِهَا . ظَلْتُ عَلَى هُدُوءِهَا وَكَأَنَّنِي أَنْبَأْتُهَا بِمَوْتِ الْعَنْزَةِ الْوَاقِعَةِ  
خَارِجَ النَّافِذَةِ .

مَضَتْ تَسْأَلُ : « كَيْفَ عَرَفْتَ أَخْبَارَ ابْنَتِي ؟ »

« سَاعَدْتُهَا بَعْدَ هُرُوبِهَا مِنْ مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ . »

« لَقَدْ أَخْطَأْتَ كَثِيرًا . لِمَ جِئْتَ إِلَى هُنَا ؟ وَكَيْفَ عَرَفْتَ

عُنْوَاني ؟ »

« حَصَلْتُ عَلَيْهِ مِنَ السَّيِّدَةِ كَلِيمَتَس . »





« السَّيِّدَةُ كَلِمَتَسِ امْرَأَةٍ بَلْهَاءُ ! عِمَّ صَبَاحًا . »

وَمَضَيْتُ أَقُولُ دُونَ أَنْ أَكْثَرْتُ بِكَلِمَاتِهَا : « لَقَدْ سَاعَدَ مَوْتُ  
ابْنَتِكَ رَجُلَيْنِ شَرِيرَيْنِ عَلَى الْإِضْرَارِ بِشَخْصٍ عَزِيزٍ عَلَيَّ . أَحَدُ هَذَيْنِ  
الرَّجُلَيْنِ هُوَ سِير بِيرْسِيْثَالْ غَلَايِد . »

« حَقًّا ؟ »

وَنَظَرْتُ لِأَرَى إِنْ كَانَ ذِكْرُ ذَلِكَ الْأِسْمِ قَدْ أَثَّرَ فِيهَا ، وَلَكِنْ لَمْ  
تَخْتَلِجْ عَضَلَةً وَاحِدَةً مِنْ عَضَلَاتِ وَجْهِهَا .

سَأَلْتُ : « لِمَ تَذْكُرُ لِي هَذَا ؟ »

« لِأَنِّي مُصَمِّمٌ عَلَى تَقْدِيمِ سِير بِيرْسِيْثَالْ لِلْعَدَالَةِ عِقَابًا لَهُ عَلَى  
مَا جَنَاهُ ! »

« أَنَا لَا أَبَالِي بِتَصْمِيمِكَ . »

« هُنَاكَ أَحْدَاثٌ مُعَيَّنَةٌ فِي حَيَاةِ سِير بِيرْسِيْثَالْ أَوْدُ أَنْ أَعْرِفَهَا .  
أَحْدَاثٌ وَقَعَتْ فِي أَوْلَدِ وَلَمْنَعْهَامِ عِنْدَمَا كَانَ زَوْجُكَ كَاتِبًا فِيهَا . »  
هَا قَدْ أَثَّرَتْ عَلَى الْمَرْأَةِ أَخِيرًا ! لَمْ تَبْقَ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ  
هَدوءٍ .

وَسَأَلْتُ : « مَاذَا تَعْرِفُ عَنْ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ ؟ »

« كُلُّ مَا اسْتَطَاعَتِ السَّيِّدَةُ كَلِمَتَسِ أَنْ تَقُولَهُ لِي . »

« آه ، بَدَأَتْ أَفْهَمُ . تُرِيدُ أَنْ أَسَاعِدَكَ ضِدَّ سِير بِيرْسِيْثَالْ . تُرِيدُ أَنْ  
تَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَيَاتِي الْخَاصَّةِ . حَسَنًا ، فَمَ بِعَمَلِكَ بِنَفْسِكَ ،  
ثُمَّ ، حِينَ تَنْتَمُهُ ، عُدْ إِلَيَّ . »

« أَلَنْ تُسَاعِدَنِي ؟ »

« نَعَمْ . »

قُلْتُ : « أَنْتِ خَائِفَةٌ مِنْ سِير بِيرْسِيْثَالْ غَلَايِد . »

« أَتَظُنُّ ذَلِكَ ؟ » كَانَتْ يَدَاهَا تَتَحَرَّكَانِ فِي قَلْقٍ .

مَضَيْتُ أَقُولُ : « سِير بِيرْسِيْثَالْ رَجُلٌ ذُو نَفُوذٍ وَمَرْكَزٍ كَبِيرٍ فِي  
الْحَيَاةِ . إِنَّهُ بَارُونٌ يَمْتَلِكُ أَرْضِيَّ كَثِيرَةً ، وَهُوَ سَكِيلٌ عَائِلَةٌ عَرِيقَةً . »

قَالَتْ بِازْدِرَاءٍ : « نَعَمْ . نَعَمْ . صَدَقْتَ ! عَائِلَةٌ عَرِيقَةً ! خَاصَّةً  
مِنْ نَاحِيَةِ أُمِّهِ ! »

لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ وَقْتٍ لِلتَّفَكِيرِ فِيمَا كَانَتْ تَعْنِيهِ كَلِمَاتُهَا ،  
فَاسْتَطَرَدْتُ أَقُولُ : « لَا أَعْرِفُ إِلَّا الْقَلِيلَ عَنْ سِير بِيرْسِيْثَالْ ، وَلَكِنِّي  
أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحِبُّكَ قَطُّ . وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْحُبُّ هُوَ سَبَبُ  
لِقَائِكَ بِهِ بِالْقُرْبِ مِنْ حُجْرَةِ السَّجَلَاتِ . كَانَ هُنَاكَ سَبَبٌ آخَرُ ! »



وَرَأَيْتُ تَغْيِرًا غَرِيبًا يَطْرَأُ عَلَيْهَا . بَدَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ الْجَرِيئَةُ الصَّارِمَةُ  
خَائِفَةً مَذْعُورَةً .

قَالَتْ مُشِيرَةً إِلَى الْبَابِ : « اذْهَبْ ! اذْهَبْ وَلَا تَعُدْ ثَانِيَةً ! »

وَرَأَيْتُنِي خُلْسَةً وَأَنَا أَتَجَّهُ نَحْوَ الْبَابِ . أَمْ كَانَتْ تُفَكِّرُ فِي قُوَّتِي  
وَشَبَابِي ؟ أَمْ كَانَتْ تَتَسَاءَلُ مَاذَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ إِنْ أَنَا التَّقِيْتُ سِيرَ  
بِيرْسِيْفَالِ وَجْهًا لَوَجْهٍ ؟

وَدُونَ كَلِمَةٍ أُخْرَى ، سَوَاءٌ مِنِّي أَوْ مِنْهَا ، غَادَرْتُ الْحُجْرَةَ  
وَالْبَيْتَ .

وَذَهَبْتُ إِلَى فُنْدُقِي وَطَلَبْتُ عَشَائِي ، وَجَلَسْتُ أَكْتُبُ إِلَى  
مَارِيَانِ . وَسَنَحْتُ لِي ، بَعْدَ كِتَابَةِ الْخِطَابِ إِلَيْهَا ، فُرْصَةَ التَّفَكُّيرِ  
فِيمَا عَلِمْتُهُ . بَدَأَ لِي أَنَّ حُجْرَةَ السَّجَّلَاتِ فِي وَلِنْغَهَامِ كَانَتْ شَيْئًا لَهُ  
أَهْمِيَّةٌ . كَانَتْ مَكَانًا غَرِيبًا لِلِقَاءَاتِ سِيرِ بِيرْسِيْفَالِ وَزَوْجَةِ الْكَاتِبِ .  
فَعِنْدَمَا ذَكَرْتُهَا لِلْسَيِّدَةِ كَاثِيرِيكِ أَصْبَيْتُ بِالذُّعْرِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ  
عَيْنَيْهَا الصَّارِمَتَيْنِ . أَمْ كَانَتْ هُنَاكَ جَرِيْمَةٌ مُتَّصِلَةٌ بِحُجْرَةِ السَّجَّلَاتِ ؟  
وَلَمْ كَانَتْ السَيِّدَةُ كَاثِيرِيكِ عَلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْإِحْتِقَارِ لِمَكَانَةِ  
سِيرِ بِيرْسِيْفَالِ وَنُفُوذِهِ ؟ لَمْ تَكَلِّمْتُ عَلَى هَذَا النُّحُو الْغَرِيبِ عَنْ أُمِّهِ ؟  
أَمْ كَانَتْ أُمُّهُ مِنْ أَصْلٍ وَضِيعٍ ؟ مَا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْتُشِفَ ذَلِكَ

إِلَّا بِالنَّظَرِ فِي دَفْتَرِ تَسْجِيلِ الرِّجَالِ . تَرَى أَيْنَ كَانَ ؟ وَبَعْدَمَا فَكَّرْتُ  
فِي الْأَمْرِ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهِ ، حَكَمْتُ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي حُجْرَةِ  
سَجَّلَاتِ أَوْلَدِ وَلِنْغَهَامِ .

لِذَا انْطَلَقْتُ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ إِلَى أَوْلَدِ وَلِنْغَهَامِ ، وَكَانَتْ  
عَلَى رَأْيِي مُرْتَفَعَةً وَمَحَاطَةً بِبُيُوتِ خَرِبَةٍ مُهْدَمَةٍ مِنْ بُيُوتِ الْقَرْيَةِ  
الْقَدِيمَةِ .

وَعِنْدَمَا اقْتَرَبْتُ لَاحِظْتُ وُجُودَ رَجُلَيْنِ يَقِفَانِ خَلْفَ حَائِطٍ ،  
وَتَعَرَّفْتُ عَلَى أَحَدِهِمَا لِتَوِي - كَانَ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَتَّبَعَانِي  
حِينَ غَادَرْتُ مَكْتَبَ السَّيِّدِ كَايِلِ فِي لُنْدَنِ . كَانَ الْأَمْرُ كَمَا  
حَسِبْتُ : كَانَ سِيرِ بِيرِ سِيْفَالِ مُسْتَعِدًّا لِي ، وَكَانَتْ كُلُّ تَحَرُّكَاتِي  
مَوْضِعَ مُرَاقَبَتِهِ . إِذَا فَقَدْ كُنْتُ أُسِيرُ فِي الْإِتْجَاهِ الصَّحِيحِ . وَكَانَ  
هَذَا مِمَّا شَجَّعَنِي .

كَانَ الْكَاتِبُ فِي كُوْنِهِ الصَّغِيرِ . كَانَ رَجُلًا بَشُوشًا ، ثَرثارًا ، لَا  
يُكِنُّ احْتِرَامًا - كَمَا اكْتُشِفْتُ - لِلْقَرْيَةِ وَلَا لِجِيرَانِهِ . وَالتَّقَطَّ  
الْمِفَاتِيحُ مِنْ أَحَدِ الْخَطَاطِيفِ بِجَوَارِ الْمِدْفَاقَةِ ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ طَوَالَ  
الْوَقْتِ ، ثُمَّ أَعْلَقَ بَابَ الْكُوخِ خَلْفَهُ وَخَرَجْنَا .

قَالَ : « لَيْسَ ثَمَّةُ أَحَدٍ يَعْنَنِي بَيْتِي . زَوْجَتِي مُتَوَفَاةٌ وَأَبْنَائِي كُلُّهُمْ



مُتَزَوِّجُونَ . مَكَانٌ مُوَحِّشٌ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ وَلَكِنِّي سَافَرْتُ إِلَى  
لَنْدُنْ مِنْذُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً . مَا أَخْبَارُهَا الْآنَ ؟

وَقَادَنِي وَهُوَ يُثَرِّرُ عَلَيَّ هَذَا النَّحْوُ إِلَى حُجْرَةِ السَّجَلَاتِ الَّتِي  
كَانَ بِأُهَا مَتِينًا وَسَمِيكًا . وَوَجَدْنَا بَعْضَ صُعُوبَةٍ فِي فَتْحِ قُفْلِهَا ،  
وَلَمْ يَدْرِ الْمِفْتَاحُ إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ جَهْدٍ .

قَالَ : « هَذَا الْقُفْلُ لَا بُدَّ أَنْ يَغْيَرَ . إِنَّهُ دَائِمًا مَصْدَرُ إِزْعَاجٍ لِي . »

وَكَانَتْ حُجْرَةُ السَّجَلَاتِ أَكْبَرَ مِنَ الْمَالُوفِ ، وَمُظْلِمَةً وَقَدِيمَةً  
الْأَثَاثِ . وَكَانَتْ النَّافِذَةُ الْوَحِيدَةُ بِهَا مَوْجُودَةً بِالسَّقْفِ . وَعَلَى  
الْأَرْضِ تَبَعَثَتْ ثَلَاثَةُ صِنَادِيقٍ لِلتَّعْيَةِ وَالكَثِيرُ مِنَ الْأَوْرَاقِ الْقَدِيمَةِ  
الْمَكْسُورَةِ بِالْغُبَارِ . وَكَانَ الْجَوْ خَانِقًا .

وَمَضَى الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ وَيَتَكَلَّمُ ، وَلَكِنِّي قَاطَعْتُهُ بِسُؤَالِهِ عَنْ سِجْلِ  
الزَّوْاجِ ، فَأَخْرَجَهُ أَخِيرًا مِنْ خِزَانَةِ كُتُبٍ قَدِيمَةٍ مُهْشَمَةٍ . وَدَهَشْتُ  
لِرُؤْيَايَ مِثْلَ هَذَا الدُّفْتَرِ الْهَامِّ يُحْتَفَظُ بِهِ فِي مَكَانٍ غَيْرِ مَأْمُونٍ  
كَهَذَا ، حَيْثُ يَسْتَطِيعُ أَيُّ شَخْصٍ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ .

سَأَلْتُهُ : « أَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْتَفَظَ بِهَذَا الدُّفْتَرِ فِي مَكَانٍ أَكْثَرَ  
أَمَانًا ؟ »

أَجَابَ : « شَيْءٌ غَرِيبٌ حَقًّا . كَانَ رَئِيسِي السَّابِقُ يُرَدِّدُ نَفْسَ

الْكَلَامِ مِنْذُ سَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ . كَانَ مُحَامِيًا ، يَا سَيِّدِي . وَكَانَ يَدْقُقُ  
فِي كُلِّ شَيْءٍ . كَانَ طِيلَةً حَيَاتِهِ يَحْتَفِظُ بِنُسْخَةٍ مِنْ هَذَا الدُّفْتَرِ فِي  
مَكْتَبِهِ فِي نُولزبري . كَانَ يَقُولُ دَائِمًا : « كَيْفَ لِي أَنْ أَعْرِفَ أَنَّ  
السَّجْلَ فِي هَذِهِ الْحُجْرَةِ قَدْ لَا يُسْرَقُ أَوْ يُتَلَفُ ؟ قَدْ تَقَعَ حَادِثَةٌ فِي  
يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ فَتُكْتَشَفُ قِيمَةُ نُسخَتِي . » كَانَ رَجُلًا رَائِعًا ! قُلْتُ  
لِي آيَةُ سَنَةٍ ، يَا سَيِّدِي ؟ »

قُلْتُ : « سَنَةُ أَلْفٍ وَثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعٍ . »

« هَا هِيَ ذِي ، يَا سَيِّدِي ، هَا هِيَ السَّنَةُ الَّتِي تُرِيدُهَا . » وَوَضَعَ  
الدُّفْتَرَ مَفْتُوحًا أَمَامِي .

لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ فِي أَيِّ شَهْرٍ وُلِدَ سِير بيرسيغال ، وَلَكِنِّي كُنْتُ  
أَعْرِفُ السَّنَةَ مِنْ سَنِهِ . كَانَ الدُّفْتَرُ مِنَ النُّوعِ الْقَدِيمِ . وَكَانَتْ  
الْبَيِّنَاتُ عِنْدَ عَقْدِ أَيِّ قِرَانٍ تُكْتَبُ فِي الصَّفْحَةِ الْخَالِيَةِ ، ثُمَّ يَجْرُ  
خَطٌّ فِي أَسْفَلِهَا . وَتَفَحَّصْتُ الْكِتَابَةَ مُقَلِّبًا الصَّفْحَاتِ إِلَى الْوَرَاءِ  
حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى سِبْتَمْبَرِ ١٨٠٣ ، وَهَنَّاكَ وَجَدْتُ الزَّيْجَةَ الْمَطْلُوبَةَ ،  
كَانَتْ مُدَوَّنَةً فِي أَسْفَلِ صَفْحَةٍ لَمْ يَكُنْ بِهَا مَجَالٌ كَبِيرٌ ، فَكَانَ أَنْ  
حُشِرَتْ فِي حَيِّزٍ ضَيِّقٍ لِلْغَايَةِ . وَفِي أَعْلَى الصَّفْحَةِ التَّالِيَةِ ، وَقَعَتْ  
عَيْنَايَ عَلَى قَيْدِ زَيْجَتَيْنِ لِأَخَوَيْنِ فِي حَيِّزٍ كَبِيرٍ .



لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ غَرِيبٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِقَيْدِ زَوَاجِ سِيرِ فِيلِيكْسِ  
غَلَايِدِ سِوَى ضَيْقِ الْمَكَانِ الَّذِي حُشِرَ فِيهِ . وَكَتَبْتُ الْبَيَانَاتِ فِي  
مُفَكَّرَتِي ، وَلَكِنْ آمَالِي فِي الْوُصُولِ إِلَى السَّرِّ تَضَاعَلَتْ كَثِيرًا . لَمْ  
يَبْدُ هُنَاكَ سِرٌّ مَا . إِذَا مَا الَّذِي يُمَكِّنُ عَمَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ سَأَلْتُ إِنْ  
كَانَ الشَّيْخُ الَّذِي قَامَ بِمَرَاثِمِ الزَّوْاجِ لَا يَزَالُ حَيًّا .

## الفصل العشرون

عِنْدَمَا انْطَلَقْتُ صَوْبَ نُولزْبِرِي ، لَاحَظْتُ الرَّجُلَيْنِ مَرَّةً أُخْرَى ،  
وَلَكِنْ رَجُلًا ثَالِثًا كَانَ قَدْ انْضَمَّ إِلَيْهِمَا . مَا كَانَ جَوَاسِيسُ سِيرِ  
بِيرْسِفَالِ لِيَسْمَحُوا لِي بِأَنْ أَغِيبَ عَنْ أَنْظَارِهِمْ . إِذَا عَلَيَّ أَنْ أَحُثَّ  
الْخَطِيئَةَ .

وَأَخَذْتُ أَقْلَبُ فِي ذَهْنِي ، أَتْنَاءَ سَيْرِي فِي الطَّرِيقِ الرَّيْفِيِّ ، مَا  
قَالَ لِي كَاتِبُ السَّجَلَاتِ ، فَقَرَّرْتُ أَنَّنِي لَنْ أَخْسِرَ شَيْئًا إِنْ اسْتَطَعْتُ  
أَنْ أَلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى نُسخَةِ السَّجَلِ الْمُحْفَوظَةِ ، وَأَنْ أَطْلُبَ مِنَ السَّيِّدِ  
وَنَزَبُورُو أَنْ يُطْلِعَنِي عَلَيْهَا .

وَأَطْلَعَنِي هَذَا عَلَيْهَا مُرَجَّبًا حِينَ وَصَلْتُ إِلَى مَكْتَبِهِ ، وَقَالَ :  
« مِمَّا يُرْتَى لَهُ أَلَّا يَكُونَ أَبِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ ؛ لَيْسَمَعَ أَنَّ هُنَاكَ  
أَخِيرًا مَنْ يَطْلُبُ نُسخَتَهُ الْقِيَمَةَ ! »

« لَا ، يَا سَيِّدِي ، لَقَدْ مَاتَ قَبْلَ مَجِيئِي إِلَى هُنَا . » ثُمَّ مَضَى  
صَاحِبِي الثَّرَنَارُ يَقُولُ : « لَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى هَذِهِ الْوَظِيفَةِ بِمُسَاعَدَةِ  
السَّيِّدِ وَنَزَبُورُو . إِنَّهُ ابْنُ رَئِيسِي السَّابِقِ الَّذِي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ . إِنَّهُ شَابٌّ  
لَطِيفٌ جِدًّا ، يَا سَيِّدِي ، وَيَعِيشُ فِي نُولزْبِرِي مِثْلَ أَبِيهِ . وَهُوَ مُحَامٍ  
كَأَبِيهِ أَيْضًا . »

« كَمْ تَبْعُدُ نُولزْبِرِي عَنْ هُنَا ؟ »

« بَعِيدَةٌ ، يَا سَيِّدِي . حَوَالِي ثَمَانِيَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ . »

كَانَ الْوَقْتُ بَعْدَ الظُّهْرِ بِقَلِيلٍ ، وَكَانَ أَمَامِي كَثِيرٌ مِنَ الْوَقْتِ  
لِقَطْعِ الْمَسَافَةِ سَيْرًا عَلَى قَدَمَيَّ . وَبَدَأَ لِي أَنَّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ أَذْهَبَ  
لِرُؤْيَةِ السَّيِّدِ وَنَزَبُورُو ، فَقَدْ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُخْبِرَنِي بِشَيْءٍ . لَذَا  
شَكَرْتُ الْكَاتِبَ عَلَى مَا تَجَشَّمَهُ مِنْ مُتَاعِبٍ ، وَمَشَيْتُ بِسُرْعَةٍ .



كَانَ هَذَا الدُّفْتَرُ فِي حَجْمِ الدُّفْتَرِ الْأَصْلِيِّ تَمَامًا . وَقَلَبْتُ  
الصفحات بِأصابعٍ مُرتَجفةٍ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى شَهْرِ سبْتِمْبَرٍ مِنْ عَامِ  
١٨٠٣ . وَكُنْتُ أَحَاوِلُ إِخْفَاءَ مَشَاعِرِي ، وَلَكِنْ لَمْ يَطُلْ هَذَا  
كَثِيرًا ؛ إِذْ سَرَعَانَ مَا وَجَدْتُ الصَّفْحَةَ الْمُنْشُودَةَ . نَعَمْ ، وَجَدْتُ  
الزِّيَاجَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي رَأَيْتُهَا مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنْ مَاذَا كَانَ فِي نِهَائِهِ  
الصَّفْحَةِ ؟ لَا شَيْءَ ! لَا شَيْءَ الْبَتَّةَ ! لَا إِشَارَةَ وَاحِدَةٍ إِلَى زَوَاجٍ سِير  
فِيلِكس غلايد !

وَوَثَبَ قَلْبِي مِنْ مَكَانِهِ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَنْفَجِرُ . لَمْ يَكُنْ زَوَاجُ  
أَبِيهِ مُسَجَّلًا . لَا شَيْءَ سِوَى ذَلِكَ الْحِزْرِ الضَّيِّقِ ؛ أَيِّ نَفْسِ الْمِسَاحَةِ  
الْمَوْجُودَةِ فِي الدُّفْتَرِ الْأَصْلِيِّ ، وَلَكِنَّهَا خَالِيَةٌ تَمَامًا .

وَأَدْرَكْتُ الْحَقِيقَةَ . لَقَدْ كَانَ أَيْضًا خَالِيًا فِي الدُّفْتَرِ الْأَصْلِيِّ  
حَتَّى جَاءَ سِير بِيرْسِفَالٍ إِلَى أَوْلَدٍ وَلَمْنَهَامِ سَنَةِ ١٨٢٧ وَكَتَبَ  
الكَلِمَاتِ بِنَفْسِهِ فِي سِجْلِ الزَّوْاجِ . إِذَا لَمْ يَكُنْ أَبَوَاهُ قَدْ تَزَوَّجَا  
إِطْلَاقًا !

وَحَارَتْ قُوَايَ ، وَكِدْتُ أَقْعُ عَلَى الْأَرْضِ . مَا كَانَ هَذَا لِيَخْطُرَ  
بِيَالِي قَطُّ . لَمْ يَكُنْ لِسِير بِيرْسِفَالٍ أَيُّ حَقٍّ فِي بِلَاكُووتر بَارَك . لَمْ  
يَكُنْ بَارُونًا . إِذَا لَيْسَ مِنَ الْمُسْتَعْرَبِ أَنْ يَقْلُقَ مِثْلُ ذَلِكَ الْمَخْلُوقِ  
التَّعْسِ ؟ وَمَنْ يَسْتَعْرَبُ لِأَنَّهُ احْتَجَزَ أَنْ كَانِيرِيك فِي مُسْتَشْفَى

الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ مَا دَامَ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ لَقَدْ ارْتَكَبَ  
جَرِيمَةً شَنْعَاءَ . كَانَ هَذَا هُوَ السَّرُّ . وَكَانَ مِلْكِي ! كَلِمَةٌ مِنِّي  
وَيُطْرَدُ مِنْ كُلِّ الْمُجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ مَعْمُورًا ، مُفْلِسًا ، مَبْنُودًا .  
كَانَتْ حَيَاةُ الرَّجُلِ كُلُّهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيَّ ، وَكَانَ يَعْرِفُ ذَلِكَ حِينَئِذٍ  
مِثْلَمَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ . كُنْتُ فِي خَطَرٍ دَاهِمٍ ، وَكَانَ مِنْ وَاجِبِي أَلَّا  
أَنْسَى أَنَّ لِي صَدِيقَتَيْنِ فِي حَاجَةٍ إِلَيَّ .

وَقَرَّرْتُ أَنْ أَعُودَ وَأَنْسَخَ بَيَانَاتِ السِّجْلِ الْأَصْلِيِّ خَشْيَةً أَنْ تَنَالَهُ يَدُ  
الْإِتْلَافِ . لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ ، حِينَئِذٍ ، أَنَّ أَيَّ نُسْخَةٍ أُنْقَلُهَا كَانَتْ  
عَدِيمَةً الْفَائِدَةِ ، وَأَنَّهُ مِنَ اللَّازِمِ أَنْ يَقُومَ مُحَامٍ بِذَلِكَ وَأَنْ يُوقَّعَ  
عَلَيْهَا . أَكْرَرُ ، لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ ذَلِكَ حِينَئِذٍ ، فَانْطَلَقْتُ فِي الْحَالِ ،  
لِلْعُودَةِ كَيْ أَنْقَذَ مَا نَوَيْتُ قَبْلَ أَنْ أُنَامَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ .

كَانَ الظَّلَامُ يُرْخِي سُدُولَهُ . وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَدْ يَتَعَقَّبُونِي ثَانِيَةً ،  
وَيُهَاجِمُونِي فِي الطَّرِيقِ ، لِذَا فَقَدْ تَوَقَّفْتُ لِشِرَاءِ عَصَا ثَقِيلَةٍ غَلِظَةٍ ،  
ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِسُرْعَةٍ وَسَطَ الطَّرِيقِ .

وَأَخَذَ الْمَطَرُ يَتَسَاقَطُ حَتَّى اسْتَحَالَ عَلَيَّ ، فِي بَادِي الْأَمْرِ ، أَنَّهُ  
أَرَى إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَتَعَقَّبُنِي أَوْ لَا . وَلَكِنْ عِنْدَمَا كُنْتُ عَلَى بُعْدِ  
كِيلُومِترَيْنِ مِنْ مَقْصِدِي ، فُوجِئْتُ بِثَلَاثَةِ رِجَالٍ يَقْفِزُونَ إِلَى الطَّرِيقِ  
مِنْ سِيَاجٍ مِنْ أَشْجَارٍ ، وَيُهَاجِمُونِي . ضَرَبَنِي أَوَّلُهُمْ بِعَصَاهُ ، وَلَكِنْ



لِحُسْنِ حَظِّي ، وَقَعَتِ الضَّرْبَةُ بِخَفَّةٍ عَلَى كَتِفِي ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ  
أُرُدَّهَا بِشِدَّةٍ عَلَى رَأْسِهِ ، وَتَرَنَحَ الرَّجُلُ وَارْتَدَّ بِظَهْرِهِ عَلَى رَفِيقِهِ وَهُمَا  
يَنْدَفِعَانِ نَحْوِي ، فَكَانَ أَنْ كَسَبْتُ بِضَعِ ثَوَانٍ . وَجَرَيْتُ فِي وَسْطِ  
الطَّرِيقِ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ مُمَكِّنَةٍ ، تُسَاعِدُنِي خِبْرَاتِي الْأَخِيرَةُ فِي أَمْرِيكَ  
الْوَسْطَى .

وَتَبِعَنِي الرَّجُلَانِ اللَّذَانِ لَمْ يَلْحَقْ بِهِمَا أَدَى . كَانَا عَدَاءَيْنِ  
مَاهِرَيْنِ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ ، فِي الْبِدَايَةِ أَنْ أَتَفَوَّقَ عَلَيْهِمَا . وَكَانَ مِنَ  
الْخَطَرِ أَنْ أَجْرِي فِي الظَّلَامِ ، وَلَكِنْ لِحُسْنِ الْحَظِّ ، لَمْ أَتَعَثَّرْ أَوْ أَقْعُ .  
وَبَعْدَ مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ ، وَصَلْنَا إِلَى جُزْءٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الطَّرِيقِ ، وَبَدَأْتُ  
أَبْتَعِدُ عَنْهُمَا ، وَخَفَتَ وَقَعُ أَقْدَامِهِمَا خَلْفِي . وَمَا إِنْ سَبَقْتُهُمْ بِقَدَرٍ  
كَافٍ حَتَّى تَرَكْتُ الطَّرِيقَ وَانْعَطَفْتُ أَجْرِي عَبْرَ الْحُقُولِ . وَلَمْ  
أُحْدِثْ صَوْتًا عَلَى الْعُشْبِ النَّاعِمِ . وَسِرَرْتُ لِسَمَاعِي وَقَعُ أَقْدَامِهِمَا  
يُوَاصِلُ الرُّكُضَ فِي الطَّرِيقِ أَمَامَ الْمَكَانِ الَّذِي تَرَكْتُهُ . وَهَكَذَا  
كُتِبَتْ لِي النِّجَاةُ .

اتَّجَهْتُ لَاهِثًا نَحْوَ أَوْلَدِ وَلِنَغْهَامٍ ، وَ وَجَدْتُ كُوخَ كَاتِبِ  
السَّجَلَاتِ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ كَانَ قَدْ تَغَيَّرَ عَلَى نَحْوِ غَرِيبٍ مُنْذُ أَنْ  
رَأَيْتُهُ آخِرَ مَرَّةٍ . وَقَابَلْتُهُ فِي الْخَارِجِ وَهُوَ يُمْسِكُ شَمْعَةً .

سَأَلَنِي فِي قَلْبٍ : « أَيْنَ الْمَفَاتِيحُ ؟ أَمْ أَخَذْتَهَا ؟ »





« آيَةُ مَفَاتِيحٍ ؟ لَقَدْ أَتَيْتُ لِتَوَيِّ مِنْ نُولِزْبِرِي . »

« مَفَاتِيحُ حُجْرَةِ السَّجَلَاتِ . لَقَدْ ضَاعَتْ . تُرَى مَنْ أَخَذَهَا ؟ »

لَا بُدَّ أَنْ أَحَدَهُمْ قَدْ ذَهَبَ إِلَى حُجْرَةِ السَّجَلَاتِ ! وَتَكْهَنْتُ مَنْ  
يَكُونُ ، وَهَرَعْتُ صَوْبَ حُجْرَةِ السَّجَلَاتِ . وَقَبْلَ أَنْ أُخْطُو عَشْرَ  
خُطَوَاتٍ ، جَاءَ إِلَيَّ رَجُلٌ فِي الظَّلَامِ وَقَالَ : « سِير بِيرْسِيْقَال ؟ »

قُلْتُ : « أَنْتَ مُخْطِئٌ . أَنَا لَسْتُ سِير بِيرْسِيْقَال . »

« مَعْدِرَةٌ ، حَسِبْتُ أَنَّكَ سَيِّدِي . »

« لَعَلَّكَ تَوَقَّعْتَ أَنْ تُقَابِلَ سَيِّدَكَ هُنَا ؟ »

قَالَ : « لَقَدْ طُلِبَ مِنِّي أَنْ أُنْتَظِرَ هُنَا . » ثُمَّ مَضَى .

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَحِقَ بِي كَاتِبُ السَّجَلَاتِ ، فَأَسْرَعْنَا الْخُطَى  
فِي طَرِيقِنَا ، وَإِذْ بِنَا تُقَابِلُ غُلَامًا يَبْدُو عَلَيْهِ الْإِنْفِعَالُ ، وَقَالَ لَنَا إِنَّهُ  
كَانَ ثَمَّةَ شَخْصٍ يُشْعَلُ أَعْوَادُ ثِقَابٍ دَاخِلَ حُجْرَةِ السَّجَلَاتِ .  
وَارْتَجَفَ الْكَاتِبُ وَاسْتَنَدَ إِلَيَّ بِشِدَّةٍ .

قُلْتُ : « هَيَّا ، هَيَّا . لَمْ يَفْتَ الْأَوَانُ بَعْدُ . سَنَمْسِكُ بِهِ . »

وَبَيْنَمَا كُنَّا نُسْرِعُ تَبَدُّتْ لَنَا حُجْرَةُ السَّجَلَاتِ بِكَامِلِهَا ، وَرَأَيْنَا  
نَافِذَةَ السَّقْفِ مُضَاءً بُوْهَجٍ شَدِيدٍ مِنَ الدَّاخِلِ ، كَأَنَّا تَتَوَهَّجُ تَحْتَ

سَمَاءٍ مُظْلِمَةٍ . وَأَسْرَعْتُ إِلَى الْبَابِ ، وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ شَمَمْتُ رَائِحَةَ  
عَرِيَّةٍ ، وَسَمِعْتُ ضَوْضَاءَ شَدِيدَةٍ آتِيَةٍ مِنَ الدَّاخِلِ ، وَرَأَيْتُ الضَّوْءَ  
يَزْدَادُ تَوَهُّجًا ، ثُمَّ تَصَدَّعَ الزُّجَاجُ فِي نَافِذَةِ السَّقْفِ . وَوَضَعْتُ  
يَدِي عَلَى الْبَابِ ، كَانَ مُلْتَهَبًا ؛ لَقَدْ شَبَّ حَرِيقٌ فِي حُجْرَةِ  
السَّجَلَاتِ .

وَقَبْلَ أَنْ أَهْمُ بِالتَّحَرُّكِ سَمِعْتُ الْمِفْتَاحَ يَدُورُ بِعُنْفٍ فِي الْقُفْلِ ،  
وَصَوْتُ رَجُلٍ خَلْفَ الْبَابِ يَصِيحُ ، فِي جُنُونٍ ، طَالِبًا النَّجْدَةَ ، وَخَرَّ  
الْخَادِمُ الَّذِي لَا بُدَّ أَنَّهُ قَدْ تَبِعَنِي عَلَى رُكْبَتَيْهِ صَائِحًا : « أَوَاهُ ، يَا  
سَيِّدِي ، إِنَّهُ سِير بِيرْسِيْقَال ! سِير بِيرْسِيْقَال ! »

وَبَيْنَمَا كَانَ يَصِيحُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ النَّائِحَةِ ، كَانَتْ هُنَاكَ مُحَاوَلَةً  
أَخِيرَةً وَعَقِيمَةً لِإِدَارَةِ الْمِفْتَاحِ فِي الْقُفْلِ .

صِيحَتْ بِالرَّجُلِ الَّذِي يَسْتَعِيْثُ : « حَاوِلْ مَعَ الْبَابِ الْآخِرِ ! هَذَا  
الْقُفْلُ تَالِفٌ . لَنْ يَنْفَتَحَ الْبَابُ أَبَدًا ! »

وَبَعْدَ الْمُحَاوَلَةِ الْأَخِيرَةِ لِإِدَارَةِ الْمِفْتَاحِ ، تَوَقَّفَ الصِّيَاحُ ، لَا صَوْتَ  
سِوَى فَحِيحِ النَّارِ . وَالتَفْتُ إِلَى بَعْضِ الرِّجَالِ فِي الْحَشْدِ وَطَلَبْتُ  
مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعُونِي إِلَى أَحَدِ الْمَنَازِلِ الْخَرِبَةِ ، وَأَنْ يُحْضِرُوا كُتْلَةً ثَقِيلَةً  
مِنَ الْخَشَبِ .



صَحَّتْ : « هَيَّا نَحْطِمِ الْبَابَ ! »

وَحَمَلْنَا تِلْكَ الْكُتْلَةَ الثَّقِيلَةَ إِلَى الْبَابِ وَسَطَ الْحَشْدِ وَالضَّجِيجِ .  
وَكَانَتْ النَّيْرَانُ تَزْدَادُ تَوَهُّجًا . وَهَجَمْنَا عَلَى الْبَابِ نَدْفُهُ ؛ هَا قَدْ صَارَ  
مُقْلَقًا . دَوْرَةٌ أُخْرَى مَعَ كُتْلَةِ الْخَشَبِ . لَقَدْ زَحَزَحْنَاهُ ! وَبَدَأَتْ  
النَّيْرَانُ تَزْحَفُ خَارِجَةً مِنَ الْفَجَوَاتِ . هَجَمَةٌ أُخْرَى أُخِيرَةٌ وَهَوَى  
الْبَابُ مُرْتَظِمًا بِالْأَرْضِ . وَسَادَ الْحَشْدُ صَمْتٌ مُطْبِقٌ ، وَتَقَدَّمْنَا  
لِلْبَحْثِ عَنِ الْجُثَّةِ ، وَلَكِنَّ النَّارَ أَجْبَرَتْنَا عَلَى التَّرَاجُعِ إِلَى الْخَلْفِ .  
وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَرَى شَيْئًا فِي الْحُجْرَةِ سِوَى أَلْسِنَةِ اللَّهَبِ فِي أَعْلَى  
الْحُجْرَةِ وَفِي أَسْفَلِهَا وَفِي كُلِّ أَرْجَائِهَا .

هَمَسَ الْخَادِمُ : « أَتَيْنَ هُوَ ؟ »

قَالَ كَاتِبُ السَّجَلَاتِ : « إِنَّهُ تُرَابٌ وَرَمَادٌ . وَالسَّجِلُ تُرَابٌ وَرَمَادٌ .  
وَأَسْفَاهُ ، يَا سَادَةَ ! »

وَاسْتَدْعَيْنَا عَرَبَةَ الْمُطَافِي ، وَوَصَلَتْ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لَتَمْنَعَ  
امْتِدَادَ الْحَرِيقِ . وَوَجَدْنَا الْجُثَّةَ بِالقُرْبِ مِنَ الْبَابِ . كَانَ سِيرُ  
بِيرْسِيْفَالِ قَدْ حَاوَلَ الْهَرَبَ ، وَلَكِنَّهُ كَفَّ عَنْ مُحَاوَلَتِهِ بَعْدَ أَنْ فَاتَ  
الْأَوَانَ . كَانَ مُسْتَلْقِيًا عَلَى وَجْهِهِ وَقَدْ فَارَقَ الْحَيَاةَ .

وَسُئِلَ الْخَادِمُ إِنْ كَانَ يُمَكِّنُهُ التَّعَرُّفُ عَلَى الْجُثَّةِ ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّهُ

كَانَ فِي شِبْهِ إِعْمَاءَةٍ أُعْجَزَتْهُ عَنِ الْكَلَامِ ؛ لِذَا فَقَدْ جَاءُوا إِلَيَّ  
يَسْأَلُونَنِي ، وَهَكَذَا رَأَيْتُهُ لِأَوَّلِ وَآخِرِ مَرَّةٍ .

فِي اعْتِقَادِي أَنَّ الْحَرِيقَ كَانَ مُجَرَّدَ حَادِثَةٍ ، وَكُنْتُ وَاثِقًا أَنَّ سِيرُ  
بِيرْسِيْفَالِ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِحْرَاقَ السَّجَلِ ، بَلْ تَعَمَّدَ أَنْ يُمَزَّقَ الصَّفْحَةَ  
الَّتِي سَبَقَ أَنْ دَوَّنَ الْكَلِمَاتِ فِي نِهَائِهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ كَفِيلًا بِأَنْ  
يُرِيلَ كُلَّ الْأَدِلَّةِ عَلَى جَرِيْمَتِهِ ، وَيَقِي بِغَرَضِهِ . وَلَكِنْ كَانَ لَا بُدَّ  
لَهُ مِنْ ضَوْءٍ لِرُؤْيَا مَا كَانَ يَفْعَلُهُ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْوَرَقَةَ وَالصَّنَادِيقَ  
الْمُعْبَاةَ بِمُحْتَوِيَاتِهَا قَدْ اشْتَعَلَتْ ، وَانْتَشَرَتِ النَّارُ بِسُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ حَتَّى  
لَمْ يَعدْ مِنَ الْمُمْكِنِ السَّيْطَرَةُ عَلَيْهَا ، مِمَّا أَدَّى إِلَى مِيتَتِهِ الْبَشَعَةِ .

وَعَدْتُ إِلَى الْفُنْدُقِ بَعْدَ الْحَرِيقِ مُنْهَكًا مَكْدُودًا ، وَأَوَيْتُ إِلَى  
فِرَاشِي . وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي حَمَدْتُ اللَّهَ إِذْ تَلَقَّيْتُ ، كَمَا أَلَفْتُ ،  
خِطَابًا مِنْ مَارِيَانَ يُبَلِّغُنِي فِيهِ أَنَّ كُلَّ الْأُمُورِ كَانَتْ تَسِيرُ سَيْرًا مُرْضِيًا .  
كَمَا تَلَقَّيْتُ خِطَابًا آخَرَ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ اسْمُ صَاحِبِهِ ، وَلَكِنِّي أَدْرَكْتُ  
أَنَّهُ كَانَ مُرْسَلًا مِنَ السَّيِّدَةِ كَاثِيرِيك . وَهِيَ أَتَدَا أَقْرُوهُ كَمَا جَاءَ :

« سَيِّدِي :

« لَقَدْ عَرَفْتُ الْخَبَرَ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَسَبَّيْتَ فِي مَوْتِهِ . لَقَدْ كُنْتُ  
عَلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ السَّدَاجَةِ عِنْدَمَا حَاوَلْتُ ، كَمَا سَمِعْتُ ،



مُسَاعِدَتَهُ . وَلَوْ أَنَّكَ أَنْقَذْتَهُ ، لَاعْتَبَرْتُكَ عَدُوِّي ، وَلَكِنْ مَا دُمْتُ لَمْ  
لَمْ تَفْلَحْ فِي إِنْقَاذِهِ ، فَأَنْتَ صَدِيقِي ، وَسَاجَازِيكَ بِمُحَاوَلَةِ إِشْبَاعِ  
قُضُولِكَ .

« كُنْتُ مُتَزَوِّجَةً بِرَجُلٍ أَبْلَهَ ، وَتَعَرَّفْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى رَجُلٍ آخَرَ  
لَنْ أَدْعُوهُ بِاسْمِهِ . أَنْتَ تَعْرِفُ اسْمَهُ جَيِّدًا ، مِثْلَمَا أَعْرِفُهُ ، قَدِّمْ لِي  
الكَثِيرَ مِنَ الْهَدَايَا - هَدَايَا كُنْتُ أَحِبُّهَا ، وَبِالطَّبْعِ فَقَدْ أَرَادَ شَيْئًا فِي  
مُقَابِلَتِهَا . مَاذَا تَظُنُّ أَنَّهُ أَرَادَ مِنِّي ؟ لَا شَيْءَ سِوَى مِفْتَاحِ حَجَرَةِ  
السَّجَلَاتِ دُونَ عِلْمِ زَوْجِي ، وَحَصَلْتُ عَلَيْهِ وَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهُ .

« بِالطَّبْعِ ، كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ هَذَا خَطَأً ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يُضِيرَنِي ،  
فَأَهْدَانِي سَاعَةً ذَهَبِيَّةً . أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ سَبَبَ حَاجَتِهِ إِلَى الْمِفْتَاحِ  
فَأَخْبَرَنِي . لَقَدْ أَرْغَمْتُهُ عَلَى أَنْ يُخْبِرَنِي ، وَهَذِهِ هِيَ كُلُّ الْحِكَايَةِ .

« أَخْبَرَهُ أَبُوهُ أَنَّهُ هُوَ وَأُمُّهُ لَمْ يَكُونَا مُتَزَوِّجَيْنِ . وَلَمْ يَتْرِكِ الْأَبُ  
وَصِيَّةً عِنْدَ وَفَاتِهِ ، فَجَاءَ الْإِبْنُ إِلَى إِنْجِلْتِرَا عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ لِيَتِمَلَكَ  
الْبَيْتَ وَالْأَرْضَ قَبْلَ أَنْ تَنُورَ آيَةُ مُشْكِلَةٍ ، وَلَكِنَّهُ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ  
مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ عَلَى أَمْلَاكِهِ ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ شَهَادَةَ زَوْاجِ أَبِيهِ ،  
وَهَذَا مَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَهُ .

« وَجَاءَ إِلَى أَوْلَادِهِ وَلَمِنْغهام ، وَكَانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً مُتَزَوِّجَةً قَبْلَ أَنْ  
تُقَابِلَ أَبَاهُ ، وَلَكِنَّهَا هَجَرَتْ زَوْجَهَا وَجَاءَتْ إِلَى أَوْلَادِهِ وَلَمِنْغهام .

وَكَانَ الْأَبُ يَعْيشُ مُتَكَتِّمًا خُصُوصِيَّاتِهِ ، وَمِنْ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ  
قَدْ ظَنُّوا أَنَّ زَوَاجَهُ قَدْ تَمَّ أَيْضًا عَلَى نَهْجِ حَيَاتِهِ ، إِذَا مَا كَانَ هُنَاكَ مَا  
يَدْعُوهُمْ إِلَى الْعَجَبِ .

« كَانَتْ فِكْرَةُ بِيرْسِفَالِ الْأُولَى أَنْ يُمَزَّقَ صَفْحَةُ السَّجَلِ الَّتِي  
تَحْمِلُ التَّارِيخَ الْمَقْصُودَ ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا رَأَى الْفِرَاعَ الْخَالِيَّ مِنَ  
الْكِتَابَةِ وَالْمُتْرُوكِ فِي نِهَآيَةِ الصَّفْحَةِ ، انْتَهَزَ الْفُرْصَةَ وَمَلَأَهَا بِبَيِّنَاتِ  
زَوَاجِ أَبِيهِ . وَكَانَ قَدْ دَابَّ مِنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ ، عَلَى صَنْعِ حَبْرٍ مِنْ لَوْنٍ  
مُطَابِقٍ ، وَتَمَرَّنَ عَلَى الْخَطِّ الْمَوْجُودِ فِي السَّجَلِ ، وَنَجَحَ فِي ذَلِكَ  
نَجَاحًا كَبِيرًا . كَانَ طَيِّبَ الشُّعُورِ نَحْوِي . أَعْطَانِي سَاعَةً ذَهَبِيَّةً  
أُخْرَى ، ثُمَّ رَاحَ ، بَعْدَ ذَلِكَ ، يَدْفَعُ لِي مَبَالِغَ مِنَ الْمَالِ عَلَى شَرِيطَةٍ  
أَنْ أَقِيمَ هُنَا . كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ جِيرَانِي لَنْ يُرْحَبُوا بِالْحَدِيثِ إِلَيَّ هُنَا ؛  
لِذَا لَنْ يَكُونَ لَدَيَّ فُرْصَةٌ كَبِيرَةٌ لِلْحَدِيثِ عَنْ سِرِّهِ . وَقَدْ رَفَضَ أَنْ  
يُصَارِحَ أَحَدًا بِأَنَّ الشُّكُوكَ الْقَدِيمَةَ عَنْ سُلُوكِي لَمْ تَكُنْ صَادِقَةً ؛  
لَأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ يَسْأَلُ النَّاسُ عَمَّا كُنَّا نَتَهَامَسُ بِهِ . أَ تَفْهَمُ  
الآنَ كَمْ كُنْتُ أَكْرَهُهُ ؟ أَ تَفْهَمُ الْآنَ لِمَ أَنَا مُسْرُورَةٌ مِنْكَ ؟

« وَكَانَ مَوْلَايَ وَسَيِّدِي يَأْذَنُ لِي بِالسَّفَرِ بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ ، بِقَصْدِ  
تَغْيِيرِ الْمَكَانِ . وَذَهَبْتُ مَرَّةً إِلَى لِيْمِيرِيدْجَ لِتَمْرِضَ أُخْتِي لِي غَيْرِ  
شَقِيقَةٍ . كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهَا مَيَّسُورَةُ الْحَالِ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَحْصِلْ عَلَى



شَيْءٍ لَّأَنَّهُا كَانَتْ مُعْدِمَةً . ثُمَّ اصْطَحَبَتْ أَن مَعِيَ إِلَى الشَّمَالِ ،  
وَالْحَقَّتْهَا بِالمَدْرَسَةِ هُنَاكَ . وَتَعَلَّقَتِ السَّيِّدَةُ فِيرْلِي بِابْنَتِي تَعَلُّقًا أَبْلَهَ  
وَهَكَذَا بَدَلًا مِنْ أَنْ تَتَعَلَّمَ الكَثِيرَ فِي المَدْرَسَةِ ، أَخَذَتْهَا إِلَى لِيْمِيرِيْدَج  
هَآوَسَ وَدَلَّلَتْهَا ، وَهُنَاكَ تَعَلَّقَتْ بِأَشْيَاءَ لَا مَعْنَى لَهَا ، فَكَانَتْ تَلْبَسُ  
مَلَائِسَ بَيَاضَ دَائِمًا . وَعِنْدَمَا عُدْنَا إِلَى بَيْتِنَا اسْتَمَرَّتْ عَلَى هَذَا  
الْمَنَوَالِ . طَبْعًا كُنَّا نَتَشَاجَرُ دَائِمًا . وَذَاتَ يَوْمٍ تَسَلَّمْتُ خِطَابًا غَاضِبًا  
مِنَ الرَّجُلِ الخَبِيثِ - المَتَوَفَّى الْآنَ - أَغَاطَنِي . وَكُنْتُ قَدْ صَرَخْتُ  
أُمَامَ ابْنَتِي بِأَنَّنِي اسْتَطِيعُ أَنْ أَدْمُرَ حَيَاتَهُ إِنْ فَتَحْتُ قَمِي وَأَبَحْتُ  
بِسِرِّهِ . لَمْ أَقُلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ تَغْيِيرَاتِ وَجْهِ ابْنَتِي كَانَ  
كَافِيًا لِأَنْ أَطْرَدَهَا مِنَ العُرْفَةِ فِي التَّوَّ واللَّحْظَةِ .

« يُمْكِنُكَ أَنْ تُخَمِّنَ البَاقِي . وَفِي أَثْنَاءِ إِحْدَى زِيَارَتِهِ قَالَتْ الفَتَاةُ  
شَيْئًا عَنْ سِرِّهِ - وَلَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ مَا هُوَ - جَنُّ جَنُونُهُ ، وَبَعَثَتْ  
بِهَا إِلَى مُسْتَشْفَى الأَمْرَاضِ العَقْلِيَّةِ حَيْثُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَضُرَّهُ -  
وَكَانَ مُسْتَشْفَى خَاصًّا حَسَبَ طَلْبِي . وَلِسَوْءِ الحِظِّ رَسَخَتْ فِكْرَةٌ  
مَعْرِفَتِهَا لِسِرِّ فِي ذَهْنِهَا . وَسَرَّعَانَ مَا أَذْرَكَتُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَهَا  
مُسْتَشْفَى الأَمْرَاضِ العَقْلِيَّةِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَا قُلْتَهُ لِلْمُمْرِضَاتِ هُنَاكَ  
إِنَّهَا احْتَجَزَتْ لِمَعْرِفَتِهَا سِرِّهِ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ تَتَوَيَّ أَنْ تَبُوحَ بِهِ ،  
وَتَدْمُرَهُ عِنْدَمَا يَحِينُ الوَقْتُ المُنَاسِبُ . مِنَ الجَائِزِ أَنَّهَا قَالَتْ لَكَ نَفْسَ

الشَّيْءِ ، وَلَكِنْ مَهْمَا قَالَتْ ، فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُدْرِكُ مَا هُوَ .  
« هَلْ أَشْبَعْتُ فُضُولَكَ ؟ أَمَلُ ذَلِكَ . أَرْجُو أَنْ تَتَذَكَّرَ أَنَّكَ إِنْ  
ذَكَرْتَ هَذَا الخِطَابَ فِي أَيِّ وَقْتٍ لَاحِقٍ ، فَإِنِّي سَأَنْكِرُ مَعْرِفَتِي بِهِ .  
لَنْ أَعْتَرِفَ إِطْلَاقًا بِأَنَّنِي قَدْ كَتَبْتُ إِلَيْكَ . »

وَلَا حِظُّتُ أَنَّ الخِطَابَ لَمْ يَذْكُرْ نُسْخَةَ السَّجَلِ بِنُولزِيرِي ،  
فَاسْتَنْتَجَتْ أَنَّ السَّيِّدَةَ كَاثِيرِيكَ وَسِيرَ بِيرْسِيْفَالِ لَمْ يَكُونَا يَعْرِفَانِ  
بِوُجُودِهَا . وَلَكِنْ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ ، لَمْ أَجِدْ شَيْئًا جَدِيدًا بِالخِطَابِ .

وَفِي اليَوْمِ التَّالِي شَعَرْتُ بِالاضْطِرَابِ وَأَنَا أَتَلَقَّى المَذْكُورَةَ التَّالِيَةَ  
مِنْ مَارِيَانِ بَدَلًا مِنْ خِطَابِهَا المَعْتَادِ : عُدْ بِأَسْرَعٍ مَا يُمْكِنُكَ .  
اضْطَرَّرْتُ إِلَى تَغْيِيرِ مَسْكِنِنَا . تَعَالِ إِلَى جَوْرَ وَوَكْ ، فَوَلِهَامِ ( رَقْم  
٥ ) . سَأَكُونُ بِإِنْتِظَارِكَ . كِلَانَا فِي أَمَانٍ وَبِخَيْرٍ ، وَلَكِنْ عُدْ .

مَارِيَانِ

مَاذَا حَدَثَ ؟ لَا بُدَّ أَنَّهُ الكَوْنَتُ هَذِهِ المَرَّةَ . كُنْتُ قَلِقًا ، وَلَكِنِّي  
كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّنِي اسْتَطِيعُ الِاعْتِمَادَ عَلَى مَارِيَانِ . وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ  
أَحْضُرَ التَّحْقِيقَ فِي حَادِثِ وَفَاةِ سِيرَ بِيرْسِيْفَالِ فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ ،  
وَلَكِنَّهُ لِحَسَنِ الحِظِّ ، لَمْ يَسْتَغْرِقْ وَقْتًُا طَوِيلًا . وَانْتَهَى بِقَرَارِ مَوْتِهِ  
قَضَاءً وَقَدَرًا ، فَرحَلْتُ لِتَوَيَّ بِالقِطَارِ السَّرِيعِ .



« نَعَمْ . رَأَيْتَهُ أَمْسَ . جَاءَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَصْعَدْ إِلَيْنَا . رَأَيْتَهُ مِنْ خِلَالِ النَّافِذَةِ يَتَحَدَّثُ إِلَى رَجُلٍ فِي الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ مِنَ الطَّرِيقِ . كَانَ الرَّجُلُ هُوَ صَاحِبَ مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ ، يَا وَلْتَر ! »  
« هَلْ أَرَاهُ الْكَوْنَتِ الْبَيْتِ ؟ »

« لَا . كَانَا يَتَحَدَّثَانِ وَكَانَهُمَا تَقَابِلًا صُدْفَةً . وَعِنْدَمَا انْصَرَفَ الرَّجُلُ الْآخَرُ ، بَعَثَ الْكَوْنَتِ لَنَا بِبِطَاقَتِهِ . وَخَرَجْتُ إِلَى الشَّارِعِ كَيْ أَقَابِلَهُ . كُنْتُ مُصَمِّمَةً عَلَى أَلَّا يَدْخُلَ الْبَيْتَ . وَتَقَدَّمَ بِإِنْجِنَاءَتِهِ وَابْتِسَامَتِهِ الْمُقَيَّةِ . لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْبِئَكَ بِمَا قَالَهُ عَنِّي ، وَلَكِنِّي سَأُخْبِرُكَ بِمَا قَالَهُ عَنكَ . قَالَ إِنَّهُ كَانَ قَدْ تَرَكَ سِيرَ بِيرْسِيْشَالِ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ هُوَ ، وَلَكِنْ مَا دَامَ الرَّجُلُ قَدْ مَاتَ ، فَإِنَّهُ سَيَتَصَرَّفُ بِنَفْسِهِ إِنْ اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ ، وَإِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيَّكَ ، الْآنَ ، أَنْ تُحَوِّلَ انْتِبَاهَكَ نَحْوَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ قَابَلَ صَاحِبَ مُسْتَشْفَى الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ بِنَاءً عَلَى تَرْتِيبِ سَابِقٍ ، وَلَكِنَّهُ تَرَدَّدَ فِي أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى الْبَيْتِ لِسَبَبٍ وَاحِدٍ لَا غَيْرَ : مِنْ أَجْلِي أَنَا ، يَا وَلْتَر ، فَصَرَفَ الرَّجُلُ حِينَ تَذَكَّرَ أَنَّي سَاقِعٌ فِي مَتَاعِبَ كَثِيرَةٍ بِسَبَبِ تَدْبِيرِ هَرَبِ لُورَا مِنَ الْمُسْتَشْفَى ، وَأَنِّي سَاحِزَنُ إِنْ هِيَ فَارَقَتْنِي . وَطَلَبَ مِنِّي شَيْئًا وَاحِدًا فَقَطْ - أَنْ أُمْنَعَكَ مِنَ الْعَمَلِ ضِدَّهُ . وَلَكِنِّي لَمْ أُعِدَّهُ . قَالَ : « حَذَّرِي السَّيِّدَ هَارْتِرَايتَ بِأَنِّي رَجُلٌ ذَكِيٌّ وَلَا أَكْثَرُ بِالْقَانُونِ . دَعِيهِ يَقْنَعُ

## الفصل الحادي والعشرون

كَانَتِ السَّاعَةُ تَقْتَرِبُ مِنَ الْعَاشِرَةِ قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلَى فُولْهَامَ ، وَجَاءَتْ لُورَا وَمَارِيَانُ إِلَى الْبَابِ وَرَحَبَتَا بِي ، وَكَانَمَا غَبَتْ عَنْهُمَا عِدَّةُ شُهُورٍ . وَأُظْهِرَتْ نَظَرَاتُ لُورَا الَّتِي صَارَتْ أَكْثَرَ تَأَلُّفًا أَنْ كُلَّ أَخْبَارِ مَوْتِ زَوْجِهَا كَانَتْ قَدْ حُجِبَتْ عَنْهَا . كَانَتْ سَعِيدَةً بِالْبَيْتِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَقَعُ فِي مَنْطِقَةٍ جَمِيلَةٍ بَيْنَ أَشْجَارٍ وَحُقُولٍ وَنَهَرٍ . وَدَهَشْتُ كَثِيرًا لِهَذَا التَّحَسُّنِ الْكَبِيرِ ، وَعَرَفْتُ أَنَّنِي كُنْتُ مَدِينًا بِهِ لِحُبِّ مَارِيَانِ وَرِعَايَتِهَا لَهَا .

وَعِنْدَمَا جَلَسْتُ أَنَا وَمَارِيَانُ وَحَدَّنَا حَاوَلْتُ أَنْ أَشْكُرَهَا وَلَكِنَّهَا حَوَّلَتْ نَظَرَهَا إِلَيَّ قَائِلَةً : « إِنَّكَ تَبْدُو مُتَعَبًا ، يَا وَلْتَر . أَكَانَتْ رِسَالَتِي إِلَيْكَ صَدَمَةً لَكَ ؟ »

« فِي الْبِدَايَةِ فَقَطْ . أَمَا كَانَ السَّبَبُ هُوَ فَوْسَكُو ؟ »



بِما لَدَيْهِ . وَإِنْ هاجَمَنِي ، فسيجدُ فوسكو بانتظاره . » ثُمَّ حَيَّانِي  
بِانْحِنَاءَةٍ ، وَأَنْصَرَفَ . »

وَتَوَقَّفتُ لِحَظَةٍ ثُمَّ واصلتُ حَدِيثَها : « وما إِنْ دَخَلْتُ البَيْتَ ثَانِيَةً  
حَتَّى قَرَّرتُ أَنْ أَتَصَرَّفَ . كَانَ يَعْرِفُ مَكَانَنَا ، وَكَانَ مِنَ الْخَطَرِ  
الْبَقَاءُ فِيهِ . وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ وَقْتُ لَأَكْتُبَ إِلَيْكَ سِوَى مَذْكَرَةٍ مُوجِزَةٍ .  
وَجِئْنَا إِلَى هُنَا . بِالطَّبْعِ لَمْ أَخِيرْ لُورَا عَنِ الْكُونَتِ . »

وَرَدَدْتُ عَلَيْهَا بِحَرَارَةٍ وَامْتِنَانٍ . وَسَأَلْتَنِي إِنْ كُنْتُ أَتَوِي الاستِمْرَارَ  
فِي مُوَاجَهَةِ الْكُونَتِ . وَعِنْدَمَا أَجَبْتُهَا بِأَنِّي مُصَمِّمٌ عَلَى الْمُضِيِّ فِي  
طَرِيقِي ، تَأَلَّفَتْ عَيْنَاهَا . كَانَتْ جِدًّا سَعِيدَةً .

اسْتَطَرَدْتُ قَائِلًا : « هُنَاكَ صُعُوبَاتٌ كَثِيرَةٌ أَمَامَنَا ، وَلَكِنْ  
يُمْكِنُنَا الصَّبْرُ وَالْأَنَاءَةُ . وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ ، أَرَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تُخْبِرَنِي  
لُورَا عَنْ مَوْتِ زَوْجِهَا . قَدْ تَسَمَّعْتُ عَنْهُ صِدْقَةً ، وَمِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ  
تَعْرِفَهُ مِنْكَ . »

وَوَعَدْتُ بِأَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ حِينَ تَسْنَحُ فُرْصَةً . وَعَدْنَا شَيْئًا فَشَيْئًا  
إِلَى حَيَاتِنَا الْمُعْتَادَةِ ، وَلَمْ نَعُدْ نَتَحَدَّثْ عَنْ سِيرِ بِيرسيغال .

وَاکْتَشَفْتُ أَنَّ الْكُونَتِ سَيَقِي فِي إِنْجِلْتَرَا . كَانَ مِنَ السَّهْلِ  
عَلَيَّ أَنْ أَتَوَصَّلَ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ إِذْ كُنْتُ أَعْرِفُ عُنْوَانَهُ ، فَسَأَلْتُ

سِمَسَارَ الْعَقَارَاتِ إِنْ كُنْتُ أُسْتَطِيعُ اسْتِئْجَارَ بَيْتِهِ ، فَأَخْبَرَنِي بِاسْتِحَالَةٍ  
طَلَبِي لِأَنْ مُسْتَأْجَرَهُ لَنْ يُغَادِرَهُ .

وَمَرَّتْ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ ، وَازْدَادَ تَحَسُّنُ صِحَّةِ لُورَا . بَدَأَتْ ذِكْرِيَّاتِهَا  
عَنْ لِيْمِيرِيدَجَ تَعُودُ إِلَيْهَا . لَمْ يَفْتَرِ حُبِّي لَهَا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ .  
وَبَدَأْتُ الْأَحِظُ نَفْسَ فتراتِ الصَّمْتِ ، كَمَا كَانَ يَحْدُثُ فِي  
الْمَاضِي ، عِنْدَمَا كُنَّا نَجْلِسُ فِي غُرْفَةٍ بِمُفْرَدِنَا ، وَنَفْسَ التَّرَدُّدِ فِي  
طَرِيقَتِهَا ، وَنَفْسَ اخْتِلَاجَاتِ يَدَيْهَا . وَلَمْ يَمُضْ وَقْتُ طَوِيلٌ قَبْلَ أَنْ  
أَتَحَدَّثَ إِلَى مَارِيَانِ عَنْ حُبِّي . وَكُنَّا قَدْ ذَهَبْنَا إِلَى السَّاحِلِ الْجَنُوبِيِّ  
لِقَضَاءِ عَظَلَةٍ قَصِيرَةٍ ، وَرَأَيْتُ أَنَّهَا فُرْصَةٌ طَيِّبَةٌ .

قُلْتُ : « لَقَدْ اسْتَرَشَدْتُ بِنَصِيحَتِكَ فِي الْمَاضِي ، وَالْآنَ سَأَسْتَرَشِدُ  
بِهَا مَرَّةً أُخْرَى . أَخْبِرْنِي مَاذَا أَفْعَلُ ؟ »

كُنَّا نَجْلِسُ مَعًا بِجِوَارِ النَّافِذَةِ ، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَتَحَدَّثُ وَهِيَ تُصْنَعِي  
إِلَيَّ ، كُنَّا نَتَأَمَّلُ بِهَاءِ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَهِيَ تَسْطَعُ عَلَى رَوْعَةِ الْبَحْرِ .

وَمَضَيْتُ أَقُولُ : « مَهْمَا يَحْدُثُ ، فَإِنِّي مُصَمِّمٌ عَلَى مُهَاجِمَةِ  
الْكُونَتِ . قَدْ يُهَاجِمُنِي فِي شَخْصِ لُورَا . أَنَا الْآنَ لَيْسَ لِي الْحَقُّ  
الْقَانُونِيُّ فِي التَّصَرُّفِ نِيَابَةً عَنْهَا . عَلَيَّ أَنْ أَحَارِبَ مِنْ أَجْلِ زَوْجَتِي ،  
أَتُوافِقِينَ عَلَيَّ ذَلِكَ ، يَا مَارِيَانُ ؟ »





وَوَافَقَتْهُ الْغُرْفَةَ .

وَفُتِحَ الْبَابُ وَدَخَلَتْ لُورَا وَحْدَهَا - دَخَلَتْ وَلَهْفَةً السَّعَادَةِ بَادِيَةً  
فِي خُطَوَاتِهَا .

قَالَتْ : « يَا أَعَزَّ حَبِيبٍ ، مَا أَسْعَدَنِي بِكَ ! »  
وَبَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ كُنَّا أَكْثَرَ سَعَادَةً - كُنَّا زَوْجَيْنِ .

أَجَابَتْ : « أَوَافِقُ عَلَى كُلِّ كَلِمَةٍ مِمَّا قُلْتَ . »

قُلْتُ : « عَلَيْنَا أَنْ نَكْتَشِفَ هَذَا التَّارِيخَ الْمَفْقُودَ . لُورَا لَا تَسْتَطِيعُ  
أَنْ تَتَذَكَّرَ شَيْئًا مِمَّا حَدَثَ فِي لَنْدَنَ ، وَالْقَانُونُ لَنْ يُسَعِفَنَا إِطْلَاقًا .  
يَبْدُو أَنْ لَيْسَ هُنَاكَ سِوَى فُرْصَةٍ ضَعِيفَةٍ جِدًّا فِي النَّجَاحِ ، وَلَكِنْ  
عَلَيْنَا أَنْ نَمْضِيَ قُدَمًا . مَارِيَانُ ، لَا بُدَّ لِي أَنْ أُحَارِبَ مِنْ أَجْلِ  
زَوْجَتِي . »

قَالَتْ : « وَلْتَر ؛ لَقَدْ فَرَّقَتْ بَيْنَكُمَا ذَاتَ مَرَّةٍ . انْتَظِرْ هُنَا ،  
يَا أَرْوَعَ وَيَا أَعَزَّ صَدِيقٍ ، حَتَّى تَأْتِي لُورَا وَتُخْبِرَكَ مَاذَا فَعَلْتُ الْآنَ . »



انتهى الفصل الأول ، وهنا نهض الكونت وهو يتسّم ابتسامته  
الأكابر ، وراح يتفحص المتفرجين في مختلف أرجاء المسرح .  
وانتهزت الفرصة فأشرت ليسكا نحوه وسألته عما إذا كان يعرفه .

لكنه لم يعرفه . سألته ثانية ، ودفعت به إلى موقع أعلى حتى  
يستطيع أن يراه على نحو أفضل ، ولكن دون جدوى . لم يستطع  
صديقي أن يتعرف على عدوي .

ونظر رجل نحيف خفيف الشعر كان يقف بجوارنا - رجل  
كانت به علامة على خده الأيسر - نظر باهتمام إلى يسكا وأنا  
أساعده إلى المكان الأعلى ، ثم نظر باهتمام أكبر إلى الكونت .  
وفي تلك الأثناء كان يسكا ينظر بامعان إلى وجه الكونت  
الضخم ، وفجأة التفت أعين الإيطاليين .

لم يكن يسكا يعرف الكونت ، ولكن كان من الواضح ، لأول  
وهلة ، أن الكونت يعرف يسكا ويخشاه أيضاً . أريد وجهه ،  
وانطفاً بريق عينيه ، وتلاشت ابتسامته الجدلى . وما هي إلا هنيهة  
حتى غادر المسرح في هدوء . كما لاحظت أن الرجل النحيف  
الذي كان بجوارنا قد انصرف هو الآخر ، وجذبت يسكا إلى  
الخارج أيضاً وهو دهش للغاية .

## الفصل الثاني والعشرون

لا بد أن أمر ، في عجالة ، على تلك الأيام السعيدة لأصل  
إلى الوقت الذي تعاملت فيه مع الكونت . لم أكن قد رأيت طيلة  
حياتي ، فقررت كي أبدأ عملي أن أراه . وانتظرت ذات يوم خارج  
بيته ، حتى رأيتته خارجاً منه . كان رجلاً ضخماً بديناً يناهز الستين .  
وكان شديد الاعتزاز بنفسه ، ويمشي في خيلاء . وتبعته ، وإذ به  
يتوقف أمام إعلان عن دار الأوبرا ، وبعد أن وقف أمامه هنيهة نادى  
على مركبة انطلقت به . ولم يكن ثم شك في أنه ذاهب لـ شراء  
تذكرة له ، فقررت أن أذهب إلى هناك أيضاً ، وأن أخذ معي  
صديقي العزيز يسكا ، لأرى إن كان يستطيع أن يتعرف على  
عدوي ، وقد يستطيع أن يقول لي شيئاً عنه .

كان من اليسير أن أجد الكونت حين دخولنا دار الأوبرا .  
وجلست أنا ويسكا في مقعدين إلى جوار مقعده ، وانتظرنا حتى



صاح : « ما الخبر ؟ ما الخبر بحق السماء ؟ »

كَانَ تَلْهُفُ الْكَوْنَتِ عَلَى أَنْ يُقْلِتَ مِنْ بَيْسِكَ يَعْنِي أَنَّهُ سَيَغَادِرُ  
لَنْدُنَ وَيُقْلِتُ مِنِّي . وَتَعَجَّلْتُ بَيْسِكَ فِي الْعُودَةِ إِلَى بَيْتِهِ ، وَفِي عُرْفَتِهِ  
أَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ كَمَا أَرُوبُهُ هُنَا .

قُلْتُ : « إِنَّهُ يَعْرِفُكَ . اسْتَعْرِضْ حَيَاتَكَ قَبْلَ مَجِئِكَ إِلَى إِنْجِلْتِرَا .  
إِنَّهُ يَخْشَاكَ . لِمَ ؟ »

وَأَحْدَثْتُ كَلِمَاتِي الْعَادِيَّةَ فِي ظَاهِرِهَا ، نَفْسَ الْأَثَرِ عَلَى بَيْسِكَ  
مِثْلَمَا أَحْدَثْتَهُ رُؤْيَا بَيْسِكَ عَلَى الْكَوْنَتِ ؛ أُمْتَقِعْ وَجْهَهُ ، وَارْتَعِدْ مِنْ  
قِمَّةِ الرَّأْسِ إِلَى أُخْمَصِ الْقَدَمَيْنِ ، وَهَمَسَ قَائِلًا : « أَنْتَ لَا تَعْرِفُ  
خَطُورَةَ مَا تَسْأَلُ . أَلَيْسَ ثَمَّةَ طَرِيقَ آخَرَ لَكَ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ ؟ أَلَيْسَ  
ثَمَّةَ طَرِيقَ آخَرَ ؟ »

« نَعَمْ . »

قَالَ بَعْدَ فِتْرَةٍ صَمْتُ : « لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي مَرَّةً ، لِذَا فَهِيَ مِلْكُ  
لَكَ ، وَسَأُخْبِرُكَ . وَلَكِنِّي بِذَلِكَ أَضْعُ حَيَاتِي فِي يَدَيْكَ . »

أَخْبَرَنِي أَنَّهُ عِنْدَمَا كَانَ فِي إِيطَالِيَا ، انْضَمَّ إِلَى جَمْعِيَّةٍ سِرِّيَّةٍ ،  
تُدْعَى « الْأُخُوَّة » . كَانَ هَدَفُهَا مُسَانَدَةُ حُقُوقِ الشَّعْبِ . وَكَانَ مِنْ  
مَبَادِئِهَا أَنَّهُ إِنْ كَانَتْ حَيَاةُ الْمُواطِنِ ذَاتَ نَفْعٍ ؛ فَلَهُ الْحَقُّ فِي التَّمَتُّعِ

بِهَا ، أَمَّا إِنْ كَانَتْ حَيَاتُهُ مَصْدَرُ شَرٍّ لِمُواطِنِيهِ ؛ فَالْمَوْتُ جَزَاؤُهُ .  
وَحِينَئِذٍ يَقْتُلُهُ عَضْوٌ مِنْ جَمَاعَةِ « الْأُخُوَّة » سِرًّا بِأَمْرِ مِنْ رَئِيسٍ أَوْ أَمِينٍ  
الْجَمَاعَةِ فِي حَيِّهِ . وَكَانَ بَيْسِكَ أَحَدَ أَمْنَاءِ هَذِهِ الْجَمْعِيَّةِ ، فَكَانَ  
كُلُّ عَضْوٍ يَنْضَمُّ إِلَيْهَا يُمَثِّلُ أَمَامَهُ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَمِنْ الْجَائِزِ أَنْ يَنْسَى  
بِسُهُولَةٍ وَجُوهًا كَثِيرَةً ، وَلَكِنْ أَصْحَابُهَا لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِمْ  
أَنْ يَنْسُوهُ . وَكَانَ عَلَى كُلِّ عَضْوٍ وَشَمٌ ، أَوْ سِمَةٌ تَبْقَى طَوَلَ حَيَاتِهِ .  
وَرَفَعَ ذِرَاعَهُ الْعَارِيَّةَ وَأَرَانِي عَلَامَةً مَحْفُورَةً بِالْكَيِّ فِي اللَّحْمِ فِي  
الْجُزْءِ الْأَعْلَى تَحْتَ الْإِبطِ ، وَقَالَ : « إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَخُونُ  
جَمَاعَةَ « الْأُخُوَّة » يَقْتُلُ . لَا تَسْتَطِيعُ أَيُّ قَوَانِينِ بَشَرِيَّةٍ أَنْ تَحْمِيَهُ .  
هَذَا مَا يَجِبُ أَنْ أَقُولَهُ لَكَ . إِنْ كَانَ الرَّجُلُ الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِدَارِ الْأُوبرَا  
يَعْرِفُنِي ، فَلَا بُدَّ أَنَّهُ تَغَيَّرَ كَثِيرًا حَتَّى إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ مَعْرِفَتَهُ . أَقُولُ أَنَا  
لَا أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْهُ ، وَأَنَاشِدُكَ اللَّهَ أَلَّا تَقُولَ لِي شَيْئًا عَنْهُ . لَنْ أُرِيدَ  
عَلَى هَذَا . أَتُرَكِّنِي قَلِيلًا ، يَا وَلْتَر . لَقَدْ هَزَّ مَا قُلْتَهُ أَعْصَابِي . »  
وَهَوَى فِي مَقْعَدِهِ وَهُوَ يَدْفِنُ وَجْهَهُ بَيْنَ رَاِحَتَيْهِ . وَخَرَجْتُ صَامِتًا .

لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ شَكٍّ فِي أَنَّ الْكَوْنَتِ كَانَ عَضْوًا فِي جَمْعِيَّةِ  
« الْأُخُوَّة » ، وَأَنَّهُ خَانَهَا . إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ صَحِيحًا فَلِمَ كَانَ خَائِفًا  
مِنْ بَيْسِكَ ؟ لِذَلِكَ فَإِنَّهُ رُبَّمَا يُغَادِرُ إِنْجِلْتِرَا لِتَوِّهِ ، وَيَنْبَغِي عَلَيَّ أَنْ  
أَرَاهُ فَوْرًا ، وَأَرْغِمُهُ عَلَى إِعْطَائِي الْأَدِلَّةَ الَّتِي كُنْتُ أُرِيدُهَا . وَهَذَا



سَيَكُونُ ، دُونَ شَيْءٍ ، مَصْدَرٌ خَطَرٌ كَبِيرٌ ، وَمِنْ ثَمَّ يَجِبُ أَنْ أَعْمَلَ  
أَوَّلًا عَلَى سَلَامَتِي ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ لُورَا إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِي .

وَعُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ ، وَكَتَبْتُ مَا يَلِي لِيسكا :

« الرَّجُلُ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي دَارِ الْأُورَا ، عُضْوٌ فِي جَمْعِيَّةِ  
« الْأَخَوَّةِ » ، وَقَدْ خَانَهَا . بَادِرٌ بِاسْتِخْدَامِ سُلْطَتِكَ فِي الْحَالِ ضِدَّ  
ذَلِكَ الرَّجُلِ . إِنَّهُ يَسْكُنُ فِي الْبَيْتِ رَقْمَ ٥ شَارِعِ فُورِسْت ، سَانْت  
جونز وود . لَقَدْ خَاطَرْتُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَخَسِرْتُ ، دَافِعًا حَيَاتِي ثَمَنًا  
لِفَشْلِي - وَلْتَرَاهَا تَرَايْتُ . »

وَوَضَعْتُ هَذِهِ الْأَسْطُرَ فِي ظَرْفٍ كَتَبْتُ عَلَيْهِ : « احْتَفِظْ بِهَذَا  
حَتَّى التَّاسِعَةِ مِنْ صَبَاحِ الْغَدِ . إِنْ لَمْ أَكْتُبْ إِلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ  
الْوَقْتِ ، افْتَحْهُ وَأَقْرَأْهُ . »

ثُمَّ وَضَعْتُ الظَّرْفَ فِي ظَرْفٍ ثَانٍ ، وَبَعَثْتُ بِهِ إِلَى صَدِيقِي .

وَوَصَلَ رَدُّهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَكَانَ كَالآتِي :

« تَلَقَّيْتُ خِطَابَكَ . إِنْ لَمْ أَرَكَ قَبْلَ الْوَقْتِ الْمَذْكُورِ ، فَسَافَتُحُ  
الظَّرْفَ حِينَ تَدُقُّ السَّاعَةُ التَّاسِعَةُ . »

وَعَادَرْتُ الْبَيْتَ وَذَهَبْتُ إِلَى شَارِعِ فُورِسْت ، وَصَعِدْتُ إِلَى

مَرْكَبَةٍ وَقَدْ تَمَلَّكَنِي شُعُورٌ بِالْقَلْقِ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى وُجْهَتِي ، وَعِنْدَمَا  
صَرَفْتُهَا رَأَيْتُ ثَانِيَةَ الرَّجُلِ النَّحِيفِ ذَا الْعَلَامَةِ عَلَى خَدِهِ . أَمَا كَانَ  
وُجُودُهُ فِي هَذَا الشَّارِعِ مَجْرَدَ صُدْفَةٍ ، أَمْ أَنَّهُ تَتَّبَعَ الْكَوْنَتَ مِنْ دَارِ  
الْأُورَا إِلَى بَيْتِهِ ؟ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ وَقْتُ أَفْكَرُ فِيهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ ،  
وَلَكِنِّي بَعَثْتُ بِاسْمِي إِلَى الْكَوْنَتِ . وَبَعْدَ تَلَكُّوْهُ أَذِنَ لِي بِدُخُولِ  
بَيْتِهِ .

رَأَيْتُهُ يَحْزِمُ أَشْيَاءَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : « يَبْدُو أَنَّكَ مُوشِكٌ عَلَى السَّفَرِ . »

سَأَلَ : « هَلْ مُهِمَّتُكَ لَهَا عِلَاقَةٌ بِسَفَرِي ؟ »

« إِلَى حَدِّ مَا . »

« أَتَعْرِفُ أَيْنَ سَأَذْهَبُ ؟ »

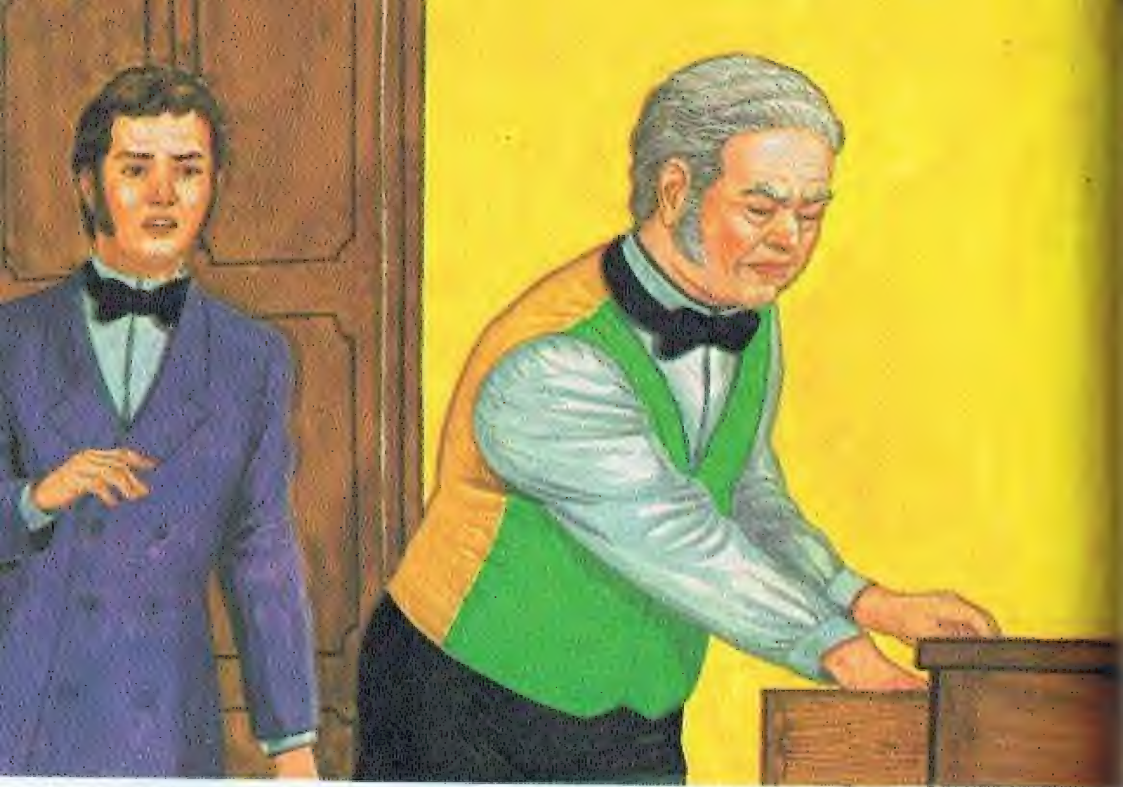
« لَا ، لَا أَعْرِفُ سِوَى سَبَبِ رَحِيلِكَ مِنْ لُنْدَن . »

وَأَنْسَلَ مِنْ أَمَامِي فِي هُدُوءٍ وَرَوِيَّةٍ ، وَأَغْلَقَ الْبَابَ ، وَوَضَعَ  
الْمِفْتَاحَ فِي جَيْبِهِ .

سَأَلَ : « أَتَظُنُّ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْبَثَ مَعِي ؟ »

قُلْتُ : « لَمْ أَجِءْ إِلَى هُنَا لِأَعْبَثَ مَعَكَ . إِنِّي هُنَا فِي مَسْأَلَةٍ  
حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ ، وَلَوْ فَتَحَ الْبَابُ الْآنَ ، فَلَنْ أَخْرُجَ . »





وَجَلَسَ إِلَى مَنضَدَةٍ وَقَالَ : « مِنْ فَضْلِكَ ، أَخْبِرْنِي لِمَ سَأْغَادِرُ  
لُنَدُن . »

« سَأَفْعَلُ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ . سَأُرِيكَ . أَنْتَ لَسْتَ مُرْتَدِيًّا  
مِعْطَفَكَ . ارْفَعْ رُذُنَ قَمِيصِكَ فَوْقَ ذِرَاعِكَ الْيُسْرَى ؛ وَاسْتَرِ  
السَّبَبَ . »

وَارْبَدَ وَجْهَهُ ، وَحَمَلَتْ عَيْنَاهُ فِي حَقْدٍ مَرِيرٍ إِلَى عَيْنَيَّ ، وَلَمْ  
يَقُلْ شَيْئًا ، وَلَكِنَّهُ فَتَحَ دُرَجَ الْمَنضَدَةِ بِيَدِهِ الْيُسْرَى بِيْطْءٍ ، وَدَسَ يَدَهُ  
فِيهِ ؛ فَسَمِعْتُ صَوْتَ شَيْءٍ ثَقِيلٍ بِدَاخِلِهِ . كَانَتْ حَيَاتِي فِي كِفَّةِ  
الْقَدَرِ .

قُلْتُ : « اِنْتَظِرْ لِحُظَةٍ . لَدَيَّ شَيْءٌ أُرِيدُ قَوْلَهُ . »

« لَقَدْ قُلْتُ مَا يَكْفِي . إِنِّي أَفَكَّرُ فِي تَهْشِيمِ رَأْسِكَ وَبَعَثْتَهُ فِي  
أَرْجَاءِ الْعُرْفَةِ . »

أَجَبْتُ : « قَبْلَ أَنْ تُقَرِّرَ ذَلِكَ ، اقْرَأْ هَذَا . » وَأَعْطَيْتُهُ رَدَّ بَيْسِكَ  
عَلَى خِطَابِي . وَفَهَمَ لَتَوهُ ، مَا فَعَلْتُهُ ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنَ الدُّرَجِ خَاوِيَةً  
قَائِلًا : « إِنَّكَ أَذْكَى مِمَّا ظَنَنْتُ . هَيَّا إِلَى الْمَوْضُوعِ الَّذِي جِئْتَ مِنْ  
أَجْلِهِ . مَاذَا تُرِيدُ ؟ كَمْ مِنَ الْوَقْتِ تُعْطِينِي قَبْلَ أَنْ يُفْتَحَ  
الْخِطَابُ ؟ »

« حَتَّى التَّاسِعَةِ مِنْ صَبَاحِ الْغَدِ . »

« التَّاسِعَةُ ؟ نَعَمْ . نَعَمْ . إِنْ فَخَّكَ مَنْصُوبٌ لِي بِبَرَاعَةٍ . هَلَّا  
قُلْتُ لِي مَا تُرِيدُ ؟ »

قُلْتُ : « أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ ارْتَكَبْتَ خُدْعَةً بَشِيعَةً ، كَسَبْتَ بِهَا  
عَشْرَةَ آلَافٍ جُنْيِهِ . لَا أُرِيدُ أَيَّ نُقُودٍ ذَهَبْتَ إِلَى يَدَيْكَ الْآثِمَتَيْنِ ،  
وَلَكِنِّي أُرِيدُ اعْتِرَافًا كَامِلًا مُوقَّعًا بِأَمْضَائِكَ ، وَدَلِيلًا عَلَى التَّارِيخِ  
الَّذِي غَادَرْتَ فِيهِ سَيِّدَةً هِيَ الْآنَ زَوْجَتِي ، بِلَا كُوتَرٍ ، وَسَافَرْتُ إِلَى  
لُنَدُن . »



قال بهدوء : « هكذا ! لقد وجدت نقطة الضعف . أتريد شيئاً آخر ؟ »

« لا . »

« لنفرض أنني وافقت . سأكتب الإقرار ، وأستطيع أن أعطيك خطاباً كتبه صديقي المتوفى يخبرني فيه عن وقت وصول زوجته إلى لندن موقعاً منه ومؤرخاً . أهذا يكفي ؟ أستطيع أيضاً أن أخبرك باسم الرجل الذي أجزر المركبة التي قابلت فيها ليدي غلايد في المحطة . إن دفاتره ستدلك على ذلك التاريخ ، ولكنني سأفعل هذه الأشياء بشروطي . أولاً : أعاذِرُ أنا وزوجتي هذا البيت عندما نريد . ثانياً : أن ترسل وكيلي الذي سيأتي إلى هنا في الساعة السابعة ، مع أمر كتابي إلى الرجل الذي لديه خطابك ، تطلب منه أن يعيده دون أن يفتحه ، وأن تبقى هنا ، بعد وصوله ، نصف ساعة قبل أن تغادر هذا البيت . ثالثاً : تقابلني كرجل شريف في وقت ما ، في المستقبل ، في أوربا ، حتى يصفني سيفانا نزاعنا ، بصفة نهائية . »

كان قراراً واضحاً وسريعاً ؛ إذ قلت : « أقبل بشرط واحد : عندما يأتي وكيلك بخطابي يحرق دون أن يفتح . »

قال : لقد قبلت ؛ فالأمر لا يستأهل المناقشة . « ثم مد ذراعه مصافحاً وقال : « هاك الدليل ! كانت مسألة صعبة وهي تأخذ

مجرها ، ولكن ها هي ذي قد انتهت . »

وتناول بعض الأوراق ، وجلس لتوه ليكتب عن طيب خاطر . راح يكتب بسرعة متناهية ، الساعة تلو الساعة ، دون أن يتوقف لحظة واحدة ، حتى أحاطت به كومة من الورق . وعند الساعة الرابعة ، وقع في النهاية ، باسمه . وصاح وهو يشب وكأنه شاب في ميعة الصبا : « لقد تمت مهمتي ، يا سيد هارترايت ! انتهت ! والآن هيا نرتبها جميعاً . »

وجلس على الأرض وشبكها معاً بقطعة من الخيط ، ثم كتب عنوان الرجل الذي استأجر منه المركبة ، كما ناولني خطاب سير بيرسيغال . وكان مؤرخاً بتاريخ ٢٥ يولييه ، وكان يحمل تاريخ سفر ليدي غلايد إلى لندن وهو يوم ٢٦ يولييه ، أي أنه في اليوم الذي توهم فيه الناس أنها قد توفيت ( يوم الخامس والعشرين ) كانت هي على قيد الحياة في هامبشير وتنوي السفر في اليوم التالي .

واستسلم الكونت لإغفاءة قصيرة ، وما إن استيقظ حتى وصل وكيله ، وكان أجنبياً ذا لحية سوداء .

قال الكونت مقدماً إيانا : « السيد هارترايت - السيد ريوبل . » وكتبت سطرين إلى بيسكا راجياً إياه أن يسلم خطابي إلى ذلك



الرَّجُلِ ، وَنَاوَلْتُهُ رِسَالَتِي . وَفَحَصَ الْكَوْنَتَ الْعُنْوَانَ ، وَقَالَ وَهُوَ  
يَرْمُقُنِي بِنَظَرَةٍ حَاقِدَةٍ : « هَذَا مَا ظَنَنْتُهُ » .

وَأَكْمَلَ حَزْمَ حَقَائِبِهِ ، ثُمَّ بَدَأَ يَدْرُسُ خَرِيطَةً مَعَهُ ، وَهُوَ يَنْظُرُ ،  
بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ ، فِي قَلْقٍ إِلَى سَاعَتِهِ . وَقَبِيلَ السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ ، غَادَ  
رِيوبِلُ ، وَأَحْرَقَ الْخِطَابُ الَّذِي جَاءَ بِهِ فِي الْحَالِ . وَنَقَلَتْ حَقَائِبُ  
السَّفَرِ إِلَى مَرْكَبَةِ رِيوبِلِ ، وَاسْتَقَلَّتِ الْكَوْنَتِيْسَةُ فَوْسَكُو الْمَرْكَبَةِ .  
وَالْتَفَتَ الْكَوْنَتُ إِلَيَّ لِيَقُولَ لِي كَلِمَةً آخِيرَةً .

قَالَ : « أَوْصِيكَ خَيْرًا بِالْأَنَسَةِ هَالِكُومَ . أَوْصِيكَ بِهَا خَيْرًا . إِنَّنِي  
قَلِقْتُ عَلَى تِلْكَ الْفَتَاةِ الرَّائِعَةِ . أَنَاشِدُكَ بِقَلْبِي ، أَنْ تَهْتَمَّ بِهَا ! » ثُمَّ  
دَفَعَ بِجِسْمِهِ الْبَدِينِ إِلَى دَاخِلِ الْمَرْكَبَةِ ، وَرَحَلَ .

## الفصل الثالث والعشرون

وَرَأَيْتُهُمَا أَنَا وَالْوَكِيلُ حَتَّى غَابَا عَنْ أَنْظَارِنَا ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى عُرْفَةِ  
الْجُلُوسِ لِأَنْتَظِرَ نِصْفَ سَاعَةٍ . وَقَضَيْتُ الْوَقْتَ فِي قِرَاءَةِ اعْتِرَافِ  
الْكَوْنَتِ . كَانَ إِقْرَارًا مُطَوَّلًا كُلُّهُ طَنْطَنَةً وَكَلِمَاتٌ مُنْمَقَةٌ حَدَقْتُ  
الكثير منها .

## حكاية الكونت

وَصَلْتُ إِلَى إِجْلَثْرَا مَعَ صَدِيقِي سِير بِيرْسِيْقَالِ غَلَايْدِ عَامَ  
١٨٥٠ فِي عَمَلٍ سِيَاسِيٍّ لِنَ أَبُوحَ بِهِ . كُنَّا - نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ - فِي  
حَاجَةٍ إِلَى نَقُودٍ ، نَقُودٍ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْصُلَ عَلَيْهَا إِلَّا بِمَوْتِ  
زَوْجَتِهِ . وَكَانَ لِصَدِيقِي ، فَوْقَ ذَلِكَ ، مَتَاعِبٌ تَتَعَلَّقُ بِفَتَاةٍ اسْمُهَا أَنْ  
كَاثِيرِيكُ ، كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَعْرِفُ سِرًّا يُمَكِّنُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِ . لِذَا  
رَكَّزْتُ كُلَّ مَوَاهِبِي الذَّهْنِيَّةِ عَلَى مُحَاوَلَةِ الْعُثُورِ عَلَى هَذِهِ الْفَتَاةِ .



وَعَلِمْتُ أَنَّهَا كَانَتْ تُشْبِهُ لِيَدِي غَلَايِدَ ، وَأَنَّهَا هَرَبَتْ مِنْ مُسْتَشْفَى  
الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ . وَوَبَّتْ فِكْرَةَ جَبَّارَةٍ إِلَى ذَهْنِي الْمَتَوَقِّدِ - فِكْرَةَ  
كَانَتْ لَهَا ، بَعْدَ ذَلِكَ ، نَتَائِجُ مَذْهَلَةٍ . كَانَ عَلَى الشَّابَّتَيْنِ أَنْ  
يَتَبَادَلَا مَكَانَيْهِمَا !

وَأَنْتَظَرْتُ عِنْدَ حَظِيرَةِ الْقَوَارِبِ فِي بَلَاكُووتر ، وَلَكِنْ ، بَدَلًا مِنْ  
مُقَابَلَةِ آن كاثيريك ، كَمَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُ ، قَابَلْتُ امْرَأَةً أُخْرَى  
اصْطَحَبْتَنِي لِرُؤْيَيْهَا . كَانَتْ مَرِيضَةً . وَبَدَأْتُ خُطْطِي . كُنْتُ قَدْ  
دَرَسْتُ الطَّبَّ فَأَعْطَيْتُهَا مَا كَانَ ضَرُورِيًّا لِتَقْوِيَّتِهَا ، وَأَعَدَدْتُ الْعِدَّةَ  
لِكَيْ تَذْهَبَ إِلَى لُنْدُنِ .

كَانَ أَمَامِي مُشْكِلَةٌ أَوْ مُشْكِلَتَانِ ، وَلَكِنِّي نَجَحْتُ فِي حَلِّهِمَا .  
كَتَبْتُ الْآنِسَةَ هَالِكُومَ خَطَائِيْنِ وَأَعْطَيْتُهُمَا الْخَادِمَةَ « فَانِي » ؛  
فَتَعَقَّبَتْهَا إِلَى الْفُنْدُقِ خَلْفَ عَرَبَةٍ لِنَقْلِ الْبَضَائِعِ ، ثُمَّ اسْتَعْنَتْ  
بِزَوْجَتِي الْعَزِيزَةَ الَّتِي خَدَّرْتُ « فَانِي » وَحَصَلْتُ عَلَى الْخَطَائِيْنِ ،  
وَفَعَلْتُ كَمَا طَلَبْتُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ تُعِيدَهُمَا إِلَى ثِيَابِهَا ثَانِيَةً .

وَعِنْدَمَا ذَهَبَتْ زَوْجَتِي الْعَزِيزَةُ إِلَى لُنْدُنِ لِاحْضَارِ السَّيِّدَةِ رِيوبل  
إِلَى بَلَاكُووتر ، ذَهَبْتُ بِنَفْسِ قِطَارِ السَّيِّدَةِ كَلِيمَنْتِسَ وَأَن كَاثِيرِيكَ ،  
وَتَبِعْتُهُمَا إِلَى بَيْتِهِمَا ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَيَّ بِعُنْوَانِهِمَا ، وَكُنْتُ أَخْشَى أَلَّا  
تُرْسِلَهُ السَّيِّدَةُ كَلِيمَنْتِسَ كَمَا طَلَبْتُ مِنْهَا ذَلِكَ . حِينَئِذٍ غَادَرْتُ

بَلَاكُووتر لِكَيْ أَعِدَّ بَيْتِي فِي لُنْدُنِ ، وَلَكِنِّي أَنْجَزَ مَهْمَةً صَغِيرَةً مَعَ  
السَّيِّدِ فِيرْلِي فِي كَمْبِرْلَانْدِ .

كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْفَاتِنَةَ مَارِيَانِ سَبَقَ لَهَا أَنْ كَتَبَتْ إِلَيْهِ تَسْأَلُهُ أَنْ  
يَسْتَقْبِلَهَا هِيَ وَأَخْتُهَا فِي لِيمِيرِيدْجَ ، فَذَهَبْتُ إِلَى هُنَاكَ بِنَفْسِي  
لِإِقْنَاعِهِ بِالْمُوَافَقَةِ عَلَى ذَلِكَ ، إِذْ كَانَ لَا بُدَّ لِلْيَدِي غَلَايِدَ أَنْ تُغَادِرَ  
بَلَاكُووتر بِمَحْضِ إِرَادَتِهَا ، وَأَنْ تَسْتَرِيحَ لَيْلَةً فِي لُنْدُنِ فِي بَيْتِ  
عَمَّتِهَا فِي الطَّرِيقِ إِلَى هُنَاكَ . كُنْتُ أَرِيدُ أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ  
مُوجَّهَةً مِنَ السَّيِّدِ فِيرْلِي ، وَعِنْدَمَا أَقُولُ إِنَّهُ كَانَ مُعْتَلِّ الْعَقْلِ  
وَالْجِسْمِ مَعًا ، وَإِنِّي اسْتَخْدَمْتُ مَعَهُ كُلَّ قُوَايَ لِلتَّأْثِيرِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ  
قُلْتُ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ . جِئْتُ ، وَقَابَلْتُ ، وَتَعَلَّيْتُ عَلَى السَّيِّدِ فِيرْلِي .

وَفِي أَثْنَاءِ عَوْدَتِي إِلَى بَلَاكُووتر وَجَدْتُ مَارِيَانِ أَسْوَأَ حَالًا ،  
وَلَكِنِّي أَجَلْتُ نِزَاعِي مَعَ الطَّبِيبِ حَتَّى تَحْسُنَتْ بِفَضْلِ رِعَايَةِ  
إِخْصَائِي مِنْ لُنْدُنِ . وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنَ السَّيِّدِ دُوسِنِ ،  
وَفَعَلًا تَخَلَّصْتُ مِنْهُ .

كَانَ الْخَدَمُ أَيْضًا مَصْدَرُ إِزْعَاجٍ كَبِيرٍ لَنَا ؛ فَفِي الْبَيْتِ كَانُوا  
يَتَدَخَّلُونَ فِي خُطْطِي ، وَلِذَا طَلَبْتُ مِنْ سِيرِيرِيسْقَالِ أَنْ يَفْضُلَهُمْ  
جَمِيعًا . الْخَادِمَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي بَقِيَتْ كَانَتْ مِنَ الْغَبَاءِ بِحَيْثُ لَمْ  
تَكُنْ تُلَاحِظُ أَيَّ شَيْءٍ تُرِيدُ إِخْفَاؤَهُ . وَأَرْسَلْنَا السَّيِّدَةَ مَيْتَشِلْسَنَ



لِلْبَحْثِ عَنْ بَيْتٍ فِي توركاي ، وَبِذَلِكَ أَصْبَحْنَا عَلَى أَهْبَةِ  
الاستعداد . وَكَانَتْ لَيْدِي غَلَايِدَ مَرِيضَةً فِي حُجْرَتِهَا . وَكَانَتْ  
الْخَادِمَةُ الْغَنِيَّةُ مُحْتَجِرَةً هُنَاكَ لِرِعَايَتِهَا . وَكَانَتْ مَارِيَانُ لَا تَزَالُ ،  
بِالرَّغْمِ مِنْ تَمَاتِلِهَا لِلشِّفَاءِ ، مُلَازِمَةً لِلْفِرَاشِ وَبِرُقْفَتِهَا السَّيِّدَةُ  
لِلْقِيَامِ بِتَمْرِيطِهَا . وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ أَنَاسٍ آخَرُونَ بِالْبَيْتِ سِوَايَ وَزَوْجَتِي  
وَسِيرِيرِيسِفَالِ .

وَلَعِبْتُ الْخُطْوَةَ التَّالِيَةَ فِي اللَّعْبَةِ . كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ تُسَافِرَ لَيْدِي  
غَلَايِدَ بِدُونِ أَخِيهَا . وَفِي سُكُونِ اللَّيْلِ حَمَلْتُ أَنَا وَزَوْجَتِي الْكَوْنَتِيْسَةَ  
وَمَدَامَ رِيوبِلَ ، مَارِيَانُ وَهِيَ نَائِمَةٌ عَلَى سَرِيرِهَا ، إِلَى عُرْفَةٍ فِي  
الْجُزْءِ الْمَهْجُورِ مِنَ الْبَيْتِ ( حَاولُوا مِنْ فَضْلِكُمْ أَنْ تَتَصَوَّرُوا هَذَا الْمَنْظَرَ  
الْفَرِيدَ ! ) وَتَرَكْنَاهَا هُنَاكَ تَحْتَ رِعَايَةِ مَدَامَ رِيوبِلَ ، الَّتِي وَافَقَتْ  
بِكُلِّ سُرُورٍ ، أَنْ تَبْقَى سَجِينَةً مَعَهَا حَتَّى تَرْحَلَ لَيْدِي غَلَايِدَ .  
وَأَعْطَيْتُ سِيرِيرِيسِفَالَ خِطَابَ الدَّعْوَةِ الْمَوْجَّهَ مِنَ السَّيِّدِ فِيرْلِي ،  
وَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُرِيَهُ لِزَوْجَتِهِ . كَمَا كَتَبْتُ إِلَى صَاحِبِ مُسْتَشْفَى  
الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ أَخْبِرَهُ أَنَّ مَرِيضَتَهُ قَدْ تَمَّ الْعُثُورُ عَلَيْهَا ، وَأَنَّهَا سَتُعَادُ  
عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ .

وَفِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ ٢٤ يُولِيهِ ذَهَبْتُ زَوْجَتِي إِلَى السَّيِّدَةِ كَلِيمَنْتَسِ  
فِي عَرَبَةٍ بِرِسَالَةٍ يُفْتَرَضُ أَنَّهَا مِنْ لَيْدِي غَلَايِدَ . وَكَانَتْ تِلْكَ الرِّسَالَةُ

كَافِيَةً لَأَنْ تَجْعَلَهَا تُغَادِرُ الْبَيْتَ . وَأَصْطَحَبْتُهَا زَوْجَتِي إِلَى مَشْرِجِ  
وَتَرَكْتُهَا تَنْتَظِرُ فِي الْعَرَبَةِ بِالْخَارِجِ . ثُمَّ عَادَتِ الْكَوْنَتِيْسَةُ فَوْسَكُو إِلَى  
بَيْتِنَا فِي لَنْدَنَ قَائِلَةً إِنَّنَا كُنَّا نَتَوَقَّعُ مَجِيءَ زَائِرَةٍ - لَيْدِي غَلَايِدَ . وَفِي  
تِلْكَ الْأَثْنَاءِ ، ذَهَبْتُ بِنَفْسِي فِي عَرَبَةٍ أُخْرَى ، إِلَى أَنْ كَاثِيرِيكُ  
بِرِسَالَةٍ تَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تَنْضَمَّ إِلَى السَّيِّدَةِ كَلِيمَنْتَسِ وَلَيْدِي غَلَايِدَ ،  
وَبِالطَّبْعِ جَاءَتْ لِتَوْهَا ( يَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ طَرِيفٍ ! ) وَلَكِنْ عِنْدَمَا  
اِقْتَادَتْهَا إِلَى حُجْرَةِ الْاِسْتِقْبَالِ اضْطَرَبَتْ اضْطِرَابًا شَدِيدًا حِينَمَا لَمْ تَرَ  
أَحَدًا سِوَى الْكَوْنَتِيْسَةِ فَوْسَكُو . صَدِمْتُ صَدْمَةً عَنيفَةً حَتَّى ظَنَنْتُ  
أَنَّهَا سَتَمُوتُ فِي التَّوَّ وَاللَّحْظَةِ ، وَتُفْسِدُ كُلَّ خُطْطِي .

وَاسْتَدْعَيْ طَبِيبٌ قِيلَ لَهُ إِنَّ لَيْدِي غَلَايِدَ كَانَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى  
خِدْمَاتِهِ فِي الْحَالِ . وَمِنْ حَسَنِ الْحِظِّ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَسِّنَ حَالَهَا  
بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَلَكِنْ مَرَضُهَا كَانَ مِنَ الشَّدَةِ بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ  
بِمَقْدُورِهَا أَنْ يَقُولَ أَيَّ شَيْءٍ قَدْ يَدْفَعُهُ إِلَى الشُّكِّ . وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ  
فِي غَايَةِ الْقَلْقِ خَشْيَةً أَنْ تَمُوتَ بِأَسْرَعٍ مِمَّا كُنَّا نُرِيدُهُ . وَقَضَتْ لَيْلَةً  
عَصِيَّةً .

وَفِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ ، ذَهَبْتُ فِي طَلَبِ مَرْكَبَةٍ لِاِسْتِقْبَالِ لَيْدِي  
غَلَايِدَ فِي مَحْطَةِ الْقِطَارِ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ ، وَعِنْدَمَا عُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ  
فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ وَجَدْتُ أَنَّ كَاثِيرِيكُ قَدْ فَارَقَتْهَا الْحَيَاةَ - فَارَقَتْهَا



الحياة في الخامس والعشرين ، ولم تكن ليدي غلايد لتصل حتى  
السادس والعشرين ! كنت رجلاً مهزوماً . تصوروا ! فوسكو ، رجل  
مهزوم !

ولكن كان وقت التراجع قد فات . كان الطبيب قد سجل  
الوفاة بنفسه حتى يوفر عليّ جهدي . ولم أستطع تغيير التاريخ ،  
فأتجهت - كما يتجه الرجال - إلى المستقبل ، رابط الجأش ، مرة  
أخرى .

وقابلت ليدي غلايد بالمحطة ومعى تحت مقعد عربتي الملابس  
التي كانت تلبسها آن كاثيريك . واخترعت أخباراً كثيرة أطمئنتها  
بها ، واصطحبتها إلى بيت مدام ريوبل حيث أعطيتها شرباً مخدراً  
فنامت . ووصلت مدام ريوبل بعد ذلك ، ونقلتها إلى فراشها ،  
وغيرت ملابسها تاركة ملابس آن كاثيريك في الغرفة . وفي اليوم  
التالي أخذناها إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وقلنا للممرضة إن  
المرأة البلهاء كانت تتوهم أنها ليدي غلايد .

لقد ارتكبت خطأين : سماحي لهارترايت بأن يفلت مني ،  
وتركي ليدي غلايد طليقة بعد هروبها . وهنا كنت - أنا فوسكو -  
خائناً لنفس السبب ؟ أنظروا في قلبي ! أنظروا تروا صورة ماريان

هالكوم ، أول وآخر حب في حياة فوسكو .

فوسكو

وعندما انتهيت من قراءة هذا الإقرار ، كانت مدة نصف الساعة  
قد مضت ، فتركت ريوبل في البيت الخالي ، ولم أره هو أو زوجته  
ثانية .

ينبغي عليّ أن أسرع إلى نهاية حكايتي . وجدت المكتب الذي  
استأجر منه الكونت العربية بسهولة ، وحصلت على التاريخ  
المطلوب . وتذكر سائق العربية مقابلة ليدي غلايد بالمحطة ، وكان  
قد لاحظ اسمها على الحقائق التي كان عليه أن يحملها إلى  
عربته ، لذا أيقنت أنه كان لدي ، وقتذاك ، الوسيلة لتدمير تلك  
الخدعة الشريرة برمتها . كان معي صورة من شهادة الوفاة ،  
واعتراف الكونت ، وخطاب سير بيرسيغال . وقرر السيد كايل الذي  
أخذت له هذه الأوراق أن قضيتي قد ثبت الدليل عليها ، ورافقنا في  
الحال إلى كمبرلاند .

لا أستطيع أن أكتب عن مقابلاتي مع السيد فيرلي ؛ لأنني لا  
أذكرها إلا بكل استمزاز وضجر . كان أمراً طبعياً أن يوافق على  
طلبي بوجوب قبول لورا في وضعها الصحيح ما دام ذلك سيوفر



وَعَدْنَا إِلَى أَصْدِقَائِنَا بِالْمَزْرَعَةِ لِقَضَاءِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ ( رَفَضْتُ أَنْ  
أُبَيْتُ تَحْتَ سَقْفِ السَّيِّدِ فِيرْلِي ) . وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي عُدْتُ إِلَى  
لُنْدَنْ ، وَهُنَاكَ بَدَأَتْ حَيَاتُنَا وَهِيَ خَالِيَةٌ مِنَ الْهَمُومِ الَّتِي كَانَتْ تُعَكِّرُ  
صَفَوْنَا .

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ سَنَحْتُ لِي فُرْصَةً السَّفَرِ إِلَى بَارِيسِ بِخُصُوصِ  
بَعْضِ الْأَعْمَالِ الْفَنِيَّةِ . وَبَيْنَمَا كُنْتُ هُنَاكَ ، رَأَيْتُ حَشْدًا يَتَجَمَّعُ  
حَوْلَ أَحَدِ الْمَبَانِي . وَعِنْدَمَا سَأَلْتُ عَنْ السَّبَبِ عَلِمْتُ أَنَّ رَجُلًا عَثَرَ  
عَلَيْهِ غَارِقًا فِي نَهْرِ السَّيْنِ ، وَأَنَّ جُثَّتَهُ كَانَتْ مَوْجُودَةً بِالْذَّخِلِ .  
وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا مُفْرَطَ الْبِدَانَةِ . وَدَفَعَنِي شُكُّ مُتَزَايِدٍ إِلَى  
الانْضِمَامِ إِلَى أَوْلِيكَ الَّذِينَ كَانُوا يُرِيدُونَ رُؤْيَا الْجُثَّةِ . وَكَانَتْ  
شُكُوكِي فِي مَحَلَّهَا . هُنَاكَ كَانَ يَتَمَدَّدُ الْكُونْتُ ، فِي مَلَابِسٍ  
مُتَوَاضِعَةٍ ، وَبِهِ جُرْحٌ فَوْقَ مَوْضِعِ قَلْبِهِ ، وَعَلَى ذِرَاعِهِ فِي مَوْضِعِ  
الدَّائِرَةِ الْحُمْرَاءِ ، كَانَ الْحَرْفُ « ت » يَغْطِيهَا ، هَذَا الْحَرْفُ هُوَ  
بِدَايَةُ كَلِمَةِ « تَرَادِيْتُورِي » الْإِيطَالِيَّةِ ، وَتَعْنِي « خَائِنٌ » . وَلَمْ تُكْتَشَفِ  
الْيَدُ الَّتِي صَرَعَتْ كُونْتَ فُوسْكَو ، إِطْلَاقًا . وَلَكِنِّي لَمْ أَنْسَ الرَّجُلَ  
النَّحِيلَ ذَا الْعَلَامَةِ فِي وَجْهِهِ ، وَالَّذِي رَأَيْتُهُ ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، فِي دَارِ  
الْأُوبرَا . عَلَى كُلِّ ، أَنَا لَا أَعْلَمُ شَيْئًا . إِنَّهُ مُجَرَّدُ شُكٍّ .

وَعُدْتُ إِلَى إِنْجِلْتَرَا ، وَهُنَاكَ ، فِي شَهْرِ فَبْرَايِرِ مِنَ الْعَامِ الْجَدِيدِ



عَلَيْهِ الْمَتَاعِبِ . وَأَقَمْنَا فِي مَزْرَعَةٍ تَوْدُ ، وَلَكِنَّا عَقَدْنَا فِي الْبَيْتِ الْكَبِيرِ  
اجْتِمَاعًا لِلْخَدَمِ وَأَهَالِي الْبُيُوتِ الْمُجَاوِرَةِ ، وَشَرَحْنَا لَهُمُ الْمَوْضُوعَ مِنْ  
أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ . وَقَرَأْنَا الْأَوْرَاقَ عَلَنًا ، ثُمَّ سَأَلْتُ إِنْ كَانُوا يُرْجُونَ  
بِقَبُولِ سَيِّدَتِهِمُ الْوَاقِفَةِ إِلَى جَوَارِي ، فَأَخَذَ رَجُلٌ عَجُوزٌ يَقْفِزُ فِي  
الْهَوَاءِ مُلَوِّحًا بِعَصَاهُ فَرِحًا وَهُوَ يَصِيحُ : « هَا هِيَ ذِي ، وَعَلَى خَيْرٍ  
مَا يُرَامُ ! اِهْتَفُوا بِحَيَاتِهَا ، يَا رَجُلًا ! » وَهَتَفَ الرِّجَالُ ، وَبَكَتْ  
زَوْجَاتُهُمْ ، ثُمَّ غَادَرَ جَمِيعُنَا الْبَيْتَ لِزِيَارَةِ الْقَبْرِ ، وَكُنَّا قَدْ اسْتَدْعَيْنَا  
رَجُلًا لِإِزَالَةِ الْكَلِمَاتِ الزَّائِفَةِ عَلَى شَاهِدِ الْقَبْرِ ، وَأَكْمَلَ عَمَلَهُ  
وَنَحْنُ وَقُوفٌ حَوْلَهُ ، وَكُتِبَ فِي مَكَانِهَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْبَسِيطَةُ :  
« أَنْ كَاثِيرِيك - ٢٥ يُولِيهِ ١٨٥٠ » .



وُلِدَ لَنَا أَوَّلُ طِفْلٍ - كَانَ وَلَدًا .

لَمْ يَبْقَ سِوَى حَدَثٍ وَاحِدٍ فِي حَيَاتِنَا لِأَرْوِيهِ : كُنْتُ قَدْ ذَهَبْتُ إِلَى أَيْرْلَنْدَا لِأَرْسُمَ بَعْضَ الصُّورِ لِإِحْدَى الصُّحُفِ ، وَلَمَّا عُدْتُ دَهَشْتُ حِينَ لَمْ أَجِدْ أَحَدًا لِيَسْتَقْبِلَنِي فِي الْبَيْتِ . كَانَتْ لُورَا وَمَارِيَانُ وَالطِّفْلُ قَدْ رَحَلُوا فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ .

وَعَلِمْتُ مِنْ مُذَكِّرَةٍ تَرَكْتُهَا لِي زَوْجَتِي أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى لِيْمِيرِيدَجْ هَاوَسَ ، وَأَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ مِنِّي اللَّحَاقَ بِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِلْقَلْقِ إِطْلَاقًا . كَانَ الْوَقْتُ لَا يَزَالُ مُبَكَّرًا ، فَاسْتَقَلْتُ قِطَارَ الصَّبَاحِ ، وَوَصَلْتُ إِلَى لِيْمِيرِيدَجْ عَصَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

سَأَلْتُ عِنْدَمَا وَصَلْتُ : « مَاذَا ، بِاللهِ عَلَيْكُمْ ، جَاءَ بِكُمْ إِلَى هُنَا ؟ أَمْ يَعْلَمُ السَّيِّدُ فِيرْلِي بِمَجِيئِكُمْ ؟ »

أَخْبَرْتَنِي مَارِيَانُ أَنَّهُ تُوُفِّيَ ، وَأَنَّ السَّيِّدَ كَايْلَ أَبْلَغَهُمْ بَوَفَاتِهِ ، وَنَصَحَهُمْ أَنْ يَذْهَبُوا ، لِتَوَهُمَ إِلَى لِيْمِيرِيدَجْ .

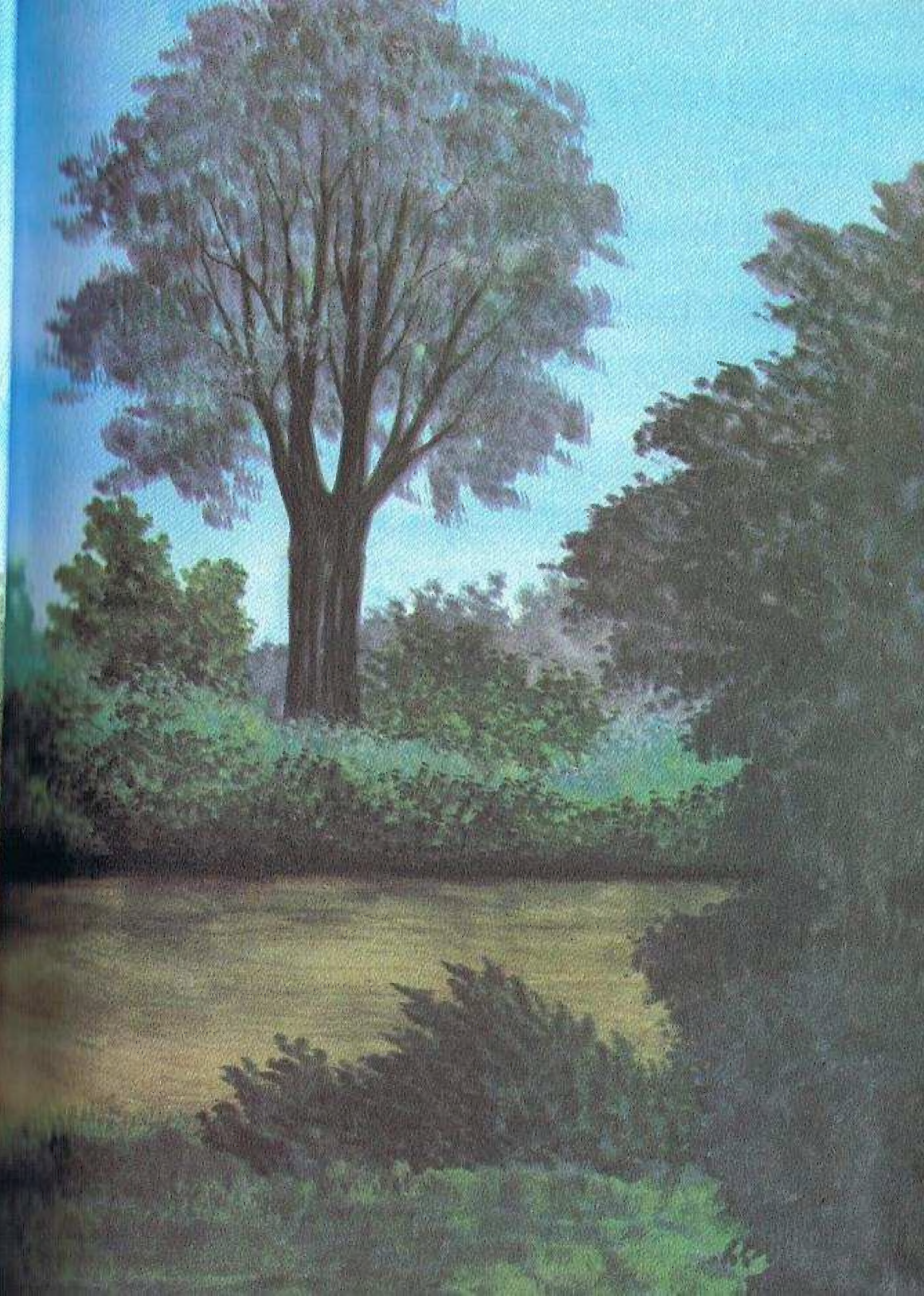
وَمَضَتْ تَقُولُ وَهِيَ تَحْمِلُ الطِّفْلَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا : « أَمْ تَعْرِفُ مَنْ يَكُونُ هَذَا ، يَا وَلْتَرُ ؟ »

قُلْتُ فِي شَيْءٍ مِنَ الضَّجَرِ : « أَظُنُّ أَنَّنِي أَعْرِفُ ابْنِي ! »

صَاحَتْ ضَاحِكَةً : « أَتَتَحَدَّثُ هَكَذَا عَنْ أَحَدٍ أَكْبَرَ إِنْجِلْتِرَا ؟ دَعْنِي أَقْدِمُ كَلًّا مِنْكُمَا لِلْآخِرِ : السَّيِّدُ وَلْتَرُ هَارْتِرَايْت - وَوَرِيثُ لِيْمِيرِيدَجْ ! »

هَكَذَا تَكَلَّمْتُ . وَبِكِتَابَتِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْآخِيرَةَ ، فَقَدْ كَتَبْتُ كُلَّ شَيْءٍ . كَانَتْ مَارِيَانُ هِيَ مَلَاكُ الْخَيْرِ فِي حَيَاتِنَا . وَبِذِكْرِ مَارِيَانُ تَنْتَهِي الْحِكَايَةُ .







## الروايات المشهورة

- |                        |                           |
|------------------------|---------------------------|
| ٩ - الرجل الخفي        | ١ - جين إير               |
| ١٠ - الزمن العصيب      | ٢ - فرانكنشتاين           |
| ١١ - الزنبقة السوداء   | ٣ - مونفليت               |
| ١٢ - الأمير و الفقير   | ٤ - دراكولا               |
| ١٣ - سايلاس مارنر      | ٥ - لورنا دون             |
| ١٤ - الوادي الغاضب     | ٦ - دكتور جيكل ومستر هايد |
| ١٥ - أوليفر تويست      | ٧ - شي الملكة الأسطورة    |
| ١٦ - دافيد كويرفيلد    | ٨ - كونت مونت كريستو      |
| ١٧ - ذات الرداء الأبيض |                           |



مكتبة لبنان  
ساحة رياض الصلح - بيروت

01 C 198118

رقم الكمبيوتر